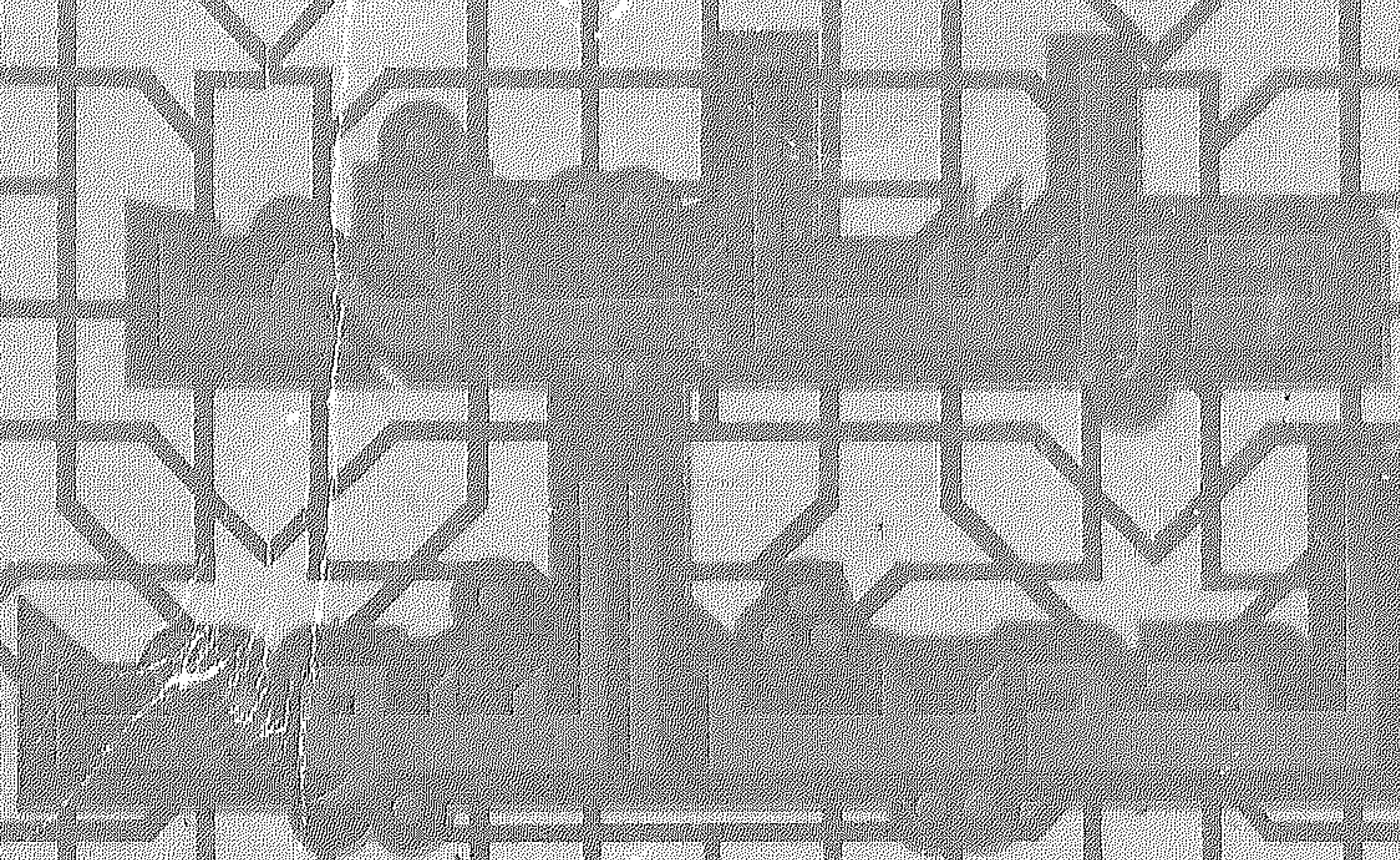




دكتور
عباس بيومي عجلان

دراســـات فى الحـــديث النبـــوى

دراسات في

الحديث النبوي

تأليف

الدكتور عباس بيومي عجلان

المدرس بكلية التربية - جامعة الإسكندرية

١٩٨٤



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أستاذي الشاعر الكبير محمد عبد العليم القباني
تقبل هذا العمل شاكرا ومقدرا، وأرجو أن تجد فيه
متعة القراءة

١١/٢/١٩٨٤م

الإهداء

إلى الرجولة التى ذوت فى أوجها .

والشهامة التى ذبلت عند مجدها .

إلى الرجل الذى تجسدت فيه كل معانى السؤدد والنبل والوفاء .

والأمل الذى انطفأ لحظة توهجه باضياء .

إلى روح أخى الأصغر الشاب الفلاح محمد عجلان .

الذى ضاع منى حين وجدته .

وفارقنى حين عانقته .

أهدى ما فى هذا العمل من ثواب لروحه التى لا تفارقنى .

وخياله الذى لا يزايلنى .

سائلا الله أن يتغمده بواسع رحمته ، وينزله منازل الأبرار .

إنه هو الرحيم الغفار .

عباس بيومى عجلان .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ... وبعد

فللحديث النبوى مكانة خاصة فى نفوس المسلمين ، فهو يحظى باهتمام العلماء والدارسين الذين يتصدرون للدعوة علهم يجدون فيه حكما ، أو تعليلا لأمر ، أو تفسير المشكلة . وهو — الحديث — كذلك يحظى بإهتمام المسلمين كافة لأنه أثر النبى صلى الله عليه وسلم وكلام صاحب الرسالة ، فهم يتعلقون به تعلق محبة ، ويهيمون به حب قداسة لا حب فهم ودراسة .

ومن الناس من يهتم بالحديث لمأرب يريد أن يناله ، وغاية يسعى إليها إذ يريد أن يقف على ثغرة ، أو يدرك ثلمة يوجهها فى صدر الأسلام ، ويطعن بها فى نحره .

فلا غرو — على هذا — أن نهتم بالحديث اهتماما يمزج فيه الحب بالفهم ، والقداسة بالدراسة .

ولما كنا فى الجامعة نولى إهتماما بالغا بالدراسات الأسلامية التى توجه إلى الشباب فى مرحلة حافلة بالمتغيرات ، مليئة بالإنفعالات ، مكتظة بالأهواء والعواطف والاندفاع . فقد حرصت أن أكتب ما تيسر لى من المعرفة فى هذا العلم الجليل موجها القول فيه إلى الشباب المقبل على القراءة ، المتوفر على اكتساب المعرفة ، وتحصيل العلم .

وليس بدعا أن نهتم بالحديث النبوى فقد اهتم به سلفنا من العلماء ، وفرطنا من المفكرين على امتداد التاريخ العلمى للمسلمين . ولاتزال المطبعة تتحفنا بالجديد من البحوث ، والطريف من الدراسات التى تدور حول الحديث .

وهناك ظاهرة بدت للذى يتابع النشاط الشبابى فى الجامعة وخارجها ، وهى الاهتمام الحثيث بالدين ، وتلك ظاهرة تدعو إلى التفاؤل ، وتفتح الأمل عريضا أمام مستقبل تلك الأمة التى ران عليها الخمول . واستبد بها الكمون . ولكن هذه الظاهرة صاحبها إفراط فى بعض الظواهر ، وتطرف فى بعض المناحى ، ومغالاة فى كثير من الاتجاهات ، ووجد دعاة هذه الظواهر فى الحديث النبوى ضالتهم ، فالمعتدل يستمسك بالحديث والمغالى يرفع فى وجه المفرط الحديث ، والمتطرف يتخذ من شكليات الرسوم وظواهرها حاكما فاصلا ، وقانونا لا يتخلف حتى اختلطت الأمور فلا يدرى متبداها من منتهاها ، وغشيت الناس سحابة من الصراع الشكلى الذى يضر أكثر مما يفيد ، ويسىء إلى الأسلام والمسلمين فوق ما يحسن .

وصاحب ذلك تعصب كل ذى نحلة لما يحفظ ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه حتى رأينا طالبا يجادل أستاذه فى أمر صغير بأسلوب عنيف فيه إقذاع فى القول ، وتطاول فى المحاورة ورمى بالجهل والغفلة ، والتفريط والإهمال .

وسمعنا من يرمى الناس بالكفر لأنهم لا يطلقون لحاهم ، ولا يغطون رؤوسهم . أو ينصرفون عن السواك ؛ ورأينا من يتحرش بطالبة ويتعرض لها بالقول الجارح ، والموعظة القاسية المنفرة لأنها لا تغطى كفها ، أو لا ترتدى نظارة ، أو تقرأ فى قاعة الدرس حين يطلب منها أستاذها ذلك .

ولما كان القرآن الكريم لا يختلف حوله إلى حد ما ، وليس فيه من الغرائب ما فى الحديث فقد اتخذ أصحاب النحل الحديث ملجأ وعاصما ، يرفعونه فى وجه المجادل . وقد نسوا أو تناسوا إن من الحديث ناسخا ومنسوخا ، ومن الحديث ما يرجع إلى العادة والظواهر الإجتماعية فهو أدخل فى باب العرف العام منه

فى باب الأتباع والأقتداء . وذلك يحتاج إلى فهم السنة ، والوقوف على ما تضمنه الحديث من فقه . وما إشتمل عليه من دلالات ومرامى .

ولربما وقر فى أذهان بعض الشباب أو من يقودهم أن الحديث يسير الفهم سهل التفسير والإدراك ، فتعلقوا به تعلق ضرورة طلبا للحجة ، ودفعا للشبهة وهم فى ذلك واهمون إذ الحديث يحتاج إلى فهم ثاقب ، ودراية كبيرةللوقوف على أسراره وماداخله من مشكلات وقضايا . والحديث — لذلك — يحتاج إلى عدة علوم تساعد الذى يبغى معرفته . مثل علوم اللغة ، والغريب ، وتاريخ التشريع . والظروف السياسية والإجتماعية التى صاحبت الدعوة الأسلامية ، وما واكبها من أحداث وصراعات . ثم علوم القرآن إلى غير ذلك وصعب على الأنسان المعتاد أن يقف على جل تلك العلوم ، فما بالنا بالشباب الذى لم يقرأ ، ولم يحمل نفسه على فهم ما يقرأ إن قرأ ، ولا تدبر ما يفهم إن فهم ، حتى غدونا فى بيئة غلبت عليها السوقية فى الفكر ، والسطحية فى التناول ، وذلك دليل إنحدار وتخلف ، ورحم الله زمانا كان العلماء فيه ينفرون من الفتوى ، والأجتهاد فيه آخر الأمور ، ففدا الذين لا يعرفون ينفرون من الصمت على جهلهم ، وأصبح الأجتهاد أول ما يفعله الطالب ، ولله درالرافعى حين كتب إلى أبى رية فى رسائله ناصحا له :

وأول أمـــرك أن تستفيـــد وآخـر أمـرك أن تجتهـــد

فلما رأيت جرأة شبابنا المتعلم وغير المتعلم على الحديث جرأة تقحم لا تفهم رأيت أن أدلى بدلوى فى هذا الخضم وأنا على إستحياء من قلة الزاد وبعد السفر . ولكنى أؤمن بالحكمة التى تقول : مالا يدرك كله لا يترك كله .

ومن الأمور التى أثارت اهتمامى وحفزتنى على الكتابة فى ذلك الموضوع

هيام بعض شبابنا المسلم بنظام الحكم الإيرانى تحت قيادة (الإمام آية الله الخمينى والتغزل فى تلك الثورة المسلمة ، والتى تعيد شباب الأسلام ، وترجع مجده التليد إلى الوجود بعد أن غدا أثرا بعد عين .

وهذا الحب دفع بالشباب إلى النفور من نظام الحكم القائم فى مصر ، فأردت أن أنبه شبابنا إلى أن ثورة الخمينى هى ثورة سياسية تتخذ من المذهب الشيعى الرافضى دينا لها ، وهذا ما اضطرنى إلى تناول الحديث عند الشيعة ، لأوقف الشاب على مدى الفروق الجوهرية فى المصادر الأساسية للأحكام . فكم من أمور تحدث باسم الأسلام ، وأحداث تقع متدثرة بشعاره ، والأسلام برىء من كل ذلك .

وهذا الجزء الذى كتبته عن الحديث عند الشيعة ربما كان جديدا ـ رغم الإيجاز الذى فيه ـ على القارىء الشاب .

فقد لاحظت أن الشعارات البراقة تخلب ألباب الشباب ، وتستولى على مشاعرهم فلا يدركون ما وراءها ، ولا يهتمون بغير الظاهر من الأمر ، والبادى من الرأى . فقصدت فيما قصدت أن نتدبر قبل أن نعتقد ، ونفهم قبل أن نصدر الأحكام .

وهناك طائفة من الشباب تنفر من القديم لما فيه من صعوبة فى اللغة ،وعسر فى فهم المصطلحات ، وهذا يقف حائلا بينهم وبين قراءة التراث ، ويخلق حاجزا ثقافيا ونفسيا . ثم إنه يباعد الهوة ، ويعمق الشعور بالنفور والغربة .

فجرأة المتقحم تخلق بلبلة وإنشقاقا ، ونكوص الواهن يوجد تشتتا ، وإفتراقا . فأردت أن أكتب كتابى هذا بلغة يسيرة الفهم ، مرتبطة بمشاعر الشباب وانفعالاتهم حتى نحمل الذى لا يقرأ على القراءة ، ونحد من اندفاع

المقتحم المندفع ، وآثرت أن تكون لغتى ليست بالقديمة ، وإن كانت منها . فإن تحقق لى بعض ما أتمنى من إقبال شبابنا على مثل هذه المؤلفات فقد بلغت ما أبغى ، وظفرت بما أتمنى .

ولا أدعى أن فى كتابى جديدا . فكل ما فيه عالة على أسلافنا العلماء ، ومأخوذ من علمهم . فإن كان فى هذا التأليف من فضل ، فليرجع إلى أهله وهم أساتذة هذا الفن الجليل من علمائنا السابقين الذين أفنوا أعمارهم فى سبيل البحث والتقصى فجاء علمهم — إلى حد كبير — نافعا ومفيدا وخالدا . ولاسيا تلك الثلة من العلماء الذين تصدوا للترهات ، وحاربوا البدع والأوهام وخالفوا ما تعتقده العامة فلاقوا منهم العنت والإضطهاد .

ولقد ألزمت نفسى أن آخذ من صحيح البخارى فقط ، حتى أبعد عن كتابى شبهة الحديث الضعيف لما أعرف من قيمة صحيح البخارى فى نفوس الخاصة والعامة ، ولقد انتهزت هذه الثقة فى أحاديث صحيح البخارى فآثرت أن أتقيد بما ورد فيه .

وربما وجد فى هذا الكتاب بعض الآراء التى لا تأتلف مع العامة ، وفيه أفكار تناهض أفكارا سائدة فى الوسط الثقافى المحافظ . فما ابتغيت الإثارة ، وإنما قلت ما توصلت إليه بعد إعمال فكر ، ومراعاة لظروف كثيرة ، ولم أرد إرضاء طائفة ، أو إغضاب فئة ، فالعلم لا يعرف — إلى حد ما — العواطف والإنفعالات .

ولابد من ملاحظة أمور فى هذا الكتاب .

أولا : إن الكتاب أعد للطالب الشاب الذى لا يقرأ كثيرا فى هذا الموضوع ولذا فقد آثرت تبسيط القواعد ، وتيسير العرض ، والنأى عن التعقيد فى

العرض أو الموضوع ما أمكن ليتسنى للطالب أن يواصل القراءة ، وللراغب فى المعرفة أن يعرف — فالتيسير مقصود بداية . ومطلوب غاية .

ثانيا : لم ألتزم فى هذا الكتاب بآراء رأيت أنها نابعة من الولاء لا من البحث العلمى ، والتصرف الحر ، فلم أشأ أن أقيد نفسى بها ، إذ لا قداسة فى الأسلام لأحد ؛ ولا حرمة لغير الحقيقة . وهذه الآراء مبثوثة فى ثنايا الكتاب ولم أبتغ من وراء ذلك غير تجلية ما أظن أنه من الحق ، وتوضيح ما أراه غامضا ، وشجب ما يخيل إليه أنه يتعارض مع مرامى ديننا الحنيف .

ولما كنت أدرك — سلفا — مدى وقع هذه الآراء على فئة اتخذت العلم سبيلا إلى غاية . فقد ألزمت نفسى بأن أنقل ما ورد من الأحاديث التى تبرهن على صدق ما أراه ، وتعضد وجهتى .

وأرجو ألا يفهم من ذلك أننى أجرح أحدا ، أو أشوه تاريخا ، فما شوه التاريخ غير التقديس النابع من الولاء . والحرمات التى مصدرها الافتراء ، والأبتغاء ، وحماية حقبة من البحث ، وليس فى تلك الحماية ما يفيد الدين ، أو يقوى شوكة الأسلام ، أو ينفى عنه أمرا .

ولكنى أظن — أن البحث الذى لا تطرف فيه ولا هوى هو الذى يفيد المسلمين ويبصرهم بماضيهم وعيوب حاضرهم ، ويكشف لهم عن معالم الطريق

ثالثا : لم أقصد من وراء ما آثرت أن أدين نظاما أو أحكم على نحلة ، وإنما أردت أن أكشف للمغالين أن العصر الذى نعيش فيه ليس بالسوء الذى يصورونه ، وإنما الأنسان أنى كان لا يمكن أن يحقق الكمال الإنسانى ، إذ هو عادة ما تعتد به نواقص النفس ، ونوازغ الشر وحمأة الطين فيرتد إلى أسفل

سافلين إلا من التزم وأدى ما عليه فإنه يزايل نقصه إلى حين ، وينأى عن انحداره ما أمكنه .

ولست – من بعد ذلك – داعيا إلى مخاصمة الشيعة ، أو محاربتها ، وإنما ما قلته تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ولم أبغ من وراء ذلك بعث الأحقاد ، وإثارة الأحسن ، وعودة الماضى .

فأنا أظن أن تفريق الأمة يوهن الدين ، وتبسغيه آراء المعاصرين يخلق نوعا من البلبلة وضربا من القلق ، وحمل الناس حملا على حياة متصورة لم توجد من قبل إلا لماماإنهوإلاإسراف من الخيال ، وإستخفاف بالناس وتاريخهم .

كما أظن أن حمل الناس قسرا على السير فى طريق واحدةتعطيل لملكات الناس ، وإغفال لطاقاتهم وإهدار لقيمة حرص الأسلام على تأصيلهاومراعاتها وهى الفروق الفردية ، والاستعدادات الخاصة .

ويهمنى أن يفهم شبابنا المتعلم أن الدين الحنيف الذى يساير الفطرة لا يضيق بأى إتجاه ، مادام لا يعارض روح الأسلام أو ينكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو يخالف نصا صريح الدلالة لا تأيل له ولا مخرج فيه .

ومن هنا فالأتساع مطلوب فى فهم الأسلام ، والرحابة أساس من أسسه والأختلاف الذى لا تضاد فيه من قواعده ومناهجه ، إذ هو أمر طبيعى ، ومسلك حميد لا غبار عليه .. ومن هنا فعلينا أن نفهم أن الخلاف غير الحاد أو المتعارض ليس مدعاة إلى التنابذ ، ولكنه مؤشر خير ودليل فهم ، ولذا فعلينا أن ندير الحوار بيننا – إذا اختلفنا – بالحب والمودة وطرح الأحكام المسبقة ، والتراكيب الجاهزة فى تنسيق الناس ، وترتيب طبقاتهم ومنازلهم .

ثم إن ديننا – بعد ذلك – لا يغمط المجتهد حقه وإن أخطأ ، ولا يضيق

ذرعا برأى وإن تجاوز الحد .. شريطة أن يكون الحق غايتنا ، والاحترام سبيلنا .

وما أبغى من وراء ما قدمت غير توضيح موقف أحسست فى وقت أننى أستطيع أن أكشف عنه ، وأعترف اعترافا لا مرية فيه أن بضاعتى مزجاة ، وجهدى وإن تضاعف فهو كليل ، وعلمى بطبيعة الحال نزر قليل .

وأرجو أن أكون قد وفقت بحول الله وقوته فى تبصير من كاد يزيغ ، وتثبيت من على بينة ، ومناقشة من هو فى غاشية .

وإننى لعلى يقين بأن الفهم وإن كان ثاقبا فهو أحيانا سقيم ، والطبع وإن كان قويا فهو فى وقت مليم . والعالم وإن تحرى ففوق كل ذى علم عليم .

عباس بيومى عجلان .

بسم الله الرحمن الرحيم

أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً عليه الصلاة والسلام على فترة من الرسل إلى أمة غلبت عليها البداوة ، واستبد بها الطيش ، وتحكمت فيها الأهواء ، والشهوات ، ونأت إلى حد بعيد عن الديانات السماوية المنزلة .

كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آيتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون البقرة ١٥١ ....

وقد أوحى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام قرآنا يتعبد بتلاوته ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فتح الله به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وهدى به من الضلالة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ هذا التنزيل إلى الناس ، ويؤديه كما أمر : «يا أيها الرسول بلغ بما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» (١) .

ولا مناص من التبليغ حتى يكون رسولا ، فالرسول إنسان حر ذكر أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه ، فإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقف دوره عند حد التبليغ ، وإن كان دورا عظيما وإنما لابد أن يشرح للتابعين ما غمض عليهم من معنى لفظ ، وما عمى عليهم من فقه ، وقد وضحت آية آل عمران بعض المهام التي يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم .

---

١ — المائدة ٦٧

قال تعالى :

«لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» (١) .

والقرآن لم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليقوم بتبليغه فقط وإنما ليوضح مراميه ، وليكشف عن أغراضه ، ويعرب عما أنبهم على الناس .. «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون» (٢) .

ولربما إختلف الناس حيال أمر دنيوى ، أو تفرقوا فى قضية الهية ، أو عقدية ، فيبين لهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي إختلفوا فيه فيرتفع الشقاق ، ويقضى على بوادر الفتنة ، ويهدى به إلى صراط مستقيم .. «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى إختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» ( ) .

فالرسول ليس مبلغا فقط ولكن له دور إيجابى وفعال فى تأسيس الدعوة ، وبنائها ، ومن هنا فإنى أزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يضطلع بالأعباء الآتية :—

أولا التبليغ :

وهو تبليغ كافة الناس وحى الله فلا يخص فردا ما بشىء ، ولا يجوز له أن يكتم شيئا ، ومن هنا فنحن نشك فى إدعاء الشيعة إختصاص على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأمر قد خفى على جلة الصحابة ، وحباء فاطمة رضى الله عنها بشىء من أسرار الرسالة .

وصريح القرآن يأمره بالتبليغ «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وقوله «فاصدع بما تؤمر» . فالأمر بالتبليغ يقتضى إبلاغ الكافة ، وأن يصدع

١ — آل عمران ١٦٤
٢ — الاسراء ٧٤

بما يؤمر ، فهو قد بعث للناس كافة ولا يجوز عليه أن يكتم شيئا أو يخفى أمرا ، وإلا لما يكون قد بلغ ، ولو جاز لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يكتم شيئا أو يخفى أمرا لستر على أمور أخرى وردت فى القرآن الكريم تمس حياته الخاصة وتتناول سلوكه ، وتأخذ عليه أشياء ، ومن هنا فنحن نعتقد أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يخف شيئاً ، ولم يكتم أمرا لما فى القرآن من آيات تدين سلوك رسول الله وتلومه أحيانا .

فمثـــلا :

«ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا .» (١) .

وقوله تعالى :

«ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» (٢).

وقوله تعالى فى سورة هود :

«فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير» (٣)

ولو كان صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من القرآن لكتم قوله تعالى فى سورة الأحزاب «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» (٤)

فهذه الآيات التى تنتقد بعض المواقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتروى ، وتحفظ لتدل دلالة واضحة أنه تنزه عن الكتمان ، أو الحجب .

---

١ — الاسراء ٧٤

٢ — الأنفال ٦٨

٣ — هود ١١٢

٤ — الأحزاب

ويدخل فى باب التبليغ عدم التزيد ، فلا ينبغى له أن يضيف من عنده إلى الوحى ، إذ التبليغ يقتضى الأمانة ، وهو الصادق الأمين قبل أن يبعثه الله ، والآداء الصادق يستلزم عدم الزيادة فى القول .. ويكفى أن نقرأ قوله تعالى :

«ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين» (١) . ؛ وفى سورة النجم «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى» (٢) .

وعلى هذا فلا يجوز أن يدعى أحد أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من القرآن أو خص إنسانا بوحى ، ولو فعل محمد ذلك لكان مخالفا لأوامر ربه ، غير أمين على وحية ورسالته .

ثانيا — البيـــــان :

يأخذ البيان عدة صور ، وذلك مستمد من أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويمكن أن نوجزه فى النقاط الآتية :—

١ — بيان معنى اللفظ بأن يفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن البين أن العرب لم يكونوا على لسان واحد ، فلكل لهجته ولغته ، وهنا تظهر أهمية هذا الدور الذى يقوم به النبى عليه الصلاة والسلام إذ لولم يبين الرسول كيف يقيم العربى لغته ، ويعدل من نطقه ، أو ييسر لهم فهم أشياء يعسر التخلص منها ، لألفينا قراءات شتى على قدر إختلاف الألسنة واللهجات ، أو لحمل الناس حملا على نطق معين ، ولزوم حالة واحدة وفى ذلك إرهاق ومشقة ، فالبيان هنا لا يكتفى بالكشف عن معنى لغوى غامض وإنما يتعداه إلى الأبانة عن كيفية النطق ، وحدود المسموح به ، وهذا دفع للحرج ، وجلب للمصلحة العامة .

٢ — بيان المعانى ، وإظهار المقصود من الآيات ، فقد يكون الحكم عاما ، أو مجملا ، أو مطلقا ، فيبين الرسول صلى الله عليه وسلم تخصيص العام

---

١ — الحاقة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

٢ — النجم ٣ ، ٤

وتقييد المطلق ، وتوضيح المجمل ، وربما كان هذا من مدلولات قوله تعالى : (وأنزلنا عليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) .

والرسول صلى الله عليه وسلم بذلك له دور إيجابى فى تكملة الفهم وإقامة الحجة ، ولو ترك الأمر على إطلاقه لوقع العنت ، وزادت شقة الخلاف وأنبهم كثير من الأمور .

وسنضرب لذلك بعض الأمثلة التى تغنى ، ونعرض عن الإسهاب والتكثر فقد قال تعالى فى شأن السارق :

«والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم» . (١)

فى الآية أمور مطلقة كالسارق . فلابد من تعريفه ، والمسروق . ما مقداره ؟ ، واليد ما حدودها . ؟ فتجد فى السنة تحديداً لكل هذه الأمور المبهمة المطلقة وقد وضحت فى السنة العملية . والمواقف التطبيقية .

وفى سورة النساء «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق إثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث» (٢) . فمقتضى ظاهر هذه الآية يوجب أن يرث كل والد ولده ، وكل ولد والده ، ولكن السنة إشترطت إتفاق الدين ، ومنعت أن يرث المسلم الكافر مثلا .

وفى قوله تعالى فى سورة البقرة «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» (٣) . فلربما يطلق النكاح على العقد أو الدخول ، أو اللقاء الجنسى ولولا بيان السنة لأنبهم المعنى ، واتسعت الدلالة . «عن عروة بن الزبير أن

١ — المائدة ٣٨
٢ — آية رقم ١١
٣ — آية رقم ٢٣٠

عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رفاعة القرظي طلق إمرأته فبت طلاقها . فنكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنها كانت تحت رفاعة فطلقها ثلاث تطليقات ، فتزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزبير ، وإنه والله ما معه إلا مثل هذه الهدبة (وأخذت بهدبة من جلبابها) فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا وقال : لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا . حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته — قالت (عائشة) وأبو بكر جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالد ابن سعيد بن العاص بباب الحجرة لم يؤذن له فطفق خالد ينادي أبا بكر ، ألا يزجر هذه عما تجهز به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم(. (١)

وحين نزل قوله تعالى :

«الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الآمن ، وهم مهتدون»(٢)

إهتم أصحاب محمد ، وظنوا أنهم لن ينالوا الأمن ويدركوا الهداية فمن منهم لم يشب إيمانه ضيم أو عسف ؟ ولذا قالوا له : «أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ والذي أزعجهم أنهم فهموا الظلم بالمعنى المتعارف عليه بينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بذلك ، إنما هو الشرك ، واستدل بآية لقمان : «يا بني لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم» . أخرجه الشيخان وغيرهما .

ففي هذا المثال المتقدم فهم الصحابة معنى اللفظ على ما اعتادوه ، فخصص دلالته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا تقييد للدلالة .

وفي مثال آخر نجده يوسع في الدلالة حين يشرح لهم آية قصر الصلاة ...

---

١ — الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ١٣ ، ١٤ — طبع المكتبة العلمية — بيروت

٢ — الأنعام آية ٨٢

«وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» .(١)

والمعنى المتبادر إلى الذهن من هذا النص أن قصر الصلاة فى السفر مراعى فيه شرط الخوف من الفتنة «إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» .. ولذا فقد عن سؤال عن الحكم إذا امتنع الخوف ، واطمأن الناس فيقولون : ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا ؟ .. فيقول : «صدقة تصدق الله بها عليكم فأقبلوا صدقته» .. رواه مسلم .

وفى المحرمات من الأطعمة جاءت الآية مطلقة .. «حرمت عليكم الميتة والدم ..» (٢) فاستثنى الرسول من الميتة المطلقة فى الآية ميتتين .. ومن الدم نوعين .. فقال : «أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد .. والكبد والطحال «أخرجه البيهقى» . وليس من قبيل الهزل أن يقول مكحول وهو إمام ثقة «القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن» .

فلولا بيان رسول الله صلى عليه وسلم لأمتنع الناس عن حلال ، ولحجروا واسعا .. ووقعوا فى العنت والمشقة ، فالتيسير لا يأتى من قبل التابع إذ المعلوم أنه يتشدد ويبالغ عله ينال هدى ، أو تمسه رحمة الله . ولذا كان تيسير محمد صلى الله عليه وسلم رحمة وتخفيفا إذ رفع بذلك الحرج ، ودعا إلى اليسر ، ولا ريب فهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

٣ — البيان العملى :

وذلك يكون بأن يمارس صلى الله عليه وسلم عبادة مفروضة أمام الناس

---

١ — النساء آية ١٠١
٢ — المائدة آية ٣

فيرون صنيعه ... فيفعلون فعله ، ويقتفون أثره ، ثم ينقلون ما رأوه وقاموا به إلى غيرهم من التابعين لهم بإحسان ، وهذا ركن قويم من أركان البيان النبوى ولا ريب أن الأثر الذى يدعمه العمل أقوى من أثر القول ، فقد لا يفهم القول على حقيقته ، أو يحرف فى نقله ، فيقع الاختلاف ولو يسيرا .

أما الأسوة الحسنة فتتمثل فى الفعل الذى ينطبع فى السلوك والوجدان ، وعلى هذا فقد وصف لنا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من العبادات كالصلاة التى يقول عنها : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ... والحج وقد جاء فيه .. «خذوا عنى مناسككم» .

وليس فى القرآن تفصيل لأركان الصلاة وكيف تؤدى ، ولا بيان لأوقاتها بل هو أمر مجمل قال تعالى : «وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل أن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكر للذاكرين» (١) ... وقوله تعالى .. «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا» .. (٢) .

فليس فى هذا تحديد ميقاتى وقد خلت من عدد ما افترضه الله .

وفى القرآن أوامر عامة مثل «أقيموا الصلاة» و «وآتوا الزكاة» و «أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» ... ولا سبيل إلى معرفة ما يراد من كل ذلك إلا ببيان عملى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبرغم الأخذ عن عمل رسول الله فقد وقع خلاف فى هيئات الصلاة وسننها ، فما بالنا لو لم يحرص الرسول الكريم على البيان العملى ؟ . ويعضد عمله بقوله «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ؟ .

---

١ — سورة هود آية رقم ١١٤ .

٢ — سورة الاسراء آية رقم ٧٨

ورحم الله ابن حزم حين قال : «ولو أن امرءا قال : لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند الفجر ، لأن ذلك هو أقل مايقع عليه اسم الصلاة ، ولاحد للأكثر فى ذلك» .. (١)

ثالثا — التشريع :

أحيانا يشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأمور التى يراهامكملة وربما يؤدى إهمالها إلى الوقوع فى مخالفة روح الشريعة أو التناقض مع مبادئها العامة ، وفى الأمثلة التى قدمناها ما يفى بالغرض ، ولكننا نضيف هنا ما يزيد فى الثقة بما نزعم .

فمن ذلـــك :

١ — تحريم زواج المرأة على عمتها ، أو على خالتها ، ولم يرد هذا فى سورة النساء حيث نصت الآية على المحرمات تأقيتا ، أو تأبيدا .

٢ — تحريم الزواج بالأقارب من الرضاعة مثل المحرمات من النسب .

٣ — إعطاء الجدة السدس فى الميراث .

٤ — تحريم أكل كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير .

٥ — النهى عن أكل الحمر الأهلية .

٦ — تحريم الذهب والحرير مع أنه من الزينة التى أباحها الله لعباده فى سورة الأعراف ... «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق» . (٢)

إلى غير ذلك من النماذج المعلومة فى العبادات والمعاملات والفرائض .

---

١ — الأحكام فى أصول الأحكام ج ١ ص ٢٠٠ — نشر زكريا على يوسف — القاهرة .

٢ — الآية ٣٢

وإنما تطرقنا إلى هذا لندفع ما يتوهمه بعض الناس من قصر عمل محمد صلى الله عليه وسلم على التبليغ فقط ، مستشهداً بقوله تعالى : «إن عليك إلا البلاغ» وقوله : «فذكر إنما أنت مذكر» (١) .. فهذا مدخل خطير لتقويض الدعوة الاسلامية ، ونبذ السنة ، والتحلل بعد ذلك من عرى الين .

ولو لم يكن للرسول إنشاء حكم ما أمرنا بأتباعه ، ولا جاء الحكم بطاعته.. من يطع الرسول فقد أطاع الله» . «ومن تولى فى أرسلناك عليهم حفيظا» (٢) .

وفى سورة الأحزاب ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن حيال أمر اللهورسوله «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذ اقضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» (٣) .

ومن الطريف تلك المناقشة التى جرت بين عبد الله بن مسعود وامرأة جاءت إليه قائلة : أنت الذى تقول لعن الله النامصات والمتنمصات ؟ . قال نعم .. قالت : فإنى قرأت كتاب الله فلم أجد فيه ما تقول : فقال : أماقرأت قوله تعالى : «ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» . قالت : بلى . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعن الله ..... وذكرالحديث

فالعلماء من سلفنا الصالح يعتبرون السنة ضرورية فى صحة العقيدة وإقامة حدود الله .

ولعل من المفيد هنا رأى ابن حزم وهو من الأئمة الفضلاء ، وقوله له وجاهته عندى : «لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه فى الشرائع ،

---

١ — الغاشية ٢١

٢ — النساء ٨٠ .

٣ — الآية ٣٦ .

نظرنا فيه فوجدنا إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفا رسوله (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) .. فصح لنا بذلك أن الوحى ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى قسمين :
أحدهما وحى متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن ، والثانى وحى مروى منقول غير مؤلف ، ولا معجز النظام ، ولا متلو لكنه مقروء ، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» (١) .

ويظهر فى القول أثر المذهب الظاهرى لدى ابن حزم ، فأنه قسم لأدنى مشابهة واعتبر ما روى عن رسول الله من الوحى .

ونحن مع أجلالنا لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نعتبره وحيا بالمعنى الذى يفهم منه المساواة مع القرآن .. ولذا فإنى لا أتابع ابن حزم فى أسلوبه وإن كنت أتفق معه فى الدلالة العامة لقوله .

وقال يحيى بن أبى كثير «السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب قاضيا على السنة» . (٢) وفى هذا القول صدق وإن تورع بعض العلماء عن متابعته وقال حين روى له أن السنة قاضية على الكتاب : «ما أجسر على هذا أن أقوله ولكن السنة تفسر الكتاب ، وتعرف الكتاب وتبينه (٣)

وليس هناك فرق كبير بين القولين . وبذا اتضح إلى حد ما مكانة السنة ومنزلتها .

---

١ — الأحكام ج ١ ص ٩٦

٢ — الكفاية فى علم الرواية ص ١٤ .

٣ — المرجع السابق ص ١٥ .

السنة :

يدور مصطلح السنة حول عدة معان يمكن إيجازها فى النقاط الآتية .

١ — تطلق السنة على الطريقة التى تنظم حركة إنسان ما ، فإذا كنت أسلك سلوكا خاصا فى أمر معين ، فهذه سنتى فيه ، من غير أن أدين هذا السلوك أو أقرظه ، ولذا فلكل قوم سنة ، ولا نعدوا الحقيقة إذا زعمنا أن لكل إنسان سنة .. وعلى هذا جاء قول الشاعر الجاهلى مالك بن عجلان :

لا نقبل الدهر دون سنتنا
فينا ، ولا دون ذاك منصرف (١)

ومنه سنة الله «ولن تجد لسنة الله تبديلا» .. أو قوله تعالى .. «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا» .

ويحمل على ما نقول قول خالد بن عتبة الهذلى :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها
فأول راض سنة من يسيرها

وعلى هذا يمكن أن يحمل كل ما وصل إلينا من أمر رسول الله فهو سنته وطريقة معالجته للأمور التى يتصدى لها ، ومن هذا الباب سنة أبى بكر ، وسنة عمر ، وسنة المبتدعة ، وفى هذا الإطار يجوز أن نقول سنة حسنة إذا أتفق نظامها مع الغاية من مقصود الدين ، وسنة سيئة إذا تنافت ومقتضيات الشريعة أو تنافرت مع الرسوم العامة لمقاصد الشارع .

٢ — تطلق السنة على الشىء الجديد .. تقول سننت الشىء أى بدأته ، ولذا جاز لنا أن نطلقها على السنة المحمدية لأنها تشريعات جديدة على المجتمع

---

١ — جمهرة أشعار العرب ص ٢٤٤ — المكتبة التجارية — ١٩٢٦ م — القاهرة

العربى آنذاك ، ومن هنا فمن الممكن أن يصدر عن صحابى أمر جديد يلقى قبولا من العرف الاسلامى ، أو من الرسول فيعتبر سنة .

ومن هذا ما ورد من أن الصحابة كانوا إذا دخلوا فى الصلاة ثم أتى أحدهم بعد ذلك يسأل من يقف بجواره على عدد الركعات التى صليت فيسرع السائل بأدائها ، ثم ينتظم بعد ذلك مع الجماعة ، حتى رفض معاذ بن جبل هذا الفعل ، ولم يسأل أحدا حين أتى متأخرا ، وصلى مع الجماعة ما شهده ثم أكمل ما فاته ، وتعجب القوم لهذا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم راقه ما فعل معاذ فقال : «قد سن لكم معاذ فاتبعوه» .

فالسنة تطلق على الفعل الأول ، أعنى الحدث الجديد ، ولذا فقد تقابل بالإرتياح أو النفور ، ويمكن أن نستأنس فى هذا بقول (نصيب) حين لقى أنكارا واستهجانا لسلوكه :

كأنى سننت الحب أول عاشق

من الناس إذ أحببت من بينهم وحدى

وهذه المعانى اللغوية ملحوظة فى النقل الاصطلاحى ، فالسنة تأخذ عدة مستويات لدى الباحثين على اعتبار أن كل باحث يهتم بطبيعة موضوعه .

فإذا كان الدارس من علماء الفقه إهتم بكل ما يستنبط منه حكم شرعى سواء أكان على سبيل الوجوب ، أو الحرمة ، أو الندب أو الإباحة ، ونأى عن أحاديث الشمائل والوعظ والقصص .

وأما علماء الحديث فهم ينقلون كل ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى كافة أحواله ، وربما أطلق الفقهاء على السنة «الطريقة المتبعة فى الدين من غير إفتراض ولا وجوب» (١) .

١ — التعريفات — الجرجانى

وهذا هو المعنى المتداول عرفا لدى الناس ، فكأن السنة تعنى النفل ، أو تقابل الفرض والواجب ، أو بتعبير آخر هى ما تؤجر على عمله ولا تذم على تركه ، وهذا غير صحيح ، فمن السنة مالا يجوز تركه ، وما أدخل على المسلمين من الفساد غير التساهل فى المصطلحات وعدم تحديد الدلالة ، والتهاون العلمى فى أمر دينى .

وإذا كانت السنة تطلق على الطريقة محمودة كانت أو مذمومة ، فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى كل ما ورد عنه بما يشتمل عليه من أقوال وأفعال ، وتقرير .

وعلى هذا فمصادر السنة ما يلى :

١ ــ أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم : وتشمل كل ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول ووثقنا به ، سواء إشتمل على حكم موجب أو نهى ، أو إباحة ... ولسوف نتناول الحديث بشىء من التفصيل بعد ذلك .

٢ ــ أفعاله صلى الله عليه وسلم :

من السنة ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر مفروض أو غيره ، فصلاته ، وزكاته ، وحجه ، وقضاؤه ، فكل ما ثبت من فعله وصح فهو سنة .

٣ ــ تقريره صلى الله عليه وسلم :

من السنة ــ كذلك ــ ما أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفعال غيره سواء أصاحب الأقرار صمت أم تأييد وإستحسان .

فمن ذلك تلك المحاورة التى دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن قاضيا ، فقد سأله الرسول : «كيف تصنع أن عرض لك قضاء» ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ . قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ .. قال : أجتهد رأيى لا آلو» .. قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله» .. (١) .

ومن الأقرار أيضا ما حدث بعد الإنتهاء من غزوة الأحزاب ، فقد روى أن محمدا عليه الصلاة والسلام خلع لباس حربة ، فرآه جبريل وأوحى إليه أن يتوجه من فوره إلى يهود بنى قريظة ، فأراد محمد عليه السلام أن يتعجل القوم فقال : «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» ، فمنهم من صلى العصر فى وقتها وفهم من قول النبى ما يلزم عنه وهو وجوب الإسراع وعدم التراخى فى تنفيذ الأمر ، ومنهم من نفذ ما سمع فلم يصل العصر حتى وصل ديار القوم ، فأقر الرسول كلا الفريقين ، ولم ينكر على أحدهما صنيعه .

ومن إقراره صلى الله عليه وسلم أكل خالد بن الوليد للضب مع أنه عليه السلام لم يأكل منه ، والأمثلة كثيرة .

٤ — فعل الصحابة :

يدخل فى مفهوم السنة عندى ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم جلبا لمصلحة عامة ، أو درءا لمفسدة ، ولا ريب فى ذلك فهم تلاميذ مدرسة النبوة ، والذين تلقوا التشريع من صاحبه ، وأفهم الناس عن رسول الله ، وأقربهم إليه ، وهم الذين ضحوا فى سبيل إعلاء كلمة الله .

---

١ — أعلام الموقعين عن رب العالمين — لابن القيم — ج ١ ص ٢٠٢ .

ونحن إذ نقول ذلك فإنما نستأنس بما نسب إلى الرسول من قوله : «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى» (١) .

وإن كنت لا أستريح تماما لنعت الخلفاء بالراشدين فى ظنى أن هذا حكم سياسى قيل بعد الفتنة .

ونحن فى أخذنا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نقلل من قدرالقرآن وإنما نريد أن نأخذ ممن هو أعلم منا بالقرآن ، فكذلك فى إعتبارنا أن من السنة عمل الصحابة ولا سيما المتفق عليه مثل جمع القرآن ، وكتابته فى مصحف ، وحمل الناس عليه ، فأننا نزيد من رحابة السنة ونأخذ عن المتأثرين بالروح العامة لهدى محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد فطن بعض سلفنا الصالح إلى هذا ، واعتبر أن فتاوى الصحابةوعملهم من السنة ، فابن شهاب الزهرى وهو إمام له قدره وخطره فى الإسلام وعالم المدينةوأستاذ مالك بن أنس ، يرى أن ما جاء عن أصحاب رسول الله من السنة وقد إعترف بذلك صالح بن كيسان حين قال : «كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم ، فاجتمعنا على أن نكتب السنن ، فكتبنا كل شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم» .. ثم قال : «أى ابن شهاب» أكتب بنا ما جاء عن أصحابه ، فقلت : لا . ليس بسنة ، وقال هو : بل سنة ، فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت» (٢) .

وقد أدرك مدى أهمية ما كان عليه الصحابة وقاموا به ، لفيف من علمائنا السابقين نذكر منهم الإمام أبا عبد الله أحمد بن حنبل الذى نص فى رسالته إلى

١ – أخرجه أبو داوود عن العرباض بن سارية – أنظر سنن أبى داوود جـ ٢ ص ٥٠٦ .
٢ – جامع بيان العلم وفضله لأبن عبد البر جـ ١ ص ٧٧٥٧٦ دار الكتب العلمية – بيروت

عبدوس بن مالك «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والإقتداء بهم» . (١).

وعلى هذا فأقوال الصحابة وفتواهم البريئة من العصبية والمذهبية، والمتفقة مع المقاصد الاسلامية العامة ، تعتبر من السنة ويؤخذ بها .

ويدخل فى قولنا هذا ما ورد عن أبى سعيد الخدرى أنه خرج رجلان (من الصحابة) فى سفر ، وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت ، وهنا اختلفا ، فتوضأ أحدهما ثم أعاد صلاته وبقى الآخر على ما هو عليه ولم يعد صلاته ، فلما رجعا قصا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من أمرهما ، فقال الذى لم يعد «أصبت السنة» ، وللذى عاد «لك الأجر مرتين» .

ومن هنا نأخذ أن عمل الصحابة إذا اتفق مع الغرض العام للشريعة ، ولم يخالف نصا ، أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة يعتبر من السنة ، وعلى ذلك فجدير بنا أن ننبه طلبتنا إلى أمرين هامين :

الأول :

خطورة الاعتقاد بأن السنة هى الحديث فقط ، فقد كنا نسمع كثيرا من الطلبة عند المناقشة فى أمر أن يقول أحد المناقشين للآخر هات لنا حديثا ، فهو لا يصدق غير الحديث ، بل يبالغ بعضهم فلا يصدق غير البخارى ومسلم ، وفى هذا حجر لما وسعه الله ، وتضييق على الناس ، ومخالفة للعرف العلمى والاسلامى .

---

١ - نقض المنطق لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨٦ طبعة أنصار السنة المحمدية ١٩٥١- القاهرة .

الثـانى :

قصر السنة على ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول وإن كان أكثر تسامحا من الأول إلا أنه لايزال غير مدرك لتطور الأحداث فى عصر الصحابة ، غافل عن العوامل الخارجية والدخلية التى أثرت تأثيرا كبيرا فى الرواية .

ولنا على هذا الرأى ملحوظات :

١ — ليس كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحا ،وقد تصدى لذلك علماء الدراية الذين وقفوا لأهل الرواية ، وكتب الرجال والجرح والتعديل فيها زاد وفير لمن أراد أن يقف على بعض ما نقول .

٢ — حين اشتد الإنكار على الرواة ، وظهر جليا الولع بالحفظ ، والتظاهر بالكثرة لجأ بعض الصحابة والتابعين من الذين تغلب عليهم الورع إلى أن لا يرفعوا الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فمن الحديث الموقوف ما يصل إلى درجة المرفوع ، وإنما آثر الصحابى ألا يصرح بالسماع ، حتى لا يشايع الظاهرة التى كانت سائدةآنذاك من كثرة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن سلك من الصحابة والتابعين هذه السبيل فإنما رموا إلى غاية عظيمة ، إذ جنحوا إلى التحفظ ، وإبتعدوا عن المشاركة فى تلك الظاهرة التى عمت ، والبلوى التى رانت على من يروجون رواياتهم بنسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو أننا قصرنا السنة على ما رفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقط لتركنا خيرا كثيرا .

٣ — من مخالفة الصواب أن ندع أقضية أبى بكر وعمر ، وأحكام على ، وما روى عن كبار الصحابة إذا لم تعارض نصا ، أو تخالف عملا مجمعا عليه

فى ترك هذه الأقضية تضييق ؛ فهى من السنة روحاً وإن لم يرد فيها نص صريح، ولربما قضى الصحابى بأمر فيه نص لم يرو ، أو نسيه .

ولا ريب فى معرفة أولئك القوم بالسنة، ووقوفهم على المرامى النبيلة ، فهم — بذلك — أحق بالأتباع ، وأولى بالأقتداء . فقد حدثت فى حياتهم حوادث لم تكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتوخوا فى مواجهتها روح الإسلام ، وما يدخل فى مضمون الأحكام النبوية .

وقد حفظوا — بذلك — الاسلام على أهله ، ومكنوا له فى الأرض وجلوا للمسلمين من المصالح مالا يحصى ، ودفعوا عنهم من الشر مالا يعد .

هذا مع الخاصية التى ليست لأحد سواهم ، وهو التلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمشاركة فى التمكين للأسلام فى الأرض .

٤ — (قصر السنة على الحديث) يضر ضررا مباشرا الفقه الاسلامى وهو العلم الذى نعتز به ، لأنه يساير حركة الحياة وتطور الناس ، ويواكب التطلعات المختلفة .

فنحن بذلك نوقف حركة الزمن ، ونجبره على أن يظل مدركا لفترة يسيرة ، وأن كانت خصبة ، مهدرين إمتداد محمد عليه الصلاة والسلام فى صالحى أصحابه ، وخصوبة العطاء الاسلامى فى خير العقول ، وأخلص القلوب

الحديث :

يحتل الحديث مكانة سامية فى السنة المحمدية ، وقد اهتم العلماء به قديما وحديثا ، ونحاول من جانبنا أن نقربه إلى طلابنا ليكونوا على بينة من تلك الجهود العلمية التى بذلت فى سبيل غرض كريم ، وللوقوف على منهج علمى

ينأى عن مواطن الزلل ما أمكن ، ويبتعد عن التسليم المطلق ؛ والإيمان الذى يشبه إيمان العوام .

والحديث لغة يطلق على كل جديد غير معهود ، فهو بذلك ضد القديم المألوف ، وفى ذلك تأثر بالدراسات الكلامية إذ يقصر (الحديث على) كلام النبي ، ويقصر القديم على كلام الله (القرآن) .

ولكن هذه الدلالة — فى نظرى — متأخرة عن إطلاق المصطلح ، فقد أطلق (الحديث) على ما نسب إلى محمد عليه الصلاة والسلام من أقوال قبل الخوض فى القديم والحديث .

* * * *

ويطلق الحديث — أيضا — على الخبر ، فكل ما ينطق به الإنسان فهو حديث ، فالحديث منه ما ينفع وما يلهى ويضر ؛ فى سورة لقمان .. «ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين» (١) . فهو على هذا يقترب من معنى اللغة .

وهناك دلالات خاصة ، تأتى فى مواضع معينة ، وتخرج باللفظ من دلالته المعتادة إلى ملحظ ذى أهمية .

ويبدو أن مصطلح الحديث كان يطلق على الكلام الخاص ، وليس كل كلام حديثاً ، فالكلام إذا اكتسب أهمية ، أو حظى بعناية ، أو أثار فهو حديث .

وعلى ذلك جاء قوله تعالى : «وأما بنعمة ربك فحدث» (٢) .. وقوله :

---

١ — آية رقم ٦ .
٢ — الضحى ١١

«وهل أتاك حديث موسى» (١) و. «هل أتاك حديث الغاشية»(٢).. «فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق»(٣). فأمر موسى جد خطير، وقصة لاتزال تروى فهى لذلك حديث، وكذلك أهوال يوم القيامة وبعض مواقف لأمم سابقة. هذه أمور لاتزال أذن الدهر تسمع روايتها ويتحدث بها الناس — فهى أمور مشهورة، سائرة، ذات وقع وأثر. ومن هنا عبر عنها القرآن «بحديث»، وأحاديث.

فالحديث يختلف عن مطلق الكلام، وينبو عن سائر القول، ومن هنا نعت القرآن بأنه حديث، وحتى لا يشترك مع غيره وصف بأنه أحسن الحديث «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله».

فاستعار المسلمون هذه المنزلة الرفيعة للحديث، وأطلقوها على ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأن ما سواه من كلام البشر لا يعدو القول

وهناك مصطلحات أخرى تطلق وتتداول بين العلماء فى هذا المقام منها الأثر والخبر، فما دلالة هذه المصطلحات ؟...

الحديث :

ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول، وقد اهتم به العلماء فأصبح له علمان :

---

١ — طه ٩
٢ — الغاشية ١
٣ — سبأ ١٩.
٤ — الزمر ٣٩

علم رواية الحديث « ما يعرف به أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله وتحرير ألفاظها » .

فهو العلم الذى يهتم بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمعه ، ويتتبعه ، ويتقصى مظانه ؛ ولا يترك أحدا يظن عنده شىء منه إلا تبعه وأخذه عنه ، .. ويغلب على هذا الفن الجمع والنقل .. وما يؤسف له — أن أغلب المحدثين نقله ، وهذا الإهتمام أوقعهم فى مشاكل وأطلق ألسنة الناس فيهم ، فكانوا يشبهونهم بحاطب ليل ، والرجل منهم لا يعلم ما يروى .. ويعتذر بأنه زاملة . أى حامل للخبر ، ولا يدرى فقهه . وتوجيهه ، وأكثر مثالب أصحاب الحديث من إغراقهم فى الجمع ، وكلفهم بكل ما نسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وحين أدرك العلماء مدى ما وصل إليه النقلة ، نشأ إستدراكا على العلم الأول علم ثان وهو علم الدراية .

وهو ما يعرف منه حقيقة الرواية ، وشروطها وأنواعها ، وحال الرواة ، وأصناف المرويات . فلا يكتفى فيه بالجمع ، وإنما لابد من التحرى ، والمراجعة والنقد التطبيقى والإلمام بالظروف العامة ، ومعرفة الملابسات التى قيل فيها الحديث ، أو حدثت عندها الواقعة . فهذا علم نقدى ، يدع ظاهر الأمر ، ويتوخى باطنه ، ولا يسلم حتى يتحقق .

وهذا العلم نفى عن المحدثين كثيرا من السلبيات ، وأزال عنهم بعض ما لحق بهم من تهم . وهو بمقياس آخر يعد ثورة نقدية ، إذ أباح العلماء لأنفسهم أن ينتقدوا ما ورد ، وألا يسلموا تسليما خالصا ، فوضعوا الأصول والقواعد وتحكموا فى الأحاديث بمقاييس موضوعية .

وفى هذا ما يشرف المسلمين ، ويرفع من قدر العلماء ، وما يوقفنا على أن ديننا لا يضيق ذرعاً بأمر مادام يبتغى من ورائه النفع ، ولا خوف من التعمق فى معرفة العلل ، والوقوف على الأسباب فذلك مدعاة الإيمان الحق ومدخل أصيل من مداخل الحضارة .

وهو ما يعرف منه حقيقة الرواية ، وشروطها وأنواعها ، وحال الرواة ، وأصناف المرويات .

وأما موضوع الحديث فهو السند والمتن .

فالحديث تنقله رواة ، راو عن راو حتى يصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأنتقال يكون من الأقرب زمنا فصاعدا حتى يصل إلى المصدر الأول .. أى أن الرواية تبدأ من الحاضر وتنتهى بالماضى . فأسماء الرواة الذين ينقلون الحديث يطلق عليهم السند ، وعلماء الستة إهتموا بالسند اهتماما كبيرا .

أما المتن : فهو الحديث ذاته .

فمثلا إذا قلنا «عن الشعبى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (١) فالمتن هو نص الحديث . والسند هو الشعبى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، مثلا ...

ومن المؤسف أن سلفنا من العلماء على كثرة ما بذلوا حول السند لم يجشموا أنفسهم عناء بحث المتن إلا قليلا . فالمتن لا يدخل عند العلماء فى باب الحديث إلا نادرا . وإنما توفر الجهد حول السند ، وأحوال الرواة ، من العدالة والضبط والحفظ واللقـــاء .

١ ـ أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان جـ ١ ص ٩ .

وجل التقسيمات التى نراها فى علم الحديث يدور معظمها حول السند ، وربما كان السبب فى ذلك أن العلماء أرادوا أن يضبطوا الرواية بعد أن تفشت فى أوساط مختلفة من الناس ، وراجت على ألسنة متباينة المذاهب والمشارب ، مختلفة فى العقائد والمآرب ، فلجأ العلماء إلى هذه الوسائل ليحدوا من تدفق الرواية ، وليضعوا المعايير الفنية التى ترشد إلى ما يمكن أن يطمئن المرء إلى صحته من الأحاديث . وتكشف كل راو ، وتعرف الناس به ، وهذا يقتضى معرفة كبيرة بتاريخ الرجال ، وسيرهم ، والوقوف على أحوالهم ومعايشهم وفى هذا جهد مشكور وعمل مأجور .

ولكنا نلاحظ أن النقاد يهتمون فى نقدهم بالرواية . فمن رجال السند من روى عنه ، ففيه ما يقال . فتجد هذا القول مرددا بين النقاد والعلماء . وفى رجال السند من هو مستور الحال لم يرد عنه ما يؤخذ عليه ، فيجوز عند العلماء .

وقد فطن الوضاع إلى هذا فاختاروا طائفة من الناس لا تعتريهم الشبه ، ولا يغض من عدالتهم شىء ، ورووا على ألسنتهم ، ومن هنا وجدنا أحاديث حسنة الإسناد ، جيدة السلسلة لا يجرح واحد منهم ، ولكن حديثهم ضعيف .

وهذا أمر يحتاج إلى تضافر العلماء فى كل زمان ومكان لمراجعة الأحاديث مراجعة موضوعية ، وقراءتها قراءة متأنية ببصيرة ونفاذ رؤية . حتى يمكن أن يخلصوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من زبد الرواة ، وينقوا الحديث الشريف مما اعتراه ، وإذا كان سلفنا من العلماء قد بذل فى ذلك جهدا مشكورا ومأجورا فقد بقيت أمور فى حاجة ماسة إلى تمحيص ، وقد نتج عما سلف أمران .

أولهما :

إهتم الوضاع بالسند حتى غدا مقبولا لدى علماء الحديث ، فأقبلوا على

أخذه ، وخدعوا فيه وبذلك يتحملون هم رواية المكذوب ، فللوضاع طرق خفية فى السند ، وقصاراهم أن ينأوا عن المآخذ التى وضعها العلماء فى الرجال ولا ريب فى أن الوضاع يتميز بذكاء حاد ، وقدرة على التمويه والتخفى .

ومن هنا وجدنا أحاديث كثيرة صحيحة السند ولكنها ضعيفة المتن لمعارضتها أحاديث أخرى ، أو نصا قرآنيا ، أو المبالغة فى تعظيم أمر يخرج به عن سواء السبيل .

ثانيهما :

الإهتمام بالسند أيضا ربما صرف العلماء عن أحاديث صحيحة لوجود غير ثقة ، وهذا نوع من إفساد الشريعة فى نظرى ، فقد يلجأ من فى قلبه مرض إلى تنفير الناس من الحديث ، فيروى الحديث الصحيح عن سلسلة فيها مالا يؤتمن فيصدف عنه العلماء . وهذا أمر وارد ، لأن الغرض هو النيل من الشريعة الاسلامية ، وهذا الأمر له عدة مداخل منها رواية الكذب ، لترويج مايحبون إشاعته بين المسلمين ، وكذلك تنفير المسلمين من إيجابيات فى سننهم إذا جاءت بروايتها على ألسنة الكذبة . والإنسان عادة إذا رضى قبل ، وإذا سخط رفض

ومن هنا فلا نعدم أن نجد فى الأحاديث الضعيفة صحيحا ، وهذا ما جعل العلماء يبحثون عن طرق أخرى فلربما يكون الحديث قد روى بسند آخر .

أقسام الحديث :

ينقسم الحديث إلى أقسام متعددة أشهرها :

من حيث السند .

١ — المتواتر :

وهو الحديث المروى عن عدد كبير من الصحابة ، لا يمكن أن يجتمعوا

على كذب ، ثم ينقله عنهم جمع أحالت العادة تواطأهم على الكذب .

وبذلك فالحديث المتواتر عدة طرق ، ولم ينفرد به راو واحد فى كل مراحله ، ويترتب على هذا أن الحديث المتواتر أعلى مراتب الحديث .. وهو بذلك — يقتضى إفادة العلم الضرورى «ومن شأنه أن لا يشترط عدالة رجال بخلاف غيره» . (١)

والمتواتر على هذا قد توفر له الحد الأعلى من الأمانة ، وحاز على أقصى ما يتخيله الأنسان من حق ، ولا سيما فى أمور لا سبيل لها غير الرواية، ولا عمدة لها غير النقل ، والعلماء بذلك قد بلغوا الجهد فى التنظير والتقسيم .

ولا يكاد يوجد حديث متواتر من حيث اللفظ ، ومن أمثلته «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . قال ابن الصلاح رواه إثنان وستون من الصحابة ؛ وفى شرح مسلم للنووى نحو مائتين ، وقد جمع السيوطى طرق المتواتر وكسر كتابا عليه سماه (الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة .. (٢) وقد ذكر فيه أن رواة حديث الحوض نيف وخمسون صحابيا ، ورواة المسح على الخفين سبعون صحابيا إلى غير ذلك من الأحاديث . (٣) .

وهناك مسألة ترتيب على الحديث المتواتر يمكن أن يعبر عنها بهذا السؤال ما حدود التواتر ؟ . أو بمعنى آخر ما عدد الجمع الذى يستحيل تواطؤهم على الكذب ؟ فمن العلماء من يرى أنه يكفى أربعة ويستأنس بقوله تعالى : «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء» . (٤) ومنهم من يزيد العدد إلى خمسة ، أو عشرة ،

---

١ — قفو الأثر لأبن الحنبلى الحنفى ص ٥ .
٢ — تدريب الراوى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠!
٣ — المرجع السابق
٤ — سورة النور آية رقم ١٣ .

وإثنى عشر ، وعشرين ، ومائة . وفى رأينا أن هذه الأعداد ليست بذات أثر فى حد ذاتها ، وإنما العبرة فى الثقة فى الرواة .

وقد استنبط من هذا أن المتواتر «يفيد العلم اليقينى بصحته» . (١) ،وليس من اللازم أن تكون دلالة المتواتر يقيينية فقد يستفيض شيء وهو مخالف للحقيقة ويتواتر أمر وهو كذب بأن يتفق جماعة على أمر ما . فتشيع عنهم الرواية .. ولذلك فلسنا نرى رأى محمد أبوريه حين يقول.«وهو مفيد للعلم بنفسه لأنه صحيح قطعا ، ويجب الأخذ به من غير توقف فى العقائد وهو دليلها (٢) .

وفى ظنى أن شرط التواتر فى جميع أحوال الحديث شرط نظرى،ومن الصعب بمكان أن يتحقق ، إذ يتطلب أمورا قد لا تتوفر فى كل وقت . ومن هنا ندر أن يوجد حديث متواتر ، والعمل قائم على المشهور والآحاد ..

٢ — المشهـــور :

الحديث المشهور هوالمستفيض الشائع بين الرواة ، ولكنه لم يبلغ درجة المتواتر ، فطرق روايته محصورة بأكثر من إثنين ، ولا تصل حد المتواتر .

ومعنى هذا أن الحديث المشهور مايرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم صحابيان أو أكثر ، ثم يأخذه عن الصحابيين رواة محدود عددهم ، فالمشهور أدنى من المتواتر فى عدد الرواة ، وأكثر من غيره .

٣ — الغـــريب :

ما ينفرد بروايته شخص واحد ، ولكن العلماء فرقوا بين الإنفراد فى

---

١ — تدريب الراوى جـ ٢ ص ١٧٩ .

٢ - أضواء على السنة المحمدية ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ —الطبعة الثالثة — دار المعارف .

التابعى الذى يروى عن الصحابى ، أو الإنفراد فى أثناء السند (وهو الإنفراد النسبى) ، ولذا فقد يطلق العلماء المفرد على انفراد التابعى (الفرد المطلق) ، والغريب على (الفرد النسبى) .

وإذا نظرنا إلى ما يطلق عليه الحديث الغريب ، ألفينا مصدر الغرابة كثيرا ما تكون فى الإسناد ، وقليلا ما تكون فى المتن .

ويمكن تقسيم الأمر إلى ما يلى :

١ — حديث غريب من حيث الإسناد لا المتن :

وهو الذى علم متنه ولكن الراوى واحد ، ومن هنا نجد بعض العلماء يقول كالترمذى عن حديث ما غريب من هذا الوجه ؟

٢ — حديث غريب الإسناد والمتن :

وهو مالا يعرف إلا عن طريق راو واحد عن صحابى واحد ، وهذا هو الأصل فى الباب وعليه تنطبق التسمية .

٣ — غريب المتن لا الإسناد :

قد ينفرد صحابى واحد برواية الحديث ، وينفرد تابعى بروايته عن الصحابى ثم يرويه عن الفرد جماعة كثيرة ، فهو بذلك يصير غريبا مشهورا ، غريب باعتبار البداية ، ومشهور إذا لاحظنا ما صار إليه .

ولعل أشهر مثال على الحديث الغريب المشهور قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ..

رواه البخارى فى صدر صحيحه ثم فى أماكن متفرقة ، ورواه مسلم فى كتاب الأمارة .

وليس لهذا الحديث من طريق يصح غير ما تفرد به يحي بن سعيد الأنصارى عن محمد بن ابراهيم التيمى ، عن علقمة بن أبى وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهذا الحديث انفرد بروايته عمر ، وانفرد به عن عمر وعلقمة ، وانفرد به عن علقمة محمد التيمى وإنفرد به عن التيمى يحى بن سعيد ، ثم رواه عن ابن سعيد هذا رواة عدة اختلف فيهم ما بين مكثر ومقـــل .

وبذلك يصبح هذا الحديث نموذجا للغريب فى أوله المشهور فى آخره كما قال الإمام النووى فى شرحه للبخارى «فهو حديث مشهور بالنسبة إلى آخره ، غريب بالنسبة إلى أوله وليس متواترا لفقد شرط التواتر فى أوله» . (١)

وهنا يعن لنا سؤال :

هل الحديث الغريب غير صحيح ؟

لا نستطيع أن نجزم بعدم صحة الحديث الغريب أو الحديث المفرد ، ففى الكتب الصحيحة أحاديث كثيرة تفرد بها رواة ، ولم تصل إلى درجة المتواتر أو المشهور ، وفى إهمالها عنت كبير .

ولذلك فالغريب إذا كان المنفرد به ثقة غدا الحديث صحيحا ، وإذا لم يكن الراوى ثقة شككنا فيه ، فحديث إنما الأعمال بالنيات مثلا يقول عنه الإمام الشافعى فى روايته عنه .. «هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل فى سبعين بابا من الفقه» (٢) .

وعلى هذا فالغريب ماليس مشهورا . أو هو بمعنى آخر ما يروى عن

---

١ — صحيح البخارى بشرح النووى ١ ص ٢٧ .

٢ — جامع العلوم والحكم ص ١٢ لأبن رجب الحنبلى تحقيق — محمد الأحمدى أبو النور .

واجد خبر الآحاد ، وليس يقدح فى صحته قلة رواته ، إذ أغلب الأحاديث التى عليها العمل ، من أحاديث الآحاد . ولابن حزم هنا رأى وجيه يحمل بنا نقله قال فى كتابه القيم «الأحكام فى أصول الأحكام» . (فإذا روى العدل عن مثله كذلك خبرا حتى يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم فقد وجب الأخذ به ، ولزمت طاعته والقطع به ، ... وإن العجب ليكثر من قوم من المدعين أنهم قائلون بخبر الواحد ، ثم يعللون ما خالف مذهبهم من الأحاديث الصحاح بأن يقولوا هذا مالم يروه إلا فلان . ولم يعرف له مخرج من غير هذا الطريق ..

وهذا جهل شديد وسقوط مفرط . لأنهم قد أتفقوا معنا على وجوب قبول خبر الواحد والأخذ به ، ثم هم وأبا يتعللون فى ترك السنة بأنه خبر واحد والعجب أنهم يأخذون بذلك إذا إشتهوا . فهذا محمد بن مسلم الزهرى له نحو تسعين حديثا إنفرد بها عن النبى صلى الله عليه وسلم لم يروها أحد من الناس سواه . وليس أحد من الأئمة إلا وله أخبار إنفرد بها ، فليت شعرى ما الفرق الفرق بين من قبلوا خبره ولم يروه أحد معه ،؟ وبين من ردوا خبره لأنه لم يروه أحد معه .؟ وهل فى الأستخفاف بالسنن أكثر من هذا(؟! (١) .

وليس غريب الحديث هذا هو ما عرف لدى العلماء بالغريب فى اللغة والتى كثر فيه تأليف العلماء من أمثال أبى عبيدة معمر بن المثنى وأبى عبيد القاسم بن سلام وأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة وأبى سليمان الخطابى وجار الله الزمخشرى ، والهروى وغيرهم . فهذه الكتب فى غريب الحديث أى تقريب مدلول بعض الألفاظ الغريبة على القارئ أو شرحها . أما الحديث الغريب فهو بمعنى الحديث غير المشهور ، وهو ركن من أركان السنة ومصدر هام من مصادرها .

---

(١) الأحكام جـ ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

ولذا فلا نستطيع أن نهمل الحديث الغريب على الأطلاق ، أو نغمض من قيمته ، فقد ترتفع قيمة الغريب فوق كثير من المتواتر .

فإذا أضفنا إلى ذلك أننا لو تخلصنا من تفريع العلماء لأمكننا أن نقول من غير أن نجانف الحق أن الحديث —على التحقيق— ينقسم إلى متواتر وغير متواتر ، فإن الراويين لا يخرجان الحديث من درجة إلى درجة ، فلو كان معلوما ذائعا لرواه جمع غفير ، وتعلق به حشد كثير ، فأما أن يرويه ثلاثة أو أربعة فهم أقرب إلى التفرد منهم إلى الجمع والتواتر .

وربما يخالفنا بعض العلماء ، فلهم رأيهم المقرر ، ومنهجهم الصواب ، ونحن مع حديث الآحاد نجد العلماء إذا أحسنت الظن ووثقت بالراوى قبلت حديثه ، وإذا ترجع كذب الراوى رد الحديث ، وإذا لم يتبين حال الرواة توقف فيه العلماء بين القبول والرفض .

وقد قلنا أن هذه المعايير ليست مانعة من التداخل ، ولا سيا إذا بنيت على الثقة والإطمئنان إلى الحال ، فقد يطمئن الشيعى إلى أحد التابعين ويوثقه ، بينما يقف فيه غير الشيعى ، ولذا فهذه الضوابط ليست يقينية ، ولكنها أكمل ما يمكن أن يتوصل إليه الباحث فى مثل تلك الظروف التى واكبت الرواية ، وصاحبت النقل والإحتجاج .

وترتب على عناية العلماء بدراسة السند والإهتمام به تقسيم آخر للحديث مثـــل :

١ — الحديث الصحيح :

ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة (١) فإذا روى

---

١ — تدريب الراوى فى شرح تقريب النووى ص ٦٣ للسيوطى . تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — دار الفكر ١٩٦٦ م .

الحديث رواة سلموا من الشذوذ والعلة ، وامتازوا بالضبط والحفظ فهو حديث صحيح ، وهنا لابد من التنبيه إلى أن الصحة هنا هى صحة السند ، وليست بالضرورة صحة المتن ، ومصطلح (صحيح) لا يقتضى بالضرورة قيمة دينية ، بأن يعتقد الأنسان بأن هذا القول هو الصواب الحق عن رسول الله وهنا يجمل بنا أن ننقل رأيا للأمام المحدث أبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح إذ يقول فى مقدمته الشهيرة . (ومتى قالوا هذا حديث صحيح فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة . وليس من شرطه أن يكون مقطوعا به» . (١) . ونحن ننبه إلى ذلك حتى لا يخدع من لم يقف على دلالة الأصطلاح فيضيفه إلى المعنى ، أو يعتقد غير ما يجوز ، ويمكن أن تلاحظ فى هذا المقام أمورا منها :

أ — الصحة ليست درجة واحدة فهناك صحيح وأصح ، لا يجب الصحيح والصحيح لا ينفى غيره .

ب — لا يلزم من الحديث الصحيح العمل به ، فقد يوجد الحديث الصحيح ويروى ويكون العمل على غيره .

فهناك الأحاديث الصحيحة المنسوخة ، ويقول السيوطى «ليس كل صحيح يعمل به» (٢) .

ج — وجدت بعض الأحاديث التى لا تصل إلى مرتبة الصحيح من حيث السند ، ولكن العمل عليها من حيث المتن ، مثل قول رسول الله عن البحر : «هو الطهور ماؤه الا لحل ميتته» .

فقد تكلم بعض العلماء فى رجاله ، وليس إسناد هذا الحديث مما تقوم به

---

١ — مقدمة ابن الصلاح ص ٨ — منشورات دار الحكمة — دمشق .

٢ — تدريب الراوى ص ٦٦ .

حجة عند أهل العلم بالنقل لأن فيه رجلين غير معروفين (١) ومع هذا القول من علماء الحديث فالعمل قائم به والإفتاء عليه .

ويقول ابن عبد البر عن هذا الحديث : «وهو إسناد (إسناد الحديث السابق) وإن لم يخرجه أصحاب الصحاح ، فإن فقهاء الأمصار وجماعة من أهل العلم متفقون على أن ماء البحر طهور ، بل هو أصل عندهم فى طهارة المياه الغالبة على النجاسات المستهلكة لها ، وهذا يدل على أنه حديث صحيح المعنى ، يتلقى بالقبول والعمل الذى هو أقوى من الإسناد المنفرد» (٢) .

ومن هنا فقد نفر من شرط الصحيح ، وترتيبه على السند بعض العلماء واعتبروا إجماع العلماء على معنى يغنى عن الإسناد فيه .

ولذا فمن الممكن أن يكون الحديث صحيحا وهو آحاد أو غريب كما قلنا سابقا ويمكن الاستشهاد على ذلك بابن العربى الفقيه المالكى حيث يقول منتقدا مذهب الشيخين البخارى ومسلم وهو غير مصيب فى نقدهما وإن أصاب فى رواية الواحد ، «كان مذهب الشيخين أن الحديث لا يثبت حتى يرويه اثنان، وهو مذهب باطل ، بل رواية الواحد صحيحة إلى النبى صلى الله عليه وسلم».

د ـ عدم الربط بين الصحة والقطع بوروده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه فإذا حكم على حديث بأنه غير صحيح فليس من اللازم أنه غير

---

١ ـ الأستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار ص ٢٠١ لأبن عبد البر ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة .

٢ ـ المرجع السابق . ص ٢٠١ .

حديث لأن مدار هذه الألفاظ على السند ، (وقد قال ابن الصلاح في مقدمته لعلوم الحديث . «إذا قالوا فى حديث إنه غير صحيح ، فليس ذلك قطعا بأنه كذب فى نفس الأمر ، وإنما المراد أنه لم يصح إسناده((١) ثم لأن غايةالأمر ما يغلب عليه الترجيح أو الظن ، لا اليقين ، وما أقوله مؤيد من الناحيةالنظرية والتطبيقية ، فقبول الحديث لا يعتمد كل الإعتماد على سنده ، بل قد يكون القبول تارة بكلام العلماء فى المتن ، وإن كان فى سنده ما يقال ، وربما كان القبول بالعمل عليه .

ولذلك قال صاحب فتح القدير «قول الترمذى العمل عليه عند أهل العلم يقتضى قوة أصله» .

وجاء من بعد الشيخين بأحاديث كثيرة صحت لديهم ، وإستدركوا عليهما مثل الدارقطنى ، والبيهقى ، والحاكم ، وابن ماجة ، والبزار ، والطبرانى ، وأبى يعلى وغير هؤلاء من العلماء الذين تتبعوا الأحاديث ؛ ووهبوا حياتهم للبحث عنها وتقصيها .

وقد اعلى الإمام مالك من شأن عمل اهل المدينة ، فهى حجة عنده ، وشهرة الحديث بها تغنى عن صحة سنده .

والذى يقرأ كتب الأحكام والأصول يقع كثيرا على أقوال تتضمن نقدا للتعويل على السند ، ومن امثلة ذلك قول الجصاص فى أحكام القرآن معربا عن علة الأخذ فى معنى المتواتر» (٢) .

هـ — لم يستوعب البخارى ومسلم كل الأحاديث الصحيحة ، فهناك

---

١ — ص ٨ .

٢ — أحكام القرآن جـ ١ ص ٣٨٦ .

كتب صحيحة اخرى كسنن ابى داوود والترمذى والنسائى ، ويسند الإمام أحمـــد

وليس هذا افتراء عليهما فالبخارى يقول : «ما أدخلت فى كتابى الجامع إلا ما صح وتركت من الصحاح مخافة الطول» (١) .

وقال مسلم فى (كتاب الصلاة) آخر باب التشهد : «ليس كل شىء عندى صحيح وضعته هاهنا ، وهذا أمر مقرز لدى العلماء ، وإنما نبهت إلى هذا لما سمعت من احتجاج بعض الناس بما فى البخارى ومسلم فقط .

وإيمان العلماء بعدم شمول البخارى ومسلم لكل صحيح دفعهم إلى تتبعهما وذكر ما تركاه وفاتهما ، ومن هنا الفت المستدركات .

و — للصحيح أقسام داخلية ، فأعلى مرتبة ما اتفق عليه البخارى ومسلم وهذا ما جعل المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى يؤلف كتابه (المرجان فيما اتفق عليه الشيخان) فالحديث الموجود فى البخارى ومسلم ملزم ، وهو اصح الصحيح وهذا معنى مصطلح (متفق عليه(ويليه ما إنفرد به البخارى ، ثم ما إنفرد به مسلم ثم ما جاء على الشروط التى وضعها البخارى ، ثم مسلم وما صح عند غيرهما وهذا القول محمول على الثقة بالإمامين الجليلين البخارى ومسلم على التعميم ، وإلا فقد رفض بعض العلماء رواة البخارى ، ونبهوا على الضعيف عند مسلم «وقد عيب على مسلم روايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء ، والمتوسطين الذين ليسوا من شرط الصحيح» (٢) . وقد رفض الكمال بن الهمام الحنفى فى فتح القدير هذه التقسيمات ، ونبه ابن الحنبلى فى (قفو الأثر) إلى هذا ، ورد قوة الحديث إلى طبيعة الرواة وليس إلى كونه فى كتاب كذا ... (٣) .

١ — تدريب الراوى ج ١ ص ٩٨

٢ — المرجع السابق ص ٩٧ .

٣ — قفو الأثر ص ١٠ .

وقال الإمام المجتهد ابن الصلاح فى شرح مسلم «من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم عنه فى صحيحه بأنه من شرط الصحيح فقد غفل وأخطأ ، بل ذلك متوقف على النظر فى كيفية رواية مسلم عنه وعلى وجه إعتمد عليه» (١) .

ز – من الممكن أن يصل الحديث الأدنى مرتبة من الصحيح ، إليه ، ويأخذ حكمه ، فالأسانيد تتقوى فيما بينها .. فمثلا :

١ – الصحيح لذاته : خبر الواحد المتصل السند بنقل عدل تام الضبط غير معلل ولا شاذ فهو على تعريفهم الأول غير صحيح ، ولكنه من حيث القوة والدلالة لا يقل شيئا عنه ، ولذا وجدوا له هذا المخرج .

٢ – الصحيح لغيره :

وهو الحديث الحسن لذاته الذى تعددت طرق روايته ، سواء أكانت هذه الطرق أقوى أو مساوية لطريقة ، بل انهم أطلقوا الصحيح لغيره على ما جاء عن طرق شتى ولو أقل من طريقه .

وعلى هذا فلو تعددت طرق الضعيف إنتقل من هذه المرتبة إلى مرتبة الحسن لغيره ، وقد يصل فى النهاية إلى درجة الصحيح لغيره .

٢ – الحسن :

الحديث الحسن هو الذى عرفت رجاله وليس بينهم كذاب ، ولا متهم وقد يكون فى سنده مستور الحال لم يتبين أمره .

فالحسن على هذا يختلف عن الصحيح بدرجة رجاله ، وحال سنده، فهو وسط بين الصحيح والضعيف ، فمن تساهل ويسر عده من الصحيح ، ومن شدد اعتبر من الضعيف.

١ – تدريب الراوى ص ١٢٩ ج ١ .

وأكثر الأحاديث الواردة يمكن إدراجها فى مرتبة الحسن ، وهو كالصحيح فى الإحتجاج به ، والعمل عليه .

وهذا يحتاج فوق ما قدمنا — إلى نظرة نقدية ، ورؤية شاملة وكما قال الجاحظ «قد يكون الأمران حسنين ، وأحدهما أحسن ، وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح» . (١)

وللعلماء أحكام معلومة فى كتب الحديث ، فأحيانا يقولون : حديث حسن وحسن الإسناد ، أو صحيح الإسناد ، وحسن صحيح ..

فأما حديث حسن صحيح فمعناه أن له إسنادين أحدهما يصل إلى مرتبة الحسن والآخر يصل إلى مرتبة الصحيح ، وهذا من أقوى الأحكام فى الحسن وأما صحيح الإسناد أو حسن الإسناد ، فهو أدنى الدرجات ، فهو يدل على أن الحديث حسن إسناده فقط ، وأما متنه فربما كان فيه شذوذ أو علة ، أو لوحظ عليه شىء من العلماء ، فإذا قالوا حديث فهم يعنون المعنى الذى قدمنا فى بداية هذه الفقرة .

٣ — الضعيف :

مالم يجمع صفة الحسن فإذا قصر عن الحسن كان عن الصحيح أظهر تقصيرا . وفيه أقسام كثيرة ، وهو يتفاوت فى نسبة الضعف ، تبعا لشدة ضعف روايته ، ومعرفة حالهم .

ونذكر هنا بعض أقسام الضعيف جلبا للفائدة :

١ — الموضوع :

وهو المختلق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كذب محض ، وهو

١ — رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٣٣١ (حجج النبوة). تحقيق عبد السلام هارون ط أ ١٩٧٩. مطبعة الخانجى — القاهرة .

أسوأ أنواع الضعيف ، ويمكن معرفة ذلك عن طريق إقرار الواضع ، أوبقرينة تؤخذ من حال الراوى كأتباعه لبدعة أو نحلة ، أو ركاكة لفظه ، أو ضعف معناه ، أو مخالفته لنص قطعي الورود كالقرآن ، أو المتواتر ، أو صريح العقل

ب — الشاذ :

ما روى عن ثقة ولكنه مخالف لمن هو أرجح منه .

جـ — المدلس :

ما خفى عيب إسناده ، ودق حتى لا يكاد يعرف ، وذلك بأن يروى (الراوى) عن شيخ لقيه وعاصره (وهذا أهم شرط للبخارى) ولكنه يروى حديثا لم يسمعه منه بطريقة توحى بسماعه ولا تشكك فيه .

وهذا تدليس الإسناد ، وهناك تدليس للشيوخ بأن يعرف الراوى أن الناس تنأى عن شيخه فيغير كتايته أو لقبه حتى لا تنصرف الناس عن روايته.

د — المتروك :

ما كان راويه متهما بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتوقف فى قبول حديثه ، ويترك قوله .

٤ — المسند :

الحديث المتصل بين راويه ومن أسند إليه حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو المعلوم سنده من حيث الإتصال من متن أوله إلى منتهاه ، وإتصال الإسناد فيه أن يكون كل واحد من راويه سمعه من الذى فوقه حتى ينتهى ذلك إلى آخره ، وإن لم يبين فيه السماع ، بل إقتصر على العنعنة (١) .

١ — الكناية فى علم الرواية ص ٢١ للخطيب البغدادى — المكتبة — بيروت .

٥ — المرفوع :

ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو تقريرا (١) .

وعرفه الخطيب البغدادى بأنه (ما أخبر فيه الصحابى عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم أو فعله((٢) .

٦ — الموقوف :

وهو الذى وقف إسناده عند الصحابى ، ولم يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، سواء أكان قولا أو فعلا ، ومنه ما رواه الصحابى عن نفسه قائلا كنا نفعل كذا ولم يضفه إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٧ — المتصل :

ما اتصل سنده من النوعين السابقين المرفوع والموقوف ، فإذا لم يصل السند إلى الصحابى ووقف عند التابعى فهو مقطوع .

ومادمنا وصلنا إلى هذا الحد فمن اللازم أن نبين دلالة الخبر ، فقد يطلق الخبر على الحديث ، ففى كتب السلف (وفى الخبر) أو (جاء فى الخبر) والمراد الحديث . وعلى هذا فالخبر مرادف للحديث لدى من يقول هذا .

وعند التحرى وجد أن الخبر أحيانا يتسع مدلوله فيشمل المرفوع ، والموقوف والمقطوع ، ولذا فرق العلماء المحققون بين الخبر والحديث ، إذ قصروا الحديث على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما جاء عن غيره .

ومن هنا يمكن القول بأن كل حديث خبر ، وليس كل خبر حديثا ، فبينهما عموم وخصوص مطلق .

---

١ — تدريب الراوى ص ١٨٣ .

٢ — الكناية ص ٢١ .

ومن المصطلحات الشائعة أيضا (الأثر) . والأثر ما بقى من الشيء أيا كان ومنه آثار المنازل والديار ، وعليه جاء قوله تعالى فى سورة الأحقاف (إيتونى من كتاب من قبل هذا ، أو إثارة من علم إن كنتم صادقين((١) .

والأثر ما يبقى من الحديث ، فما تحفظ من الكلام فهو أثر ومنة «إن هذا إلا سحر يؤثر» (٢) .

والأثر فى إصطلاح المحدثين ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن صحابى أو تابعى فيشمل المرفوع والمقطوع والموقوف وعليه جمهور المحدثين من السلف والخلف ، وهو المختار كما ذكر النووى (٣) وعليه كتاب الإستذكار لابن عبد البر .

ولكن التراث العلمى الذى خلفه لنا السابقون لا ينبيء عن هذا كله ، فنجد اضطرابا فى إطلاق المصطلح .

فأحيانا يطلق الأثر ويراد به المرفوع فقط ، وجاء على هذه الوتيرة كتاب الإمام الطحاوى وهو من مجتهدى المذهب الحنفى (شرح معانى الأثار) قصره على الأحاديث المرفوعة .

وللأمام الطبرى كذلك كتاب (تهذيب الآثار) أكتفى فيه بتبيات المرفوع ولم يتعرض للموقوف إلا لماما .

ومن المصطلحات الشائعة (الأدعية المأثورة) وهى الأدعية التى تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١ — آية رقم ٤

٢ — المدثر آية ٢٤ .

٣ — شرح صحيح مسلم جـ ١ ص ٦٣ .

وهناك قوم من العلماء يقصرون الأثر على الموقوف والمقطوع . فالمصطلح له دلالة خاصة عندهم ، ومن هذا النحو ما فعله أحد أبناء الحنفية الأعلام ، محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه (الآثار) فقد أداره حول الموقوف .

ويمكن حمل ما جاء فى جل كتب الإمام الغزالى على هذا ، وفى إحياء علوم الدين وغيره نماذج للأثر حين يراد به الموقوف أو المقطوع .

ومن هنا — أيضا — هو جم الغزالى ، وأنكر عليه رجال الحديث صنيعه

والحق أن لدينا فى الدراسات القديمة عامة ولعا بالتشقيق والتخريج ، وضيقا بالإلتزام والمنهج ، فقد فشا لدى القدماء عدم الضبط فى استخدام المصطلحات ، والنفور من الأتفاق على حد أدنى من المسميات . فلكل شيخ — تقريبا — مصطلحه ، وهذا — بدوره — يؤدى إلى الخلط ، ويوقع القارىء فى لبس شديد ... وليس الأمر قاصرا فى ذلك على مصطلح الحديث ، ولكن الظاهرة العامة فتجد ذلك فى مصطلحات البلاغة والشعر ، وعلم الكلام ، والأصول . إلى غير ذلك .

وإذا كنا ننشد تقدما فى المعرفة فلابد — بداية — من ضبط المصطلحات وأن نحد من الكلف فى استخدام العبارات ، وأن نحدد دلالة المصطلح . ففى ذلك حدة المراء ، وتضييق من شقة الخلاف .

الوضع فى الحديث :

من الصعب أن يحدد المرء بدء الوضع ، فذلك أمر عسير تحديده زمنيا ومكانيا ، وإذا صعب التحديد فلا يعسر تلمس الشواهد التى تشى بما يمكن أن ندعى أنه بداية الوضع .

لقد آثار كثير من الباحثين إلى تنزيه الصحابة عن هذا الصنيع ، فالدكتور

المرحوم مصطفى السباعى يذكر موقف أبى سعيد الخدرى من مروان والى المدينة حين أنكر عليه تقديم الخطبة على صلاة العيد ، وموقف ابن عمر من الحجاج ومخالفة على لعمر فى رجم المرأة الحامل ، ومخالفة المرأة له فى المهر .

ذكر هذه الأمثلة ليستنبط منها حكما مطلقا قاطعا نخالفه فيه إذ يقول : «وهى (هذه الأخبار) تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الصحابة كانوا من الجرأة فى الحق ، والتفانى فى الدفاع عما يعتقدون أنه حق ، ومن تغلبهم الحق على كل صديق وصاحب وقريب ، بحيث يستحيل عليهم أن يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم إتباعا لهوى أو رغبة فى دنيا» (١) .

وهذا المعنى نراه عند الأستاذ الفاضل محمد عجاج الخطيب فهو يقول : «والصحابة أسمى بكثير من أن يخوضوا فى الكذب والوضع» (٢) . ولا يكتفى بذلك بل يوسع من إطلاق الحكم فيقول : «وكما نفينا عن الصحابة إنغماسهم فى الوضع ننفى عن كبار التابعين وعلمائهم ذلك أيضا» (٣) .

وقد جرح الصحابة بعض الباحثين ، ورفضت الشيعة أحاديث كبار الصحابة ، واتهمتهم بالكذب والنفاق ، وسار على سبيلهم لفيف من العلماء منهم الأستاذ العالم «محمود أبو رية» (٤) .

ومع ذلك فلا نستطيع أن ننزه الصحابة أو نسلب عنهم كل فضيلة ،

---

١ — السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٧٧ ط ٢ — ١٩٧٨ م المكتب الاسلامى بدمشق
٢ — السنة قبل التدوين ص ١٩١ ط ٣ — ١٩٨٠ دار الفكر — بيروت ٣٠ — المرجع السابق ص ١٩٣ .
٣ — أضواء على السنة المحمديه ط دار المعارف ، أو قصة الحديث النبوى (المكتبة الثقافية) دار الكاتب العربى — القاهرة .

فالصحابة مع فضلهم الكبير ، وذودهم عن الدين بشر يعتريهم بعض ماينتاب النـــاس .

ومن هنا فلا أستطيع أن أقول أو أزعم أن كل الصحابة فى الفضل سواء ولا فى المستوى العلمى ، والتلقى ، والفقه ، والطبع ، والأخلاص . «وأقدار طبائع العوام والخواص ليست مجهولة فيحتاج إلى الأخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها ، لأنكم تعلمون أن طبائع الرسل فوق الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فـوق طبائع الوزراء ، وكذلك الناس على منازلهم من الفضل وطبقاتهم من التركيب فى البخل والسخاء والبلادة والذكاء والغدر والوفاء ، والجبن والنجدة ، والصبر والجزع والطيش والحلم ، والكبر والتيه والحفظ والنسيان ، والعى والبيان»(١).

فمنهم الأعرابى ، والذى لا يدين بالولاء لقريش ، ومنهم من دخـل الأسلام مكرها ، أو إتقاء شر عند ظنه .

وهل يمكن أن نسوى بين صحابى سن أسد أو مزينة أو تميم أو اليمامة ، وصحابى مقيم فى المدينة ؟ .

وحتى فى مجتمع المدينة ذاته . هل يصح أن نسوى بين صاحب عمل يسعى له ، وملازم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا عمل يشغله ، ولا أسرة يسعى من أجلها ؟ .

وإنما سقت هذا القول لأننا إذا صدقنا هذه المقدمة آمنا بما يستنتج منها ، فما طعن العلماء من بعد على بعض الصحابة إلا لكثرة الحديث عنهم ، وفى هذا إغفال لهذه الفروق ، فلا ريب أن تتصدر صحابة المدينة الحديث ، وتكثر روايتهم عن أصحاب مكة وغيرها .

١ — رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٤٣ تحقيق عبد السلام هارون ط أ ١٩٧٩ — القاهرة .

ولا يعقل أن نسوى بين عبد الله بن عباس والزبير بن العوام ، مع قدم الأخير وسنه ، فابن عباس أكثر ملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو ابن عمه وزوج خالته ، فأمه لبلبلة بنت الحارث أخت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث .

وبذلك نسقط شبهة الأكثار فى الحديث ، لأن المبطلين يربطون بين الأكثار والكذب ، وإذا كان واقع الصحابة مختلفا فكيف نسوى بين الظواهر التى نجمت عنهم ؟ .

وعلى ذلك فمن الممكن أن يسمع أحد الصحابة حديثا ثم يرويه ويبلغه لمن لم يسمعه وبذلك أمرهم رسول الله .

فالزعم بأن الصحابة كانوا على درجة واحدة فى السماع إفتراء على حقائق الواقع ، ومخافة لصريح قول الصحابة .

فقد أخرج البيهقى عن البراء بن عازب : «ليس كلنا كان يسمع حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا صنيعة وأشغال «.. وقول أبى هريرة دفاعا عن إتهامه بكثرة الحديث : «أن أخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وأن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم»(١)

ويعلق ابن سعد قائلا : «وكان أبو هريرة يلزم رسول الله صلعم على شبع بطنه ، فيسمع مالا يسمعون ويحفظ مالا يحفظون» .

وأما عدم تساويهم فى الفقه والفهم فهذا مدرك بين طبقات الناس ، ولا

---

١ — الطبقات الكبرى لأبن سعد ص ١١٨ جـ ٢ ط دار التحرير — القاهرة .
وهنا وإضطراب فى نقل الأستاذ عجاج الخطيب ص ١٤٦ من كتابة (أبو هريرة راوية الأسلام) أعلام العرب ٢٣ — القاهرة . — والحديث فى البخارى جـ ١ ص ٤٠ .

يمكن أن يكون جل الصحابة علماء أو فقهاء ، فقد كان قلبهم يفتى ، وقد عقد ابن سعد فصلا لذكر من كان يفتى بالمدينة ويقتدى به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل عمر : «من كان يفتى الناس فى زمن رسول الله صلعم ؟».فقال أبو بكر وعمر ما أعلم غيرهما» (١) .

وأقضية الصحابة معلومة ومشهورة فى الفقه الأسلامى ، فهم يفتى بعضهم بعضا ، ويأخذون الحديث عن بعض ، ولا أدل على ذلك من أبى هريرة ، فبرغم سماعه من رسول الله صلعم كان له رواه ينقل عنهم منهم أبو بكر ، وعمر ، والفضل بن عباس ، وأبى بن كعب وأسامه بن يزيد وعائشة .

وأما إختلافهم فى الأخلاق فواضح ، فمنهم من لم يتمسك بالأسلام إلا ظاهرا ، ومنهم الذى تغلب عليه الحدة ، والمتأثر بالحياة الجاهلية ، وما تعيير أبى ذر لصحابى بأنه ابن السوداء ببعيد عن هذا ، وما قول رسول الله فمايرون عنه «لاتسبوا أحد من أصحابى فإن أحدكم لو أتفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٢) .

ومن عجب أن الأستاذ الفاضل محمد عجاج الخطيب يسوق هذا الحديث دليلا على عدالة الصحابة (٣) ونحن نسأله عن فقه قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تسوا أحدا من أصحابى) هل كان ينهى عن شىء وقع ؟ .. أم ينهى عن إحتمال قائم ؟ .

---

١ — المصدر السابق ص ٩٩ .
٢ — صحيح مسلم
٣ — أبو هريرة ص ٣٦ .

والنهى يقتضى المخاطبة ، ويفقد معناه إذا نهيت عن أمر لم يحدث ، أو نهيت منتهيا ، وعلى هذا فهو ينهى الصحابة عن سب الصحابة ...

وهذا أمر عجيب فى عدالتهم ، فإذا كان الحديث صحيحا فهو محمول على الطبيعة البشرية ، فبعض النفوس ضعيفة ولو كانت نفوس الصحابة فتأتى الأمر المنكر ، وتفعل المنهى عنه ، وتقدم بين يدى الله ورسوله ويخالفون عن أمره ، ويتسللون منه فرارا ولو اذا ، وقد ظهر ذلك فى حياة رسول الله وبعد موته مباشرة ، وفى حركة التاريخ .

وهذه قضية خطيرة ، ينأى الباحثون عنها ، ومن يقدم على دراستها فهو بين أمرين — غالبا — الثقة وحسن الظن أو الشك وسوء الظن ، وكلا الأمرين يجانف الصواب فالصحابة رضوان الله عليهم بشر ، يجرى عليهم ما يجرى على سائر الناس ، وليس من الصواب أن نزعم أنهم كانوا على درجة واحدة فى الحياة الأجتماعية ، أو الثقافية أو البيئية .

ويمكن أن نصنف الأختلاف فى هذه الظواهر :

أولا : الأختلاف البيئى :

وهذه البيئة متنوعة ، فمنها البيئة البدوية والحضرية ، فإذا كان المهاجرون والأنصار من الحاضرة فكثير من المسلمين من أعراب البادية ، وأولئك الأعراب يضيق صدرهم وفيهم كزازة ، يروى البخارى «أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس فقال يا رسول الله : أخبرنى ماذا فرض الله على من الصلاة ؟ فقال : الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئا . فقال أخبرنى بما فرض الله على من الصيام . ؟ فقال شهر رمضان إلا أن تطوع

شيئا . ، قال أخبرني بما فرض الله على من الزكاة ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم شرائع الأسلام . قال ، والذى أكرمك لا أتطوع شيئا ، ولا أنقص مما فرض الله على شيئا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أفح إن صدق . أو دخل الجنة إن صدق» (١) . فأعجب لهذا الأعرابى الذى يقسم أنه لن يتطوع ..! .

ومن المعلوم موقف الصحابى الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إعدل فإنك لم تعدل أو . (إنكم مطل يا بنى عبد المطلب) . حين تقاضاه ماعليه من دين ، والأعرابى الذى بال فى المسجد . إلى غير ذلك من الروايات التى تثبت نأى الإعراب عن الرقة فى القول ، والسماحة فى الطبع ، ومن يقرأسورة الحجرات ، وما حدث مع وفد تميم يجد عجبا ، وظل هذا ديدنهم حتى مع عمر أقوى شخصيته إسلامية حكمت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال . «قدم عيينه بن حصبن بن حذيفة بن بدز (٢) فنزل على ابن أخيه الحر بن قيسن بن حصن ، وكان من النفر الذين يدينهم عمر ... فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لى عليه ؟ قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن لعيينة . فلما دخل قال : يابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل !. فغضب عمر حتى هم بأن يقع به . فقال الحر ، يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ، خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين وإن هذا

---

١ – صحيح البخارى ج ٩ ص ٢٩ ، ٣٠ – باب فى ترك الحيل – وج ١ ص ١٨

٢ – كان سيدا ، وأبوه حصن بن حذيفة ساد قبيلتى أسد وغطفان وجده حذيفة بن بدر كان يقال له رب مصر – راجع المعارف لأبن قتيبه ص ٥٩٢ .

من الجاهلين . فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله» (١) .

وإذا كان هذا موقف الأعراب ، فأهل الحاضرة أرق شمائلا ، وألطف قيلا ، ولا يمكن أن يكون حب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار غير رد فعل لما قدموه للأسلام ، وقد شهد لهم القرآن الكريم ببعض تعوقهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علىأنفسهم ولو كان بهم خصاصة» . (٢)

ويروى البخارى أن رسولا الله رأى النساء والصبيان من الأنصار مقبلين فقال «اللهم أنتم من أحب الناس إلى» . قالها ثلاثا . (٣) والأحاديث فى ذلك كثيرة ، فهم الذين آووا ونصروا وضحوا ومنهم العلماء والفقهاء ويكفى أن الذين جمعوا القرآن كان جلهم من الأنصار ، وقد جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار «أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد (أحد أعمام أنس بن مالك) وزيد بن ثابت» . (٤) .

واختلاف البيئة يترتب عليه إختلاف فى العادات والتقاليد واللغة ،وينشأ عن هذه فروق جوهرية فى الجماعة . وقد قال الإمام الخطابى «وقد يتكلم صلى الله عليه وسلم فى بعض النوازل بحضرته أخلاط من الناس ، قبائلهم شتى ، ولغتهم مختلفة ومراتبهم فى الحفظ والأتقان غير متساوية ، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره ، أو يتعمد لحفظه ووعيه ، وإنما يستدرك المراد

١ — صحيح البخارى ج ٩ ص ١١٦ .
٢ — سورة الحشر آية رقم ٩
٣ — صحيح البخارى ج ٥ ص ٤٠
٤ — المرجع السابق ص ٤٥ .

بالفحوى ، ويتعلق منه بالمعنى ، ثم يؤديه بلغته ، ويعبر عنه بلسان قبيلته ، فيجتمع فى الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد» . (١)

ثانيا : الأختلاف فى المستوى المعرفى :

لم تكن الصحابة على مستوى واحد من الفهم والفقه ؛ وهذا الأختلاف أمر لازم من لوازم الوجود ؛ والتفاوت فى المعرفة من المدركات الضرورية التى لا تدفع ، وليس يضير الصحابة فى شيء أن يوجد تفاوت فى المعرفة بينهم ، بل من شطط القول أن نظن أنهم كانوا فى فضل العقل سواء ، وفى المعرفة كربتى البعير ؛ وهذا الأمر كان ملحوظا لدى سلفنا من العلماء ، فالإمام البخارى مثلا يعقد بابا يسميه (باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لايفهموا) . (٢) وفيه يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله . ؟» (٣) . وفى تلك الكلمة الموجزة من على إعتراف بالفوارق الطبيعية فى المعرفة والمستويات المتباينة فى الفهم ولذا — فيجب على المخاطب أن يراعى هذه الفوارق ، ..

والتفاوت له عدة أسباب منها :

الجهل بالشيء الذى تجب معرفته ، إذ لابد من الأسباب الموصلة إلى المعرفة ، وهذه الأسباب قد تنعدم فينتفى ما يترتب عليها . ومن هنا فلا يعقل أن يكون الصحابة كلهم يشهدون واقعة معينة ، أو يسمعون حديثا فى حكم ،

١ — مقدمة غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام ص ب .

٢ — صحيح البخارى ج ١ ص ٤٤

٣ — المصدر السابق .

فمن سمع أو شهد فقد حصل أسباب المعرفة . ولذلك نجد فى الحديث مرارا «ألا فيلبلغ الشاهد الغائب» (١) . فإن الشاهدعسى أن يبلغ من هوأوعى منه(٢)

ومن ثم حرص من شهد أن يبلغ ، وحرص من فاته شيء أن يحصله بوسائل شتى ، فحين خطب الرسول صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة بعد أن قتلت خزاعة رجلا من بنى ليث . وتحدث عن حل الله له القتل فى مكة ، ساعة من نهار ، فجاء رجل من أهل اليمن ، وقال : أكتب لى يا رسول الله . فقال : أكتبوا لأبى فلان (٣) . والصحابة بشر تعمل كما يعمل الناس فمنهم من يستغرق العمل وقته ، أو يكون بعيد الدار ، نائى المحل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفوته المعرفة .

ومثل هذه الظروف — ظروف المعاش والحياة والبعد — لا تمكن المرء من متابعة ما يحدث ، ولقد تعرض لمثل هذه الظروف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ كان يقيم فى أطراف المدينة ، وكان يعمل فينال منه الجهد فلا يتمكن من الذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم . فكان يتناوب النزول هو وزميله الأنصارى ولننقل القصة من البخارى . (عن ابن عباس عن عمر قال . (كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ، وهى من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك(. (٤)

---

١ — صحيح البخارى ج ١ص ٣٨.
٢ — المرجع السابق ص ٢٦ .
٣ — المصدر السابق ص ٣٩ .
٤ — المصدر السابق ج ١ ص ٣٣ .

فهذه وسائل كان يقوم بها الصحابى ليقف على ما حدث ؛ ولكننا لا نظن أن كل من غاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكننه أن يتعرف على ما فاته ، فكثير منهم فاتهم الخبر ، ولم يشهدوا أمورا ... ولايقدح ذلك فى علمهم ومعرفتهم إذ هذه سنة الحياة ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وربما يرجع السبب إلى الفطرة ، والذكاء الغريزى ، فالصحابة ليسوا فى الذكاء الفطرى سواء : ورب شاب ناشىء يبز رجالا ذوى خبرة ومنزلة ، ومصداق ذلك ما روى عن معرفة إبن عمر لإجابة سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم على حين عجز عن معرفته كبار القوم . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال . (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرونى بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ولا تحت ورقها ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فكرهت أن أتكلم وثم أبو بكر وعمر ، فلما لم يتكلما قال النبى صلى الله عليه وسلم هى النخلة ، فلما خرجت مع أبى قلت : يا أبتاه وقع فى نفسى أنها النخلة ، قال : ما منعك أن تقولها ، لو كنت قلتها كان أحب إلى من كذا وكذا ، قال ، ما منعنى إلا أنى لم أرك ولا أبا بكر تكلمتما فكرهت) (١) .

فهذا مثل واضح فى التفاوت فى المعرفة ؛ والأمثلة وإن كانت قليلة عزيزة لكنها موجودة . فأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر مع علمها وفضلها كانت تسمع الأمر ولا تفهمه فلا تزال تحاول حتى تعرف – «عن ابن أبى مليكه أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه((٢)

---

١ – المرجع السابق ج ٨ ص ٤٢ – باب إكرام الكبير .

٢ – المرجع السابق ج ١ ص ٣٧ .

وهذا الفارق فى المستوى المعرفى هو مصدر تلك الروايات التى تبدو فى الظاهر متعارضة ، أو لا تتلاقى ، وكان الصحابى يظل يروى ما يعرف حتى إذا علم بما عند صاحبه رجع عن قوله .

ويمكن أن نقول أن الطابع العام كان الصدق ، وجل المجتمع كان يترسم هدى رسول الله ، وإن وجد ما يشذ بحكم طبيعة الحياة ، فالشاذ لا حكم له ، ولكننا لا ننفى وجوده .

فهذه العوامل من الاختلاف الثقافى والبيئى ، والوسط الخلقى ، والطبائع الفردية ، وجدت عوامل ساعدت على إظهار ما خفى ، والأعراب عما كمن .

ويمكن تلخيص هذه الأسباب فى :

١ — الخلافة .

٢ — الفتن والمنازعات .

٣ — الإنقسامات الطائفية والجغرافية .

ويتضح مما سبق أن الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا على درجة واحدة فى الذكاء ، والفقه ، والسماع ، والحرص على دين الله ، والإيمان به .

فإذا تهيأت الأسباب التى تؤرث نيران العداوة ، وتضرم شرر البغضاء ، كان البلاء ، ووقعت الفتنة .

عن ابن عباس قال رخص للحائض أن تنفر ، وكان ابن عمر يقول فى أول أمره إنها لا تنفر ، ثم سمعته يقول : تنفر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص لهن (١) .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ٩٠ .

فابن عمر سمع من رسول الله النهى ثم لم يسمع الرخصة ، وظل يفتى بما سمع أولا حتى وقف على الرخصة فأفتى بها ، وهذا دليل على التفاوت فى المعرفة .

وفى كتب الحديث والسير مادة غزيرة عن أخذ الصحابة بعضهم من بعض ؛ ولو كانوا فى المعرفة سواء لا استغنى بعضهم عن بعض ، وقد تحدث السيوطى عن رواية الصحابة بعضهم لبعض ، وسماها رواية الأقران(١)

ويعترى الصحابى — شأنه شأن سائر خلق الله — النسيان ، وتعرض له الغفلة ، وربما رجع السبب إلى قدم العهد بما سمع ، وبعد المسافة الزمنية بين وقت سماعه ووقت روايته ، والأمثلة كثيرة ، ولكنى اختار نموذجا لابن عباس فهو حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، فعنه قال (خلال من خلال الجاهلية، الطعن فى الأنساب ، والنياحة ، ونسى الثالثة ، قال سفيان أنها الاستسقاء بالأنواء(٢) .

وكان التفاوت فى المعرفة واضحا بين الصحابة — وهم يعترفون به — فابن عباس لا يعرف المرأتين من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى فيهما (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) . (٤) ، وهو يدرك أن علم ذلك عند عمر بن الخطاب ، وابن عباس حريص على أن يسأل عمر . فاحتال لذلك حيلة طريفة حين حج معه — وهو أمير المؤمنين — وانتهز فرصة قضاء عمر لحاجته ؛ واقترب منه وصب الماء على يديه ووضأه . يقول ابن عباس رضى الله عنه (ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله

---

(١) تدريب الراوى ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٥٦ . باب القسامة فى الجاهلية

(٣) التحريم آية رقم ٤ .

تعالى : إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) . قال (عمر) وا عجبا لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة ، ثم أستقبل عمر الحديث يسوقه(. (١)

وكذلك آية الحجاب كانت عند أنس بن مالك يقول عن نفسه (وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل) . (٢)

وقد تبلغ عدم المعرفة مبلغا كبيرا ، فهذه امرأة مسلمة تحج فى زمن أبى بكر وتخلط الشعائر بعادات كانت فى الجاهلية ، وهى لا تعرف أمامها، ويدل الحوار الذى جرى بينها وبين أبى بكر . أنها لم تتأثر بالإسلام كثيرا .

(دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب ، فرآها لا تكلم ، فقال : مالها لا تكلم ؟ . قالوا حجت مصمته ، قال (أبو بكر) لها : تكلمى فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهاية ، فتكلمت . فقالت .

من أنت . ؟

قال (أبو بكر) . : أنا رجل من المهاجرين .

قالت : أى المهاجرين ؟

قال : من قريش .

قالت : من أى قريش أنت . ؟

قال : إنك لسؤول . ! أنا أبو بكر .

قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية .

قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم .

---

(١) البخارى جـ ٧ ص ٣٦ باب موعظة الرجل إبنته .

(٢) البخارى جـ ٨ ص ٦٥ باب آية الحجاب .

قالت : وما الأئمة . ؟

قال : أما كان لقومك رؤس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم . ؟

قالت : بلى .

قال : فهم أولئك على الناس .» (١)

وهذا الحوار جلى ، غنى بنفسه عن التعليق ، وربما قيل هذه امرأة غير متحضرة ، بعيدة عن دار الهجرة ، ولم تتهيأ لها أسباب المعرفة .

فهذا رجل فاضل ذو قدر ومنزلة ، الحجاج بن أيمن ، بن أم أيمن . ومن المعروف أن أيمن بن أم أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه ، وأم أيمن حاضنة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو يقيم فى المدينة ، ولكنه لا يحسن الركوع والسجود ، فرآه عبد الله بن عمر فأمره بإعادة صلاته . عن مولى أسامة ابن زيد أنه بينما هو مع عبد الله بن عمر ، إذ دخل الحجاج بن أيمن ، فلم يتم ركوعه ولا سجوده ، فقال (عبد الله بن عمر) أعد ، فلما ولى ، قال لى ابن عمر : من هذا ؟ قلت : الحجاج بن أيمن بن أم أيمن . فقال ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبه(. (٢) .

وإذا كان جل الصحابة يؤدون المطلوبات على أكمل وجه ، فمنهم من كان يتجوز فى صلاته ويسرع فى أدائها ، فهذا رجل يصلى الصلوات الخمس فى زمن وجيز قبل أن ينتهى حالب الشاة من حلبته . يقول عمرو بن ميمون (لو أن رجلا أخذ شاة عزوزا فحلبها ما فرغ من حلبها حتى أصلى الصلوات الخمس) . (٣) قال أبو عبيد إنما أراد التجوز فى الصلاة .

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٥٢ باب أيام الجاهلية .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠ باب ذكر أسامة بن زيد .
(٣) غريب الحديث — للقاسم بن سلام ج ٤ ص ٣٧٦ .

وقد رأى ابن عمر فى الحج قوما لا يعلمون من أمر الحج شيئا ، فقال عنهم (هؤلاء الداج وليسوا بالحاج) . فالذى أراد ابن عمر أن هؤلاء ليس عندهم شىء إلا أنهم يدجون ، ويسيرون ، ولا حج لهم . (١) .

وهذا الفرق فى المستوى العلمى ، ينصرف — بالضرورة — إلى التقدير ، ويؤثر تأثيرا مباشرا على الرأى ، فابن عباس رضى الله عنهما يرى أن النظر إلى المرأة من اللمم ، والحديث معها من اللمم كذلك ، وإن ورد بلفظ الزنا (عن ابن عباس قال :

ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه .) (٢) .

والصحابة تعلم ما عندها ، وتعرف ما يمتاز به كل منهم . وتعترف بذلك وترويه .

يلتقى علقمة مع أبى الدرداء فى مسجد بالشام فقال أبو الدرداء له (ممن أنت؟ قال : من الكوفة . قال : أليس فيكم صاحب السر الذى كان لا يعلمه غيره؟ (يعنى حذيفة بن اليمان) . أليس فيكم الذى أجاره الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الشيطان ؟ (يعنى عمار بن ياسر) . أوليس فيكم صاحب السواك ، والوساد . ؟ يعنى ابن مسعود). (ثم سأل علقمة .) كيف كان عبد الله يقرأ والليل إذا يغشى . ؟ قال .. والذكر والأنسان) (بإسقاط (وما خلق) فقال

---

(١) غريب الحديث جـ٤ ص ٢٤٨ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٦٧ باب زنا الجوارح .

لأبو الدرداء) . مازال هؤلاء حتى كادوا يشكونني ، وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم) . (١) .

ومن يرجع إلى (الإستيعاب) الذى كتبه حافظ المغرب ابن عبد البر يجد إختلافا كثيرا بين الصحابة ، ويقف على ما شجر بينهم ، وهذا ما أخمل الكتاب بين العلماء . يقول الإمام النووى (ومن أحسنها وأكثرها فوائد (الإستيعاب) لابن عبد البر لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة((٢) .

وقد ترتب على وجود فروق فى المستوى العلمى بين الصحابة أن حدثت بينهم محاورات ، وورد إلينا تفاوت فى الروايات . ووقع بينهم جدال ومحاججة وقد ذكر ابن عبد البر فى كتابه القيم (جامع بيان العلم وفضله) طرفا من لجاجة الصحابة بعضهم مع بعض (٣) .

وهذا التفاوت فى مستوى المعرفة ، والإدراك والفهم ، واضح لكل ذى بصيرة ، وليس يضير الصحابة فى شىء أن يتفاوتوا ويختلفوا فهم بشر ، ولا يرفع من قدر الإسلام أن ندعى للصحابة مكانة فوق طبيعتهم ، كما لا ينتقص قدرنا إذا اعترفنا بالواقع المشاهد ، وفرقنا بين الإجلال والتقديس .

يقول الإمام ابن القيم عن إختلاف الصحابة . (فاختلفت أقوالهم وآراؤهم فى مسائل كثيرة كمسألة الجد ، والمشركة ، وذوى الأرحام ، وأمهات الأولاد ، وغير ذلك فصاروا بإختلافهم فى هذه الأشياء محمودين((٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧ باب من ألقى له وسادة .
(٢) تدريب الراوى ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ٦٢٤ مكتبة المتنبى — القاهرة .

ثالثاً : الإختلاف فى الخير والمودة :

الناس معادن ، والصحابة رضوان الله عليهم ناس من خلق الله ، فهم — لذلك — يتفاوتون فى الخصال الحميدة ، ويتباينون فى الشيم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أقدار الناس ، وينزلهم منازلهم ؛ والذى يتبع سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وحياة النبى عليه الصلاة والسلام بينهم يرى أمرا عجبا ، فالعلاقة تقوم على مراعاة القدر فى الخير ؛ ولذا فليس من الغريب أن تروى أحاديث كثيرة تفضل أناسا ، أو تكشف عن جانب مهم يتضح منه مدى علاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم .

فمن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب زيد بن حارثة وينزله منزلة خاصة وكذلك ابنه أسامه ، — وهذا الحب هو الذى دفع ببعض الصحابة إلى أن يتوسلوا به حين سرقت المخزومية — وحين أمر على المسلمين أسامة قبيل وفاته عليه السلام طعن بعض الصحابة فى كفاءة هذا الشاب ، وحداثته ، فقال النبى رداً عليهم (إن تطعنوا فى إمارته ، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقا للأمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده) . (١) وكان يردفه الرسول خلفه على راحلته وقال لبعض الصحابة وقد أقبل سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه (قوموا إلى خيركم ، أو إلى سيدكم) . (٢) .

فبعض الناس فيه عناصر السيادة ، ويربو على أقدار الآخرين ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خير من يقدر ذوى الفضل ، ويحفظ لهم مكانتهم ، وهذا

---

(١) البخارى ج ٥ ص ٢٩ . مناقب زيد بن حارثه . ج ٤ ص ٦٨ .
(٢) البخارى ج ٥ ص ٤٤ — مناقب سعد بن معاذ .

الخلق عرفته الصحابة ، ولم ينفروا منه ، ومن عجب أن فئة من المسلمين تضيق ذرعاً بلفظة «سيدنا» . مع أنها وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى لسان أشد أصحابه فى الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فهو يسجل مكرمة لأبى بكر ، ولا يرى حرجا أن يشيد بجليل عمله ، وعميم فضله . فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال «كان عمر يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا» (١) . ومن الطبيعى أن ينوه الرسول صلى الله عليه وسلم بصاحب المنقبة ، فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل .

ومحمد عليه السلام ينظر فى عواقب الأمور ، ومآل الفعال ، وهو يحب أسداء المعروف ولا سيما لمن سلف منه ، فحين جىء بأسرى بدر ، كان من بينهم العباس بن عبد المطلب ، وكانت له مواقف مشرفة فى بداية الدعوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولما تفقد النبى الأسرى ألفى العباس من غير ثوب ، فتلمس له قميصا ، فلم يجدوا قميصا على قدره إلا قميص عبد الله بن أبى فكساه النبى إياه ، قال ابن عيينه : كانت له عند النبى يد فأحب أن يكافئه» . (٢)

وهذا البصر بما فى الناس من تفاوت هو الذى يفرق بين رجل ورجل ؛ والروايات تمدنا بزاد ينفد من هذه السبيل .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقدر أهل التقدير ، ولو تعرض فى سبيل ذلك إلى المؤاخذة واللوم .

فمن البين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت حركته مرصودة ،

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٣ مناقب بلال .

(٢) البخارى جـ ٤ ص ٧٣ باب الكسوة للأسارى .

وكل أعماله تحفظ . لأنه القدوة والمثل ، وإذا كان ذلك مقررا ، فحركته لدى المرأة أكثر مراقبة ، وأحرص تتبعا ، ولم يعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على غير نسائه فى المدينة إلا امرأة واحدة كان يزورها ، ويقيل عندها ، وهى «أم سليم» حتى تحدث إليه بعض الصحابة فى هذا الشأن فكشف لهم عن سبب ذلك . (عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يدخل بيتا بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه ، فقيل له . فقال : إنى أرحمها قتل أخوها معى :((١) وهى — فوق ذلك — مقاتلة فى سبيل الله وفدائية باسلة إشتركت فى غزوة أحد ، تسقى الجرحى ، وتنقل بين صفوف القوم (٢) .

وكان عمر بن الخطاب يقدرها حق قدرها ، فحين قام — وهو أمير المؤمنين — بتقسيم المروط على نساء المدينة بقى بعد القسمة مرط جيد، فأشار عليه بعض من حضر بأن يعطيه لزوجه (أم كلثوم بنت على) فقال عمر (أم سليم أحق به فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد(. (٣)

والأنصار لهم يد لا تجحد فى الأسلام ، ولكن الرسول عليه السلام يفرق بينهم ، إذ هم يختلفون فيما بينهم فى الخير ، وليسوا فيه سواء ، ومحمد عليه السلام يعرف هذا ويقوله . حتى يرفع الحرج . ويرسى الأسس . وإن كان هذا قد أغضب من تأخرت مرتبتهم ولم يفطن إلى أنه وإن كان آخر المفضلين فقد فاز بخير كثير ولذلك قال له بعض أصحابه (قد فضلكم على كثير(.والخير على حد رواية البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير دور الأنصار

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣ باب فضل من جهز عاريا .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠ باب غزو النساء .
(٣) تزفر تخبط المصدر السابق باب حمل النساء القرب .

بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث — من الخزرج — ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير . فقال سعد (بن عبادة) ما أرى النبى صلى الله عليه وسلم إلا قد فضل علينا) . (١) : وإذا كان سعد قد تساءل معترضا وهو مع رفاقه ، فى رواية أخرى أنه وجه إعتراضه للنبى ذاته قائلا له : يا رسول الله خير دور الأنصار فجعلنا آخرا ، ؟! فقال (النبى) أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار((٢) .

وهذا النظر الثاقب إلى الفروق الجوهرية بين الناس هو الذى يؤدى إلى إضطراد التقدم ، وإستمرار الحافز إلى نشدان الأفضل .

ومن الثابت أن الأخلاق لا تتجزأ ، فالقوة حين تكون خلقا تصبح عادة لا تزايل صاحبها . وهذه أم سليم تلك المقاتلة الشجاعة فى ميدان المعركة نجدها شجاعة أيضا فى مجال المعرفة ؟! فهى تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر خجلت منه زوجته أم سلمة . ولكن الفوارق الخلقية هى التى تكشف عن معادن الناس ، فعن أم سلمة قالت : : (جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله . إن الله لا يستحى من الحق . فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأت الماء. ففطت أم سلمة (وجهها) وقالت : يا رسول الله : وتحتلم المرأة . ؟ قال : نعم تربت يمينك فيم يشبهها ولدها) . (٣)

ولقد يفهم بعض الناس — الآن — من هذا قلة الحياء ، ويرى فيه شيئا من الجرأة التى لاتحمد للمرأة . ؛ ولكن الأسلام لا يعرف أخلاق الضعف ،

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٢ ، ٤٥ باب فضل دور الأنصار .
(٢) المصدر السابق .
(٣) صحيح البخارى ج ١ ص ٤٤ باب الحياء فى العلم .

ولكنه دين القوة فيما لا يخرج عن الحياء ، أو يقدح فى العدالة . وفى الأحاديث ما يكشف عن الجرأة فى التعليم ورفع الحرج فى سبيل المعرفة .. ولقد أبتلينا بفئة تزعم أن كل شيء من الكبائر . فتجد الفتاة فى الجامعة لا تحاول أن تعرف شيئا وهى تدعى إلى الأسلام . وتخجل من لا شيء وخلقها يعصمها ، ودينها رصد يحفظها .. ولقد شهدت الصديقة بنت الصديق لنساء الأنصار بأنهن خير النساء لجمعهن بين خصلتين الحياء والمعرفة . «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن ينفقهن فى الدين» . (٢) ، وهذا التمايز يرفع من قدر نساء الأنصار وقد شهد لهن بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحم الله نساء الأنصار يتفقهن فى الدين(٢) .

ومن هذا يتضح أن الصحابة ليسوا على درجة واحدة فى الخير ، وإن كان منهم جميعا خير ؛ وفى الحديث النبوى ما يكشف عن التفاوت فى درجة الخير والفضل ؛ ولقد آثرت الأجتزاء وأكتفيت باللمحة الدالة . . وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

رابعا : الضعف البشرى :—

من المستحيل أن يخرج الأنسان على فطرته التى فطره الله عليها . فالمرء محكوم بنوازع وشهوات ، وتستبد به نزغات وأهواء ، ويخرجه عن سواء السبيل اللهو واللعب ، وليس بمكنة الأنسان — مهما حاول — أن يقهر النفس الأمارة بالسوء قهرا مستمرا ، ولكنه عرضة للإغراء ، والناس فى ذلك يختلفون أشد الأختلاف — فبينما تجد رجلا متماسكا ، معتدلا يقهر شهوته مرات ، إذا بك أمام رجل مغلب تقهره نفسه مرارا .

(١) صحيح البخارى ج١ ص ٤٤

(٢) الفقيه والمتفقه ص ٤٨ للخطيب البغدادى .

والصحابة فيهم الضعف البشرى ، ويعتريهم ما يعترى سائر الناس أمام المغريات ، وإن كبحوا جماح أنفسهم كثيرا ، وفاقوا غيرهم غالبا .. وما نورد عنهم من أخبار ليس قادحا فيهم وإنما نبغى الرد على من يزعمون للصحابة العدالة المطلقة ، والبعد عن الصفاء : ولسوف أكتفى بإيراد بعض النماذج لمن أراد أن يذكر .

إفشاء أسرار المؤمنين :

كان (حاطب بن أبى بلتعة) من المؤمنين الأولين ، ومن الذين شهدوا بدرا . ولكنه كان يشعر بشىء من الضعف إزاء قريش ، إذ عندهم ماله وأهله وقد تركهما فى سبيل الله . وما من أحد من المهاجرين من قريش إلا وله عصبة ومنعة فى مكة ترعى ماله ، وتحفظ أهله .

فأراد هذا الصحابى الجليل أن تكون له يد عند قريش ، وأن يقدم لها ما يطوق به عنقها ويتخذ ذلك ذريعة إلى حفظ ماله ، وصيانة ما يملك.فأطلعهم على تدبير النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى ما يكاد لهم ليأخذوا حذرهم ، ويكونوا على بينة ، ولجأ إلى حيلة طريفة لتوصيل تلك المعلومات إذ أرسل امرأة ومعها رسالته متضمنة أسرار المدينة ، ولم يكتشف أحد من المسلمين ذلك حتى أعلمت السماء محمدا عليه السلام فأمر على بن أبى طالب والزبير والمقداد بن الأسود بالأنطلاق إلى طريق مكة وسمى لهم مكانا (روضة خاخ) عنده ستجدون ظعينة معها كتاب . وذهب على ورفاقه فوجدوا المرأة عند ذات المكان .. وأخرجوا منها الكتاب بعد إنكار وتحايل . فإذا فيه : (من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين (١) من أهل مكة يخبرهم ببعض

(١) لم يورد البخارى الأسماء . وليس من المعقول أن تكون صيغة الخطاب مجهولة ، فهو يوجه إلى إناس محددين .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال رسول الله : يا حاطب ما هذا . فلم ينكر وإنما فسر لهم سر ما أقدم عليه ، وكشف عن ضعفه البشرى ، (يا رسول الله لا تعجل على إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت كفرا ، ولا إرتدادا ، ولا رضا بالكفر بعد الأسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد صدقكم) . (١)

فهذا رجل يضعف أمام ماله وينهج نهجا ظنه عمر مبيحا لضرب عنقه ، ولكن محمدا عليه السلام يقدر الضعف البشرى ويصفح عنه ، ولا يقبل طعنا عليه فى دينه ، وفى هذه الواقعة نزل قوله تعالى فى أول سورة الممتحنة . (. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وإبتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) . (٢) فهذا نموذج بشرى معتاد .

حب الدنيا وطلبها :

من الناس من يزعم أن الصحابة كانوا زاهدين فى الدنيا زهدا يسدنو بهم إلى تعطيل مقاصد الشرع ، والزاعمون إنما يبتغون من وراء ذلك حسن الأحدوثة ، والذكر الجميل . وفى الصحابة من كان يترفع ، ومنهم من كان يبذل كل ما عنده ، ومنهم من يبذل بعضه ، ومنهم من يبتغى المال ويطلبه ويسعى إليه . وينشده بطرق شتى .

(١) البخارى ج ٤ ص ٧٢ . باب الجاسوس . ج ٨ ص ٧١ باب من نظر فى كتاب
(٢) آية رقم ١ .

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من المال بين أربعة نفر (عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل . (شك راوى الخبر (١) فقال رجل من أصحابه . نحق أحق بهذا من هؤلاء .) ؟! فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال كلمة تنم عن الضيق والأسف . (ألا تؤمنونى وأنا أمين من فى السماء ؟! يأتينى خبر السماء صباحا ومساء . قال (أبو سعيد الخدرى راوى الحديث) . فقام رجل غائر العينين مشرق الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس مشمر الأزار . فقال : يا رسول الله . إتق الله . قال (الرسول) ويحك . أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله . قال (الراوى) : ثم ولى الرجل . قال خالد ابن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه .؟ قال : لا . لعله أن يكون يصلى . قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ماليس فى قلبه ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لم أومر أن أنقب قلوب الناس . ولا أشق بطونهم) (٢) .

وقد يقال هذا رجل أعرابى ، خروجا من الدليل ، ولكنه الضعف يعترى الناس جميعا ، فهذا صحابى من الأنصار — وهم من هم — يرى الرسول عليه السلام يقسم قسمة بين الناس فلا يرضى عنها . ويقول ساخطا أمام الناس (إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله) (٣) وهذه القولة آذت النبى جدا ، حتى أحمر وجهه وقال (رحم الله أخى موسى أوذى بأكثر من هذا فصبر) (٤)

وفى سورة آل عمران . (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة — والخيل السوقة والأنعام والحرث) (٥)

(١) أظنه علقمة لأن عامرا لم يهادن النبى كثيرا ، ودعا عليه فمات فى بيت امرأة من سلول

(٢) البخارى ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٣) البخارى ج ٨ ص ٨٠ . (٤) المصدر السابق

(٥) آية رقم ١٤ .

والصحابة من الناس ، فهذه الأشياء مزينة لهم ، وقد إعترف بهذا عمر الذى كان يطيق فوق كثير من الناس . (اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إنى اسألك أن أنفقه فى حقه) . (١)

وهذا صحابى جليل هو (حكيم بن حزام) يسأل النبى صلى الله عليه وسلم شيئا من المال فيعطيه . يقول حكيم . (سألت النبى صلى الله عليه وسلم فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم سألته فأعطانى ، ثم قال لى : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولايشبع ،واليدالعلياخيرمن اليد السفلى (٢)

فانظر إلى هذا التوجيه الإنسانى ، الذى يرحم مشاعر الضعف ، ويسمو فوق التجريح والمباشرة . ويكشف عن طراز فريد يعالج بشرا من البشر فى حنان ، وتوجيه ، ورعاية .

وهذا مطلب طبيعى لدى البشر ،يبتغى إذالمال وينشده بكل وسيلة ،ويكنزه ويرعاه فهو به منهوم لا يشبع ، ولقد كشف الرسول عليه السلام عن الضعف البشرى حيال المال إذ قال (لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى ثالثا ، ولايملأجوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللهعلىمن تاب) ،ويبدو أنهلكثرة تكرار هذا القول من رسول الله واعظامه له شك ابن عباس أنه من القرآن . بل إن أنس بن مالك كان يعده من القرآن يقول (كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر) . (٣)

---

(١) البخارى جـ ٨ ص ١١٦ .

(٢) البخارى جـ ٨ ص ١١٦ .

(٣) البخارى جـ ٨ ص ١١٥ .

ومن الغريب أن يقول أنس ذلك ، فمن روح الأحاديث ما يفهم أنها في المدينة ، وأنس ذاته من المدينة وهو المتحدث الراوي . وسورة التكاثر مكية . فكيف يكون ذلك . ؟ أننا نرى عدم ضبط في رواية الإمام البخاري أو في النقل عن أنس . !

ومن طلب الدنيا أن تقدم إنسانا لأمر ما تراه له أهلا ، فإذا رشح رجل ذو قدر رجلا غير من ترشحه فخليق بك أن تسحب ترشيحك وتحجم ، وإلا ظن بك الظنون . وهذا ما حدث حين أقبل وفد بني تميم فرشح أحدهما الأقرع ابن حابس وخالفه الآخر بغير ما رشح ، فاحتدم الخلاف بين الشيخين وارتفع صوتهما . عن ابن أبي مليكه قال : (كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع بن حابس ، وأشار الآخر بغيره ، فقال أبو بكر لعمر : إنما أردت خلافي فقال عمر : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) . (١) .

وعندما أمر الرسول عليه السلام القوم بأن يصلي بهم أبو بكر ؟ ذهبت حفصة بنت عمر إلى زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد أن طلبت منها عائشة ذلك — وقالت له : إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيرا) . (٢) .

---

(١) البخاري ج ٩ ص ١٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢١ .

فعائشة ربما أرادت أن تعلم حفصة باختيار رسول الله لأبي بكر ، وربما توحي العبارة بأشياء تهم المرأة ، وحاولت أن تؤكد لها تفوقها ومكانتهافأسرت إليها بأن تحاول أن تثني رسول الله عن ترشيح أبي بكر ، وترشح أباها عمر ؛ فرد عليها النبي ذلك الرد الذي يحمل الثورة وعدم الإرتياح لهذا الصنيع ...

وحين يرى رجل من الأنصار أن الرسول يستعمل أناساً دونه في القدر — بزعمه — يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه صراحة أن يستعمله . فعن أسيد بن حضير : (أن رجلا من الأنصار قال : يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانا ؟ قال (النبي) ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) . (١)

فمن الصحابة من يحب المال ، ويجمعه ، ويبتغيه ، ويقبل على الدنيا وينشدها ، وله في الحياة مآرب ومشارب ، وفي العيش غايات ومطالب .

الحيـــاة والممارســـة :

يخطيء الأنسان حين يظن أن القانون النظرى هو الذى يسود أمة من الأمم فأية أمة لديها قانون ، — وهو فى صياغته قد يكون جيدا — ولكنه عندالممارسة والتطبيق يتغير بتغير الممارس — ويختلف بإختلاف القاضى والمحتكم .

ولدينا فى الأسلام القرآن الكريم دستور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكنه لا يظل قرآنا عند الممارسة ، والسعى فى الحياة فمن الناس من يترخص ، ومنهم من يغالى ومنهم الورع ، والذى لا يرى بأسا باللمم وهكذا.

والصحابة — كانوا — فوق ما قدمنا — عند ممارسة الحياة تظهر على

(١) البخاري جـ ٥ ص ٤١ .

بعضهم عورات الدنيا ويلبسهم الحرص ، ولقد كان أسلافنا من العلماء أكثر شجاعة منا ، فلم يروا فى رواية بعض النقص ثلما للأسلام ، ولا لذكر الخطأ ما يثل عروش الدين ويأتى عليه .

ولما كان التقلب من ديدن الأنسان ، والتحول من سماته الثابتة ، فقدحذر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من أن يرجعوا عن دينهم ، ويعودوا كفارا وهذا أمر وارد ولو كانت الصحابة فوق الشبهات لما كان هناك من داع لمثل هذا الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ويلكم — أو ويحكم — لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)(١). ويروى أنه قاله فى حجة الوداع (٢) .

وهذا الحديث يخاطب الصحابة (لا ترجعوا) وليس من الصواب أن نحمله على ما يأتى من الزمن ونهمل دلالة الخطاب ، فالرسول يدرك ضعف الأنسان ويعرف قدرته على التبدل والتغير ، وعدم قدرته على الإستمرار فى شىء أبدا ولذلك فهو يحذر ويندد .

ومن البين أن الرسول له قدره فى نفوس الصحابة ، ومنزلة دونها منزلة الملوك ولكنهم أحيانا يعودون إلى طبيعتهم البشرية ويضايقون النبى بأسئلتهم ، وينادونه بمالا يحب ويلحقون عليه فى المسئلة مما يسبب له مشقة وعنتا ؛ فالنبى باعتباره شخصية ذات قدر لا يجوز عندها الصخب والضجيج ، وكانت الصحابة تلتزم بذلك عادة ولكن لما أشتد الوجع بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه ، بدا له أن يكتب أمره إلى الناس درءا للخلاف ، ودفعا

---

(١) البخارى جـ ٨ ص ٤٨ .

(٢) البخارى جـ ١ ص ٤١ . باب الإنصات إلى العلماء .

للشقاق ، وقال : إئتونى بكتاب أكتب لكم كتاب لا تضلوا بعدى) .فاختلف الناس من مذعن للأمر ، ومعرض لأشياء بدت للمعرض من إشتداد الوجع وما يترتب عليه من ذهاب القدرة على التفكير المستقل السليم . حتى قال عمر (إن النبى صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع) . ويبدو أن الأصوات قد علت والأختلاف قد اشتد ومن هنا يقول الراوى . (فاختلفوا وكثر اللفظ) . ولما كان هذا التصرف منافيا للآداب التى يجب أن تراعى فى حضرة النبى قال لهم : قوموا عنى ولا ينبغى عندى التنازع) . (١)

والأنسان المعتاد كثيرا ما يهرع إلى من يظن أنه أكثر منه معرفة ، فيلقى إليه بما يعتمل فى صدره ، ويجيش به خاطره ، من غير مراعاة للظـروف الخاصة ، ولا مبالاة بما يؤدى إليه سلوكه من مضايقات .

ومن المعروف أن السؤال يكشف عن عقلية السائل ونفسيته وبيئته ، وإهتماماته إلى غير ذلك ، وكلما ارتقى الأنسان نأى فى قوله وسلوكه عن الصغار وترفع عن سفاسف الأمور ؛ .

ولكن يبدو أن بعض الصحابة ضايقوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأسئلتهم وتعرضوا معه لأشياء هابطة ما كان ينبغى لهم ولا له أن تجرى على ألسنتهم ، ولاشك أن هذا قول فيه مراعاة للأمثل ، وأما الواقع فكان لا يستبعد حدوث مثل ما حدث ، فالقوم أخلاط ، ولا يفرقون بين ما ينبغى ، وما يمكـن ، وليس لديهم بصر بأدب الحوار ، ولا رفق بالمسؤول ويمكن أن نفهم هـذا القول من وصف أنس راوى الحديث للحالة التى كانوا عليها (سألوا رسول الله حتى أحفوه المسألة) . ويصور أبو موسى هذه الحالة (سئل رسول الله صلى

---

(١) البخارى ج ١ ص ٣٩ .

الله عليه وسلم عن أشياء كرهها . فلما أكثروا عليه المسألة غضب) . فمن الواضح أنهم — (١) ألحقوا في المسألة . (٢) وتطرقوا إلى أشياء لاتليق . (٣) عدم التقدير والتوقير . وأمام هذا لم يجد الرسول بدا من الصعود إلى المنبر وقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم) .

والحديث به شيئان (١) غضب شديد ، ورد فعل أشد . والأمر الثاني خلوه من ذكر ما يستوجب ذلك إلا بعض الأمثلة التي لا يترتب على مثلها ذلك الغضب والحديث بذلك ناقص مختصر ، ويمكن أن يقال في هذا الحديث ما قاله الجاحظ ، حين إنتقد بعض الروايات . إذ عاب على الرواة أنهم يسقطون من الرواية عللها . (ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد إقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة) (١) .

وإننا لنعجب من قول الراوي (فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كل رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي) لماذا .؟ إلا إذا كان قد صدر عنهم أشياء آذت النبي عليه الصلاة والسلام فقال ما يكشف عن غضبه ، أو بدا منه ما ينم عن تبرمه وضيقه الشديدين . وهذا ما يؤكده عجز الحديث من فعل عمر إذ قام فقال (رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا . نعوذ بالله من الفتن) . فهل كان في الحوار الذي سبق الحديث مامس هذه الأشياء .؟. ربما . وفي رواية أبي موسى يقول عمر (إنا نتوب إلى الله عز وجل) . وإن كان الحديث لم يتضمن غير سؤال إذ قام رجل كان يتهم عند الخصومة في نسبة وقال : يا رسول الله من أبي ؟ قال حذافة . (٢) وفي رواية أبي موسى . أن رجلا آخر

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ٣٣٩ — طبعة ٢ — تحقيق عبد السلام هارون — الحلبي — القاهرة .

(٢) البخاري جـ ٨ ص ٩٦ وجـ ٩ ص ٦٧ ، ١١٧ ، ١١٨ .

قام فقال — أيضا — يا رسول الله من أبي ؟ قال أبوك سالم مولى شيبة) . وكان قتاده عند هذا الحديث يذكر قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) .. (١) .

والانسان يحب الغلبة ويجنح إلى الأنتصار ، ولو بالباطل . فالبائع يغش سلعته — طلبا للرواج والكسب ، والمشترى يبخس الثمن إبتغاء المال ، والحبر يقول رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى ؛ ولكن الممارسة تظهر معادن الناس ، فنجد من يخدعون فى الأسواق ، ويموهون على الناس ، ومن هنا يأتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشكو إليه (أنه يخدع فى البيوع) (٢) على حد تعبير ابن عمر رضى الله عنهما «وفى البخارى» باب مما يكره من الأحتيال فى البيوع » .

وهذه الخديعة لا تقتصر على البيع ، وإنما تمتد إلى جوانب الحياة ، فعند المخاصمة والتقاضى كل امرىء يحاول أن يأخذ الحق لنفسه ، ولربما نجح الظالم فى إقناع القاضى — وإن كان محمدا عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا يحذر الرسول من تسول له نفسه أن يخدعه ؛ ليحكم له بالباطل . «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ ، فإنما أقطع له قطعة من النار) (٣) . ؛ وهذا اعتراف بالضعف البشرى من سيد البشر عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠١ .
(٢) البخارى جـ ٩ ص ٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢ .

وحب الغلبة هى التى تدفع الأنسان إلى الجدال والمماحكة ، وتجعله يتعلق بأوهى الأسباب رغبة فى تحقيق ذاته وكان فى الصحابة من يجادل ، ويتمسك بالظاهر من القول .

فهناك حديث يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أنه وفاطمة رضى الله عنها — باتا ليلة ولم يصليا . فأتى إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وجرى بينهما حوار طريف — فيقول الرسول : ألا تصليان . ؟ . بصيغة الحض ، وفيها لوم وتثريب . فرد على قائلا : أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا) . وهذه المقولة فيها صدق ، وفيها جدال ومغالطة . ولذا لم يمكث رسول الله معهما إذ سمع ذلك . وانصرف مغضبا بدليل وصف على له (فأنصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا) . وقد بلغ منه التعجب مداه . فأتى بأفعال عصبية مثل أن يضرب فخذه ، كما وصفه على وهو مول (يضرب فخذه) . ويقول ما يكشف عن تعجبه (وكان الأنسان أكثر شىء جدلا((١)

وهذا الجدال المجبول عليه الأنسان هو الذى يفتح باب الفتن ، ويدخل منه الشحناء ، ويتفرق به الأقوام . والعرب تجنح إلى المجادلة ، وهم قوم وصفهم القرآن «فإنما يسرنه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لدا»(٢) وما هلك المسلمون إلا من قبيل الجدل وحب الغلبة وقد كان ذلك سائدا فى عصر الصحابة . قال عبد الله بن الزبير (لقينى ناس ممن كان يطعن على عثمان ، ممن يرى رأى الخوارج فراجعونى فى رأيهم ، وحاجونى بالقرآن ، فوالله ما قمت معهم ولا قعدت ، فرجعت إلى الزبير منكسرا فذكرت ذلك له فقال :

(١) البخارى ج ٢ ص ٦٢ باب تحريض النبى على صلاة الليل .
(٢) مريم آية رقم ٩٧ .

إن القرآن قد تأوله كل قوم على رأيهم ، وحملوه عليه . ولعمر الله إن القرآن لمعتدل مستقيم ، وما التقصير إلا من قبلهم) . (١)

والأنسان حين يجابه الحياة تبدو سماه ، ويعتريه ما كان يتوقاه قبل الحركة والمخالطة ؛ وليس أدل على ذلك من نساء النبي عليه الصلاة والسلام ، وهن فى بيئة إجتماعية وثقافية تختلف عن سواها ، وفى بيوتهن نتلى آيات اللهوالحكمة ولكنهن بشر ؛ يضايقهن أن يميل الزوج ولو كان النبي إلىضرتها ، وتتمنى كل واحدة أن تحظى ببعلها ولو لجأت إلى ما تنفر منه حين تثوب إلى رشدها ولكن هكذا فطرة الله ولن تجد لها تحويلا.

ومن المؤكد أن المرأة تدرس أخلاق زوجها ، وما يحبه وما يبغضهلترتب على ذلك أمورا وتقدر تقديرا يعجل لها المسرة ، ويستبقى أثر الرجل ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يحب الحلواء والعسل ؛ وكان إذا صلى العصر مر على نسائه يتحدث إليهن ويجلس معهن وكانت ترقب تحركاته ، وترصد إقامته أم المؤمنين عائشة . فرابها أنه تلبث كثيرا لدى حفصة فاهتمت لذلك ، وتحرت ، فعلمت أن قريبة لحفصة أهدت إليها عسلا ، وقدمت منه إلىزوجها وقدرت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما استمرأ هذا فدخلبسببه عند حفصة كثيرا . أو زاد من إهتمامه بها . فأسرت أمرا فى نفسها وقالت : (أماوالله لنحتالن له) ، وأعلمت سودة بنت زمعة ما تضمره — وكان بينهما وفاق وتفاهم — فوافقتها سودة . وأبدت لها إستعدادها فى معاونتها على تنفير زوجهما من عسل حفصة وكذلك أتفقت مع صفية بنت حيي وكان التدبير

---

(١) نسب قريش لأبى عبد الله المصعب ط الثانية . تصحيح وتعليق ليفى بروفنسال — ص ١٠٣ — دار المعارف — القاهرة .

لعائشة . ولذلك تعترف قائلة . قالت : إذا دخل عليك ، فإنه سيدنو منك . فقولى له . يا رسول الله أكلت مغافير — فإنه سيقول لا . فقولى له ما هذه الريح . ؟ .(إلى هذا الحد يبدو الضعف البشرى . وتظهر السيدة الفاضلة خلاف ما تبطن فى سبيل عرض تهتم به ، .

والسيدة عائشة رضى الله عنها . تعرف عن النبى أنه ينفر من الرائحة الكريهة ، ولا يحب أن يشم منه أحد ما يتأذى به . وهى لذلك تحاول أن تؤثر عليه من هذه الناحية . وفيها جانبان . جانب معتاد فى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حبه لطهارة فمه ، ونظافة نكهته ، ومن جانب آخر أنه لدى المرأة أشد تأثيرا ، وأدعى إلى النفور ، فإذا كان حريصا على أن لا يؤذى محدثه فحرصه على عدم إيذاء زوجاته أحب إليه . !! ، وقد عبرت عائشة عن فهمها لنفسية زوجها حين قالت : «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح) .

فلما دخل على سودة كادت تتراجع لولا خوفها من عائشة — وهى تعترف بأنها لم تجسر على الإمتناع (فرقا منك) . ثم جمعت شجاعتها ونفذت ما أمرت به عائشة ، ثم قالته له عائشة وصفية ، فصدق النبى عليه السلام أن رائحة فمه متغيرة كريهة ، وأن ما أكله عند حفصة كان سببا له . ولذا فقد قرر أن يمتنع عن أكله إذ جلب عليه من المضرة أكثر مما كان يرجو من النفع فلما دخل على صفية . قالت له : (يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لى به) . وحرم العسل على نفسه حتى لا يؤذى به نساءه ، وهنا يدور نقاش بين سودة وعائشة .

سودة : سبحان الله . لقد حرمناه !!

عائشة : إسكتى . . (١)

فهذا هو الأنسان مع الحيـــاة ، وتلك زوجـــة رسول الله صلى اللهعليه وسلم . لا تعدو — مع فضلها — أن تكون امراة معتادة مما يألف الناس ، ولا يخرجها ذلك عن وقار النبوة ، ولا أمومة المسلمين ، ولذلك لم يتخذ الرسول بعد كل فعل من هذا القبيل ما من شأنه العقوبة ، لأنه أمر طبيعى فطرى ، لامرية فيه ، ولا يقدح فى نزاهة .

وقد يكون لعائشة عذر فى غيرتها من عسل حفصة ، أما غيرتها من خديجة وهى ميتة فلا عذر لها إلا الطبيعة الضعيفة ، والجبلة الواهنة ، وهى تعترف قائلة : ما غرت على امراة ما غرت على خديجة((٢) . وتضيق ذرعا بذكر زوجها لتلك المراة التى إنتقلت إلى جوار ربها وتقول له فى غضب الثوى مألوف — (كأنه لم يكن فى الدنيا امراة إلا خديجة) . وكأنى بالمراة تريد ان تحصى على الزوج حركاته وسكناته ، وكم تود لو يكفر بالناس جميعا ويؤمن بها ، ويعمى عن الخلق ويراها ، ولا يسمع غير صوتها ، ولا يطيع سواها ، وهذا خلق عام وضعف بشرى يعترى ام المؤمنين كما يعترى أقل امراة من عرض الشارع .

وإن تعجب من هذا فعجب أن تغار عائشة من ترحيب زوجها (بهالة بنت خويلد) اخت خديجة . ولننقل الخبر على لسان عائشة : قالت : استأذنت هالة بنت خويلد — اخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك . ! ! فقال : اللهم هالة .. قالت . ففرت فقلت

---

(١) البخارى جـ ٩ ص ٣٣ ، ٣٤ باب ما يكره من إحتيال المرأة على الزوج ، والضرائر .

(٢) البخارى جـ ٥ ص ٤٨ .

ما تذكر من عجوز من عجائز قريش . حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر . قد ابدلك الله خيرا منها((١) .

والحديث يكشف عن مدى سيطرة الغضب على أم المؤمنين . بأسلوب موجز معرب ، واحب أن أوجز التعليق على بعض نواحى الإثارة . حين دخلت هالة . تقول الرواية — عرف استئذان خديجة — فكأن صوتها مثل صوت أختها — أو تذكر زمناً كان تقدم فيه على أختها — فأثار فى نفسه عليه السلام ذكريات بدت على وجهه وغلبه الحنين . فقال غير مصدق — وهو يرحب — (اللهم هالة) كل هذه العوامل أثارت أم المؤمنين — المرأة . فلم تملك نفسها ، وغلبها الطبع فأطلقت لسانها فى امرأة ميتة . غير عابئة بشعور الزوج ، ولا بمشاعر الوافدة ، ولا بحرمة الموتى . وهذا يوقفنا على أن البشر بشر وإن إختلفت مسمياتهم ، وتنوع التوصيف ، وتباين الدور الذى يقوم به كل منا على مسرح الحياة ...

ولا غرو فى ذلك فالأنسان ينسى بحكم الطبيعة — أحيانا — مهام الدور الذى يقوم به ، فيخرج عن طوره ويتعدى حدوده ، وهذا النسيان من الصفات المركوزة فى الطبع ، فكل منا ينسى ، حتى محمد ينسى وآدم نسى ولم نجد له عزما ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ينبه أصحابه إلى أنه بشر يعتريه ما يعتريهم . (أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى) . وذلك حتى لا يظن الناس أن كل ما يصدر عنه إنما هو وحى فلا يراجع ، فإذا كان الأمر على إعتياده ثم حدث ما يخالفه روجع فيه ونوقش فلربما كان ناسيا ، (واذكر ربك إذا نسيت) ، وفى الحياة العملية كان ينسى رسول الله ، وينسى وهو فى الصلاة فيصلى

---

(١) البخارى ج ٥ ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) الكهف . آية رقم ٢٤ .

الصلاة بزيادة أو نقص ، فقد صلى عليه الصلاة والسلام الظهر خمسا . (فقيل أزيد فى الصلاة . ؟ قال : وماذاك . ؟ قالوا : صليت خمسا . فسجد سجدتين بعدما سلم) . (١)

ومرة صلى ثم سلم بعد ركعتين وانصرف . فقال له صحابى لقبه ذو اليدين (أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ . فقال الرسول : موجها الحديث للناس — أصدق ذو اليدين ؟ فقال الناس : نعم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين آخريين . ثم سلم (٢) ثم كبر ثم سجد — للسهو .

وقد أكد القرآن على هذه البشرية فى محمد عليه الصلاة والسلام : «إنما أنا بشر مثلكم» (٣) . .

والصحابة يقع بينهم الحب والبغض ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب — مثلا — أسامة والسبطين ، وعليا ، ويبغض (وحشيا) قاتل حمزة ، وكان يعجبه حسن الاسم والصوت ، وحسن المرأة ، وكذلك الصحابة ، فكانوا يتباغضون كما يتحابون . (بعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا إلى خالد ليقبض الخمس ، وكنت أبغض عليا — بريدة راوى الحديث — فقلت لخالد : ألا ترى إلى هذا . ؟ . فلما قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له . فقال يا بريدة . أتبغض عليا . ؟ فقلت نعم .» (٤) .

وكانت الصحابة تعرف هذا ، وكل منهم يعرف ماله عند أخيه — فهذا

---

(١) البخارى جـ ٩ ص ١٠٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الكهف آية رقم ١١٠ .
(٤) البخارى جـ ٥ ص ٢٠٧

علی بن أبی طالب یرسل ابن عباس إلی زعیمین من زعماء المعارضة الزبیر بن العوام ، وطلحة بن عبید الله . فیقول لأبن عباس .

ایت الزبیر ، ولا تأت طلحة ، فإن الزبیر ألین ، وإنك تجد طلحة کالثور عاقصا قرنه یرکب الصعوبة ویقول هی أسهل) . (١)

وإذا کان الصحابة یبغضون ففضلهم یعصمهم عن مسایرة الغضب ، والرکون إلی العسف والطیش أما السوقة فهم الذین تحرکهم الأهواء، ویرکبون الشطط ، وتظهر مقدرتهم فی زمن الفتن ؛ ولذلك یقول ابن الزبیر فی تکملة الخبر السابق (فلما کان من الغد حرش بین الناس غوغاؤهم) . ففی هذا الزمن غوغاء ، وحشو ، وسوقة ، ومن کان یری أثرة قریش بالدین ، وأنها تبغی من وراء ذلك قیادة ومکانة ، وأظن أن جل القلاقل التی سادت عصر الصحابة وصدر الأسلام وفترة کبیرة من حکم بنی أمیة کانت لأسباب قبلیة، ونزاعات عربیة قدیمة ، ولذلك حین ساد أمر الضحاك بن قیس — من بنی ذهل بن شیبان — وسیطر علی العراق ، وأم الناس للصلاة ، وصلی خلفه عبد الله بن عمر بن عبد العزیز . قال الشاعر معبرا عن أمنیة غالیة :

ألم تر أن الله أظهـــر دینـــــه   وصلت قریش خاف بکر بن وائل(٢)

ومن هنا نشأ لدیهم — فی عهد الصحابة — تجریح کبار الصحابة، والبحث عن هنات لهم ، ومحاولة إغراء السفهاء بهم ، والتحزب ضدهم . ومن هؤلاء صحابی هو أول من رمی بسهم فی سبیل الله ، وله سابقة فی الأسلام وفضل ، وحین ولاه عمر تمیز بعض الناس من الغیظ ، وأوعت بنو أسد علیه أشیاء یفرط فیها

---

(١) البیان والتبیین ج ٣ ص ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ .

ولذلك يقول فى سخرية حادة (ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى على الأسلام . لقد خبت إذاً وضل عملى) ، ومن أسف أنهم قالوا عن هذا الصحابى الجليل إنه «لا يحسن يصلى» (١) تصور ، صحابى لا يحسن الصلاة ! ! هذا أمر عجيب

ولذا فنحن لا نفاجىء بتلك الحقيقة التى أطلقها عثمان بن عفان رضى الله عنه لما فاض الكيل ، ورأى إنصراف أهل الرأى وتخاذلهم . (لكل أمة آفة ، ولكل نعمة عاهة . وإن آفة هذه الأمة عيابون طعانون . يظهرون لكم ماتحبون ويسرون ما تكرهون . طغام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق . لقد نقموا على ما نقموه على عمر. ولكن قمعهم عمر ووقمهم ، والله إنى لأقرب ناصرا وأعز نفرا ، فضل فضل من مالى ، فمالى لا أفعل فى الفضل ما أشاء . !) (٢) .

وكأنى بالرسول عليه الصلاة والسلام كان يرقب حركة الصحابة ، وما ستؤول إليه حين ذكر حديث الحوض ، حين يسبقهم إلى الحوض فيأتى قوم من أصحابه يبتغون الماء فيتقدم إليهم الرسول بشىء منه فيحال بينهم وبينه ، فيقول أى رب أصحابى فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك .» (٣) ، وهؤلاء الذين خالفوا عن أمر الله وأحدثوا مالم يأمر به هم أصحابه كما سماهم الحديث ، وفى خبر آخر يصف هؤلاء بأنهم (أقوام أعرفهم ويعرفوننى) ...

وعلى هذا فالصحبة — ليست — بالضرورة — عاصمة من الخطأ، وليست قاضية بالعدالة المطلقة ، ولذلك عندما يقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (إنك لا تدرى ما بدلوا بعدك) . يرد قائلا : (سحقا سحقا) . (٤) لمن بدل بعدى .

(١) البخارى ج ٥ ص ٢٨ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٧ .
(٣) البخارى ج ٩ ص ٥٨ كتاب الفتن .
(٤) المصدر السابق ص ٥٩ .

وهذا تؤكده إجابته حذيفة بن اليمان (هل بعد هذا الخير من شر . ؟ . أى هل تعقب هذه الفترة التى نحن فيها فترة يعم فيها الفساد ، وينتشرا السوء . ؟ قال صلى الله عليه وسلم نعم : وفيه دخن ! قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر) . (١)

فالأصل فى الإنسان الضعف وحب الذات ، ثم تأتى الأديان لترفع من شيمه وترتقى به ، ولا يوجد دين من الأديان يستطيع أن يخلص الأنسان من شوائبه ويبرأ به من التهم . وغاية الأمر أن الأحوال تقاس بالسائد الشائع بينهم . فى العصور العظيمة تسود الأخلاق ، وتشيع المكارم — وإن وجدت الرذائل — وفى العصور الضعيفة تسود الرذائل ، وتشيع الفاحشة . وإن وجدت الفضيلة

وفى عصر الصحابة كانت المكارم أعم ، والفضائل أشمل ، وإن وجدت النقائص الطبيعية على قلة الرواية والحرج فى النقل .

أسباب الوضع فى الحديث :

أولا — الخلافة :

بدأ الأختلاف بين المسلمين منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأنصار يتزعمهم سعد بن عبادة سيد الخزرج يجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة للنظر فى الأمر بعد إنتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى .

وبنو هاشم وعلى رأسهم العباس يستطلع الأخبار ، ويحث عليا على معرفة من يلى الأمر ، لأن العباس يعرف الموت فى وجوه بنى هاشم ، ويظهر إلى جانب هذا التجمع أبو سفيان بن حرب .

(١) المصدر السابق ص ٦٥ .

الذى لم يرض عن مبايعة المسلمين لأبى بكر ويروى عنه أنه قال «وقت ذاك «أما والله إنى لأرى عجاجة ما يطفئها غير الدم ، يا لعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم . ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأدلان . ؟ (يعنى عليا والعباس) . ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش) . (١)

ولا يكتفى الرواة بذلك ، بل ينسبون إلى أبى سفيان أبياتا قالها بعد بيعة أبى بكر هى :

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة ، أو عدى
فما الأمر إلا فيكم ، وإليكم ... وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم ... فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى (٢) .

ونحن نشك فى هذا الشعر من حيث نسبته إلى أبى سفيان ، فليس بالشاعر الذى يقول مثل ذلك الشعر ، كما أن الأبيات تعترف إعترافاً صريحاً بأن ولاية الأمر لا تكون إلا لعلى ، فكيف ينازعه معاوية ؟ وكأنى بصانع هذه الأبيات يقول لمعاوية إذا كنت تنازع عليا الأمر فأبوك لا يجد وليا غيره . فالفرق تلجأ إلى تعضيد ما تدعى ولو بافتراء الكذب ، وإذا أجازوا لأنفسهم الكذب فى الأحاديث وإختلاقها . فالشعر أيسر مؤنة ، وأقل نصبا . ثم ما دخل بنى عدى رهط عمر ؟ أظن هذا من صنيع الروافض ...

وهناك الرأى العام للمهاجرين يمثله وفدهم إلى السقيفة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وينتهى الأمر بمبايعة أبى بكر ، وهى فلتة كما وصفها

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ص ٢٢١ جـ ١ — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — دار إحياء التراث العربى .

(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ٧ .

عمر فى حديثه عنها ، وذلك أمر مشهور ومتداول ، وأجلى من أن ننص عليه(١)

ونحن لا نغالى مغالاة بعض المستشرقين الذين يزعمون أنها مؤامرة ، ولا نقول بالإنقسامات الحادة ، ولكن الأختلاف بعد وفاة محمد صلعم أعطى دلالة إلى أنه من الممكن أن يتصدع الصرح الأسلامى ، وأن التفكير لايزال قبليا أو بيئيا ، ولم يرتفع أرتفاع التعاليم الأسلامية أو يسم سمو شمولية الأسلام .

ولا يمكن الأطمئنان إلى النتائج التى أسفرت عنها الخلافة فلم تبت المنازعات وأن طفت عليها ، ولم تقض على الفرقة وأن ارتفعت فوقها ، وهذا شأن أى مجتمع إنسانى حيث لا يوجد فيه الرضا المطلق ، ولا يتحقق الاستقرار التام ، وإنما الأمور بما يغلب عليها .

ولو أننا أنعمنا النظر لتبين لنا أن جل الفرق الأسلامية إنما إفترقت حول مشكلة الخلافة ، فمنهم من يقصرها على قريش ، ومنهم من يضيق فلا يقبل إلا علويا فاطميا ، ومنهم من يبتغى علويا فقط ، ومنهم من ينشدها فى العرب ومنهم من يجعلها حقاً لكل مسلم ، عادل تتحقق فيه شروط خاصة . يقول أبو الحسن الأشعرى (إختلف الناس بعد نبيهم — صلى الله عليه وسلم — فى أشياء كثيرة ضلل بعضهم بعضا ، وبرىء بعضهم من بعض ، فصاروا فرقا متباينين) (٢) .

ومن هذه الفرق :

---

(١) يراجع كتب (النظريات السياسية(د. محمد ضياء الدين الريس ، ففيه مناقشة لرأى المستشرقين حول الخلافة .

(٢) مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين ص ٣٤ — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — مكتبة النهضة ط ٢ ١٩٦٩ — القاهرة .

الشيعة :

ويطلق مصطلح الشيعة على الذين يناصرون على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولم يكن لهم التأثير الواضح فى بداية الأختلاف ، وإن حاول علماؤهم الإيهام بقوتهم ، وإمتداد جذورهم فى عهد النبوة (١) .

ولذلك فقد قسم بعض أشياخهم القوى التى تحركت عقب وفاة محمد صلعم إلى أحزاب خمسة (٢) :

١ — حزب سعد بن عبادة .

٢ — حزب أبى بكر وعمر .

٣ — حزب على ومعه بنو هاشم .

٤ — حزب عثمان .

٥ — حزب سعد بن أبى وقاص .

ونحن لا نمنع أحدا من حب أحد ، فالنفوس جنود مجندة ماتآلف منها ائتلف ، وما تناكر منها إختلف ، وإنما نعيب أن يتخذ الحب ذريعة إلى مآرب وسبيلا إلى غايات ، وخلاصة رأى الشيعة أن الخلافة تكون بالنص ، وقد نص رسول الله على الإمام على كرم الله وجهه ، فانصرف الناس عنه . ولهم فى ذلك أحاديث تروى ، وأخبار تحفظ .

ولما كان هذا القول لا يسلم به كافة الناس فقد رغبوا (المشايعون لعلى فى تدعيم فكرتهم السياسية بأحاديث كثيرة ، واتخذوا لذلك — فى نظرى — وسائل ثلاثة :

(١) راجع الشيعة فى الميزان . محمد جواد مغنية — دار التعاون — بيروت .

(٢) أعيان الشيعة ونقض الوشيعة للسيد محسن الأمين جـ ١ ص ٣٠٨ ط ١٩٦٠ م .

الأولى : وضع الأحاديث التى تخدم أفكارهم العامة ، وتقوى إتجاههم السياسى

الثانية : وضع الأحاديث فى فضائل على ، وذكر مآثره .

الثالثة : وضع الأحاديث فى ذم كبار الصحابة للغض من مكانتهم ، والحط من قدرهم .

وجل الأحاديث التى نبه عليها علماء الحديث إنما تصنيفها وإرجاعها إلى هذه المضامين الثلاثة .

ومن العجيب أنهم جمعوا النعوت التى عرف بها كبار الصحابةفألصقوها بعلى ، ولما كان اهتمام المسلمين بالسند ، فقد أتوا بمتن غريب مرفوع الأسناد عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى : «أنت أول من آمن بى ، وأنت أول من يصافحنى يوم القيامة ، وأنت الصديق الأكبر ، وأنت الفاروق تفرق بين الحق والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين» (١) .

فعلى قد جمع كافة الفضائل ، وحاز كل مكرمة ، فله السبق فى كل شىء ، وإذا كان أبو بكر صديقا فعلى الصديق الأكبر ، وإذا كان عمر فاروقا فعلى كذلك ، فقد جمع أفضالهم وأربى عليها .

ولقد راجعت هذا الحديث لأنه مخالف لمألوف عادة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففيه إسراف فى المديح ، واطناب فى تعديد المزايا ، ومباهاة فى الذكر فوجدت الشوكانى يدرجه ضمن الأحاديث الموضوعة ، ويقول عنه : «رواه البزار عن أبى ذر مرفوعا ، وفى إسناده محمد بن عبد الله بن أبى رافع متهم ، وعباد : ضعيف رافضى» (٢) .

---

(١) الشيعة فى الميزان ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٤٥ — تحقيق عبد الرحمن المعلمى اليمانى الطبعة الأولى ١٩٦٠ — القاهرة — ٣ —

ومما يدل على أن لغة الحديث بعيدة عن لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني وجدت هذا المتن مرويا على لسان الأمام على رضى الله عنه يقول عن نفسه (أنا الصديق الأكبر ، وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس.. الخ» (١) ، ولعل هذا القول ورد على لسان على فى مقام محاجة بينه وبين خصومه فأباح لنفسه أن يعدد مزاياه . فصيغة الخبر تنبىء عن محاورة ، وتركيب الصيغ يكشف عن خصومة استدعت إطلاق مثل هذه النعوت . ولذا فهذا القول لا نطمئن إليه على أنه حديث ، ونشك فى وروده عن الأمام على إلا فى حالة نفسية بالغة الصعوبة .

ويلاحظ أن هناك تطورا فى عقيدة الشيعة ، وفى هذا ما يجعلنا نتشكك فى أحاديثهم ونواياهم ، فالعقيدة ذات المصدر الواحد لا تختلف وتتباين ، فليست الشيعة على رأى واحد ، وإنما ينقسمون إلى أقسام رئيسية كبيرة هى :
— غالية الشيعة . ٢ — الرافضة (الأمامية) ٣ — الزيدية .
وهى تضم فيما بينها خمسا وأربعين فرقة .

وهذه الفرق ليست على كلمة سواء ، فالغالية خمس عشر فرقة ، والرافضة أربع وعشرون فرقة ، والزيدية ست فرق (٢) . وعدد فرق الشيعة عند الشاطبى اثنتان وأربعون فرقة (٣) .

وأقرب الفكر الشيعى إلى المذهب السنى هو الفكر الزيدى الذى يقول بجواز امامة المفضول ليجد مبررا لخلافة أبى بكر وعمر وغيرهما فهم يسلمون

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٣٠ .
(٢) مقالات الاسلاميين لأبى الحسن الأشعرى ص ١٤٠ جـ ١ — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط ٢ — مكتبة النهضة — القاهرة ١٩٦٩ م .
(٣) الأعتصام جـ ٢ ص ٢١٩ .

بأحقية على ، ولكن يجوز أن يتقدم من هو أقل فضلا على الذى يسبقه فى الفضل ، وهذا الأمر جائز فى السياسة والعبادة ، وهم بذلك لا يسبون أبا بكر ولا عمر ، ويرضون بحكمها . أما غالبية الشيعة فآراؤهم لا يعتد بها معتد من المفكرين إلا من والاهم ، وآمن بمذهبهم ، وربما كانت الأمامية هى الفرقة التى أثرت تأثيرا كبير فى حركة الفكر الأسلامى وتاريخه ، وهم يمتازون بالنشاط ، ويأخذون بالحيطة . (التقية) .

ويمكن إيجاز حركتهم فى النقاط التالية :

أولا :

الخلافة بالنص ، وقد نص الرسول صلى الله عليه وسلم على على وعندهم أحاديث تروى صحت لديهم ؛ وغدت حجة لا تقبل ردا ، ولا نقاشا .

ثانيا :

لا يترك الأمر للجمهور بل لابد لكل خليفة من النص على تعيين من يخلفه وإلا فالجمهور يصبح أولى بالفضل من الأمام وذلك مرفوض عندهم لأنهم يخلطون بين الحكم الزمانى والقدر الألهى فى الحاكم وهم متفقون فيما بينهم على :

١ ــ الأمام على بن أبى طالب ت ٤٠ .

٢ ــ الأمام الحسن بن على ت ٥٠ هـ .

٣ ــ الأمام الحسين ت ٦١ هـ .

٤ ــ الأمام على بن الحسين زين العابدين ت ٩٥ هـ .

٥ ــ الأمام محمد بن على (الأمام الباقر) ت ١٠١٤ هـ

٦ ــ الأمام جعفر بن محمد الصادق ت ١٤٨ هـ .

فالرافضة متفقون على هؤلاء ثم يأتى الأختلاف بعد الأمام جعفر ــ فالاثنا عشرية تقول بأمامة ابنه :

٧ — الأمام موسى الكاظم ت ١٨٣ هـ .

والفاطميون يختلفون حول هذا الأمام فأمامهم اسماعيل بن جعفر الأبن الأكبر ولذلك عرفوا بالإسماعيلية ويخرجون على جمهور الشيعة ، وأما بقية الأئمة عند الروافض فهم :

٨ — على الرضا ت ٢٠٢ هـ .

٩ — الأمام محمد الجواد ت ٢٢٠ هـ :

١٠ — الأمام على الهادى ت ٢٥٤ هـ .

١١ — الأمام الحسن العسكرى ت ٢٦٠ هـ .

١٢ — محمد بن الحسن (المهدى) غاب فى ٣٠٢ هـ .

ولم تدع الرافضة وسيلة لأثبات رأيهم إلا أتوا بها وأكدوها ، فبعضهم يدعى أن عدد الشيعة من كبار الصحابة كان أكثر من مائة (١) ، بينما نجد محمد الحسين آل كاشف الغطاء يرتفع بالعدد فيقول : «زهاء ثلاثمائة رجل من عظماء النبى كلهم من الشيعة (٢) .

ولا بد أن يكون فى الكلام حذف ولعل مراده من عظماء صحابة النبى لا (عظماء النبى) كما جاء فى قوله .

ولما كان جل الصحابة لا يقرونهم على عقيدتهم ورأيهم فقد رفضوا أحاديثهم واتخذوا لأنفسهم رواة ومحدثين ، أو بمعنى آخر فهم يرفضون كل من لم يناصر عليا ، فضلا عن نصير معاوية ، ويتهمون كبار الصحابة بالكذب والوضع وعلى رأسهم أبو هريرة ، وعائشة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ..

---

(١) الكشكول فيما جرى لآل الرسول . للسيد حيدر الآملى .

(٢) أصل الشيعة وأصولها ص ٣٤ — مؤسسة الأعلى للمطبوعات — بيروت .

وقد اقتضى هذا منهم أن يتخذوا فى أحاديثهم الخطوات التالية :

١ — لا يأخذون العلم إلا عن آل البيت (الأئمة) .

٢ — لا يأخذون عن صحابى لم يشايع عليا علنا .

٣ — لا يأخذون عن صحابى كان ضد حركة الشيعة .

ولما كان حصيلة ما ثبت من أحاديثهم قليلة فلابد من تكثيرها بالوضع والكذب ، وهذا شأن العامة لا يهمهم إلا أن يكون صاحب القول من يثق فيه ، ولا يهمه — بعد ذلك — ما تضمنه ولا يعنيه فى شىء محتواه .

فهم لذلك لا يقدرون البخارى ومسلما ، ولا الكتب الصحيحة عند باقى الفرق ، ولهم كتبهم ومحدثوهم .

والشيعة ترى أن كل فضل نشأ فى الأسلام فإنما كان من آثارهم فمؤسسو علوم الأسلام منهم كأبى الأسود الدؤلى مؤسس علم النحو ، والخليل مؤسس العروض وعلم اللغة ، والهراء الكوفى مؤسس علم الصرف ، وعبد الله بن عباس مؤسس علم التفسير ، وأول من جمع علوم القرآن محمد بن عمر الواقدى ، ومؤسس علم الحديث أبو رافع مولى رسول الله صلعم ، بل تكاد الجنة لا ترى إلا عليا وشيعته فهم ينسبون إلى النبى صلعم أنه قال لعلى : «أنت وشيعتك فى الجنة» ، ومن عجب أن الرسول صلعم يذكر الشيعة وينص عليها ولا يقف الأمر عند هذا بل يقول الرسول صلعم لعلى : «يا على إن الله قد غفر لك ولذريتك ولوالديك ولأهلك ولشيعتك ولمحبى شيعتك» (١) . واضح من هذا القول أن المقصود من ورائه الترويج للشيعة ، وحمل العامة على مآزرتها ، وذلك بالترغيب ، فمن يستنكف أن يحبه الله ؟ ومن يرفض أن

---

(١) راجع الشوكانى فى أحاديث على من ص ٣٤٢ إلى ٣٨٤ .

يغفر له ربه ؟ ولا سيما والسبيل إلى ذلك سهلة أما التشيع أوحب الشيعة ، وقد وقر ذلك فى أخلاد العامة ، فندر أن تجد مسلما لا يحب الشيعة » . وهذا مكسب سياسى ، وإمتداد شعبى ، وتغلغل فى طبقات شتى ، وذلك ناشىء عن بصر الدعاة بنفسية الشعوب العربية والأسلامية .

ومن هنا فمن الممكن الزعم بأن الأسلام هو التشيع ، وهذا غير خفى على من يقرأ التراث الشيعى ، بل أن عليا من أعلامهم يقول : «أن أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الأسلام هو نفس صاحب الشريعة الأسلامية» (١) . فبذرة الأسلام وضعت مع بذرة التشيع فى وقت واحد ومن مصدر واحد . !

ولهم مصطلحات فى الحديث هى :

(١) الحديث الصحيح : ما رواه ثقه .

(٢) الحديث الحسن : ما رواه شيعى مستور الحال لم يجرحه أحد.

(٣) الموثق : ما رواه سنى ثقه .

(٤) الضعيف : مالم تتوفر فيه هذه الشروط .

ولهذا فللشيعة كتب فى الحديث تختص بهم ، وتقتصر عليهم أشهرها :

١ — الكافى :

تأليف الشيخ محمد بن يعقوب الكلينى ت ٣٢٨ هـ .

وهذا الكتاب ألفه الكلينى فى عشرين سنة ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأصول والفروع والروضة ، وهو أجل الكتب عندهم ويشتمل على ١٦٠٩٩ حديثا (٢) قسمها الشيخ يوسف البحرانى إلى :

---

(١) أصل الشيعة فى الميزان ص ٤٣ .
(٢) والشيعه فى الميزان ص ٣١٧ .

الحديث الصحيح	: ٥٠٧٢
الموثـــق	: ٣٠٢
الحسن	: ١١١٨
الضعيف	: ٩٤٨٥ (١)

فكان مجموعهما عنده ١٦١٢١ ، وهذا يختلف عن الرقم السابق ، ويختلف عن مجموع الأعداد السابقة فمجموعها ١٥٩٧٧ .

٢ — من لا يحضره الفقيه :

تأليف الشيخ على بن الحسن القمى ت ٣٨١ هـ الملقب (بالشيخ الصدوق) لم ير فى القميين مثله فى حفظه وكثرة علمه له نحو ثلاثمائة مصنف .

وقد اقتبس اسم كتابه من الطبيب العربى محمد بن زكريا الرازى حيث سمى كتابا له باسم (من لا يحضره الطبيب) .

وأحاديثه المسندة ٣٩١٣ والمرسلة ٢٠٥٠ ومجموعهما ٥٩٦٣ حديثا .

وإن كان صاحب الشيعة فى الميزان عد مجموع أحاديثه ٩٠٤٤ حديثا .

وكان للشيخ الصدوق مكانة عند العلماء عامة ، فقد أشاد به النووى لزيادة حفظه وحسن ضبطه وتثبته .

وهناك ميزة يمتاز بها فهو لا يروى كأصحابه كل ما يصل إليه ، وإنما ما يصح عنده ولذلك قل حديثه عن الكلينى ، وقد أشار النووى إلى هذا «لم يقصدفيه قصد المصنفين فى إيراد جميع ماأووردوا وإنما يورد فيه ما يفتى به ،

---

(١) الحديث عند الشيعة بقلم العلامة المحقق السيد / محمد حسين الجلالى ص ٢٠ ، ط أولى ١٩٧٥ م القاهرة .

ويحكم بصحته ، ويعتقد أنه حجة بينه وبين ربه» (١) .

٣ — تهذيب الأحكام :

تأليف شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسى ت ٤٦٠ هـ وهو شيخ جليل القدر ، ثقة ، قال عنه صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة : «أحد الكتب الأربعة المعول عليها عند الأصحاب من لدن تأليفها حتى اليوم»(٢) .

وهو يحتوى على ٩٣ بابا ومجموع أحاديثه ١٢٥٩٠ حديثا (٣) .

٤ — الأستبصار :

للشيخ الطوسى أيضا .

وقد ركز فيه الشيخ على ذكر ما اختلف فيه من الأخبار ، وطريقةالجمع بينها ، وقصره على أبواب الفقه من العبادات والمعاملات ، وفيه ٩١٥ بابا ومجموع أحاديثه ٥٥٢١٠ حديثا .

فالأمامية لهم حديث يختلف عن منهج حديث أهل السنة ، وفقههم يختلف كذلك (٤) ، وقد كان لهم تأثير كبير — كما قلت — فى الحركة التاريخية للمجتمع الأسلامى ، ويكفى أنهم إشتركوا فى جل التطورات التى صاحبت العصر الأموى ، وفى العباسى ظهرت لهم دول شيعية إلى جانب الخلافةالعباسية (اسما) فى بغداد ، ومن دولهم (الادارسة ، والفاطمية) فى شمال أفريقية ، والعلويون، والبويهيون ، والحمدانيون فى شرق العالم العربى ، كل هذه دول

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الذريعة جـ ٤ ص ٥٠ للشيخ يوسف البحرانى .

(٣) لؤلؤة البحرين ص ٣٩٦ طبعة النجف الأشرف — العراق .

(٤) يراجع ما كتبه ابن الجوزى فى نقد العلم والعلماء ص ٩٦ .

شيعية ومنها الآن دولة ايران بزعامة حجة الله آية الله الخميني . وأكثر الحركات المناوئة منهم ، مثل الباطنية ، والقرامطة ، والدروز ، والخرمية ، والبهائية والبهرة» ، وغير ذلك .

ومن أحاديثهم التي تخدم فكرتهم العامة أحاديث الوصية ، وغدير خم ، وموالاة على فقط ، ومنها أن رسول الله صلعم قال لعلى حين خرج إلى تبوك وخلف عليا على المدينة فاعترض على قائلا «تخلفنى مع النساء والصبيان» ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إن المدينة لا تصلح إلا بى أو بك ، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى رواه ابن حبان عن سعد بن أبى وقاص ، وقال «باطل فى إسناده حفص بن عمر كذاب يحدث عن الأئمة بالبواطيل» (١) .

ومنه قول محمد صلعم عن على (وصيى وموضع سرى ، وخليفتى فى أهلى ، وخير من أخلف بعدى على «أكثر رواته مجهولون وضعفاء ، وقال الجوزقانى : باطل لا أصل له .

وروى الأزدى بلفظ : «سئل صلعم من وصيه ؟ .. فقال : «من كان وصى موسى ؟ .. قال : يوشع .. قال : فإن وصيى ووارثى يقضى دينى ، وينجز موعدى وخير من أخلف بعدى على «وفى رواية» وصيى على بن أبى طالب» .. قال الأمام الذهبى فى ميزان الأعتدال : هذا كذب ، وهذا أثر من آثار الديانات القديمة ، وتجد شيئا من ذلك لدى الديانة المصرية القديمة ، وديانة الفرس ، وفى اليهودية ؛ مثلا .

أما الأحاديث فى فضل على فكثيرة ، منها أن النبى صلعم قال : «أسمى

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٥٧ ، ولعلها (بالأباطيل.)

فى القرآن» والشمس وضحاها «واسم على«والقمر إذا تلاها» واسم الحسن «والنهار إذا جلاها» واسم بنى أمية «والليل إذا يغشاها» (١) وهو حديث موضوع ، وقال الذهبى هذا خبر كذب . فهذا قول واه ، ومعنى سوقى ساذج ، لا يصدر عن إنسان يعى .

وحديث أنه نزلت فى على ثلاثمائة آية (٢) فى إسناده متروكان،وضعيف وقال عنه ابن الجوزى موضوع ومن معجزات على رضى الله عنه أن الشمس غابت ففاتته صلاة العصر فردت له الشمس وهذا أثر من الديانات السابقة ، وهو من الأساطير التى تنسب إلى يوشع بن نون ، ومن كرامات السيدةفاطمة أنها أغتبسلت ثم ماتت ، وأوصت أن تكتفى بذلك الغسل ، ويقول الأمام أبو الفرج ابن الجوزى فى «تلبيس إبليس» وهذا من حيث النقل كذب ، ومن حيث المعنى قلة فهم ، لأن الغسل عن حدث الموت فكيف يصح قبله» (٣) .

وكذلك حديث «على خير البرية» وكيف يصح مثل هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع بخيرية على على كافة الخلق ، — ، وهذا فضلا عن مباينته لما عرف عن رسول الله من رقة القول ولطف العبارة ، — يؤرث العداوة ، ويخلق التحاسد ، ويدفع إلى التنابذ ويجعل الناس كبار الصحابة كسالى لا ينشطون إلى عرف ، ولا يخفون لمكرمة ، فقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بالسبق ، وحكم له بالخيرية .. ! و «أنا مدينة العلم وعلى بابها» (٤) ، وفى هذا القول ما يفيد بأن كل سبيل يؤدى إلى معرفة أحوال

---

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(٣) ص ٩٦ .

(٤) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣٤٨ .

صاحب الشريعة غير سبيل على فهو باطل — وهذا أسلوب تصويرى يناسب عقول الناس فى عصور لاحقة عن عهد الصحابة ، فلم يعرف عهد الرسول المدينة ذات الأبواب وإنما تلك وسيلة دفاعية انتشرت بعد ذلك ، فالقرى الصحراوية مفتوحة إلا إذا تحصنت بحصون طبيعية ، وهذا يجعلنا نشك فى زمن هذا الحديث . وفيه إيعاز بأن غير على من الصحابة قد لا يصلون بالتابع لهم إلى دخول مدينة الرسول إذ ليس لها من باب سوى باب على ..وفى هذا حجر وتضييق للرسالة وصاحبها ، . ـو «النظر إلى على عبادة» (١) و «من مات وفى قلبه بغض لعلى بن أبى طالب فليمت يهوديا أو نصرانيا» (٢) ، وقد روينا قبل ذلك حديثا فى البخارى أن صحابيا قال للرسول عليه السلام إنه يبغض عليا ولم يكفره . وهناك جماعة من الرواة الثقات كانوا من (الناصبة) أى الذين يبغضون عليا ، وروى لهم الأمام البخارى (٣) ، و «من أحب فياحب عليا ، ومن أبغض عليا فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله ، ومن أبغض الله أدخله النار» (٤) .

ويبلغ الحمق بذكر الفضائل أن يذكروا لأمير المؤمنين مالا يجوز له ، ولا يليق بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فمن الشائع أن عليا لم ير عورته ، ومن المألوف أن محمدا صلعم كان من أشد الناس حياء ، فكيف يتسنى لأولاء القوم أنهم يروون أن الرسول صلعم يقول : «لا يحل لمسلم أن يرى تجردى وعورتى إلا على» (٥) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٣ .
(٣) تدريب الراوى جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٨٣ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٧٨ .

فهل هذا يليق بهما ، وإذا كانت ترى عورة رسول الله أو يتجرد أمام أحد فأولى بذلك نساؤه ، وهذا القول السابق لا يحل الرؤية لغير على ، وهذا أمر بالغ الغرابة والوقاحة ، ولقد صدق ابن الجوزى فى قوله وغلو الرافضة فى حب على حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله تشينه وتؤذيه(١)

ومن البين أن محمد عليه الصلاة والسلام حين أبصر أعرابيا يبول فى المسجد وعظه موعظة حسنة ونهاه عن العودة لمثل ما صنع ، فإذا كان لايليق ولا يصح للمسلم أن يبول فى المسجد (فى غير مكان البول) فكيف يبيح النبى لنفسه ولعلى هذا الفعل الفاضح «لا يحل لأحد أن يجنب فى المسجد غيرى وغيرك» (٢) . ؟ .

فانظر كيف جر حب التكثر بالفضائل ؟ .. ومحاولة إظهار تفوق على ، ومدى الجهل فى الأتباع ، والحمق فى الحب ... محمد أتقانا لله لا يحل لأحد أن يبول فى المسجد ويجنب فيه هو وعلى ، فأية مكرمة هذه ؟ .. وأى فضل فى ذلك ؟ .. ! ! إن هذا لشيء عجاب.

وهذا الكذب فى أحاديث الفضائل أشار إليه عالم شيعى هو ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغة» (٣) «أن أصل الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة» .

وصدق ابن الجوزى حين قال : «فضائل على الصحيحة كثيرة غير أن الرافضة لا تقنع ، فوضعت له ما يضع لا ما يرفع» (٤) .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٩٦ .
(٢) الفوائد المجموعة ص ٣٦٦ .
(٣) شرح نهج البلاغة جـ ٣ ص ٢٦ .
(٤) المنتقى من منهاج الأعتدال ص ٤٨٠ .

أما الأحاديث التي وضعوها للطعن في قدر الصحابة فكثيرة ، فكما اختلقوا القول في فضائل الأمام علي حتى وصلت إلى ثلاثمائة ألف حديث — على خد تعبير الخليلي في الأرشاد — (١) وهي مبالغة منه ، غير أنها تدل على مبلغ تكثرهم وإفراطهم في ذلك — أكثروا من مذمة الصحابة فوضعوا الأحاديث التي تنافي أخلاق رسول الله صلعم مثل «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه (٢)

أو ما يفترون من الأباطيل مثل أن يرسل صحابي قنفذا إلى بيت فاطمة بغية الإيذاء والإخافة أو أن يضغطها عمر بالباب وقد إستنكر ذلك ابن أبي الحديد وهو شيعي فقال : «فأما الأمور المستبشعة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج وذكر كثيرا من المثالب ثم قال : فكل ذلك لا أصل له عند أصحابنا ، ولا يثبته أحد منهم ولا رواه أهل الحديث ، ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله» (٣) . ويصفهم الخبز أرزي بأنهم واهون لا يرجعون إلى حجة ولا دليل .

من غايت الأخبار عنه ودينه   دين الأمامة قال بالأوهام .

وشهرة الروافض بالكذب معلومة لدى العلماء ، ويقول الأمام ابن تيمية «وكذب الرافضة مما يضرب به المثل» (٤) . ويقول الجاحظ في رسالة حجج النبوة (إن الروافض ليست منا بسبيل ، لأن من كان أذانه غير أذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجته غير حجتنا ،

(١) راجع إرشاد الفحول للشوكاني طبعة البابي الحلبي — القاهرة .
(٢) الفوائد المجموعة ص ٤٠٧ .
(٣) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٤) منهاج الإعتدال ص ٤٨٠

وفقهاؤه غير فقهائنا ، وإمامه غير إمامنا ، وقراءته غير قراءتنا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا) (١) .

ونحن لا نبالغ هذه المبالغة ، ولا ندعو إلى هذه القطيعة ، وإنما نريد أن ننبه شبابنا إلى وجود خلاف واضح بين الشيعة وغيرهم يرجع إلى أسباب سياسية وعنصرية ونفسية ، وما الحرب الدائرة فى أيامنا هذه بين العراق ، وإيران وهما قطران إسلاميان إلا ومن ورائها الأسباب الخفية التى تحرك مشاعر الحقد ، وتبعث أسباب الخلاف من جديد .

وكان العلماء لا يجيزون الأخذ عن أهل الأهواء والنحل ، وحتى المجيز من العلماء لم يبح الأخذ عن الرافضة لأنهم يتخذون الكذب وسيلة لمذهبهم ، ولا يرون فى الكذب حرمة «وذهبت طائفة من أهل العلم إلى قبول أخبار أهل الأهواء الذين لا يعرف منهم إستحلال الكذب والشهادة لمن وافقهم بما ليس عندهم فيه شهادة ، وممن قال بهذا القول من الفقهاء أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى» (٢) .

وهذا مذهب ابن أبى ليلى ، وسفيان الثورى ، وروى عن أبى يوسف صاحب أبى حنيفة وقال الخطيب البغدادى وصدق «كل صاحب هوى يكذب ولا يبالى» (٣) ، ومن التنبيهات الهامة التى تنبه عليها السيوطى قوله «الصواب أنه لا يقبل رواية الرافضة» (٤) . ، ولما كان موطن الشيعة العراق فقد ساءت سمعته فى الحديث وكان يسمى (دار الضرب) .

---

(١) رسائل الجاحظ جـ ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ — تحقيق عبد السلام هارون — مطبعة الخانجى ط ١

(٢) الكفاية فى علم الرواية ص ١٢٠ وقول الشافعى نص على الرافضة ، وقال «لم أر أشهد بالزور من الرافضة» راجع تدريب الراوى جـ ١ ص ٣٢٧

(٣) الكفاية جـ ١ ص ١٢٣ .

(٤) تدريب الراوى جـ ١ ص ٣٢٦ .

وقد أثر هذا الوضع فى اختلاق أقوال تنسب إلى رسول الله فى مدح معاوية وهذا رد فعل لصنيع الشيعة . فقد ذهب جماعة من بنى هاشم وسألوا رسول الله صلعم أن يحول الكتابة من معاوية ، فنزل الوحى باختياره (١) .

وحديث أنه صلى الله عليه وسلم أخذ القلم من يد على فدفعه إلى معاوية(٢) وحديث «الأمناء عند الله ثلاثة أنا وجبريل ومعاوية» (٣) .

وهذا الموقف المغالى جعل الناس ينقسمون فمنهم الذى لا يقدح ولا ينتقض ، وإنما يفوض الأمر إلى الله . ويقول يزيد بن أبى بكر بن دأب معبرا عن لسان حالهم :

الله يعلم فى على علمه   وكذاك علم الله فى عثمان

ومنهم الذى ينتقص عليا ، ويروى عنه مثالب ومعايب ، ومن هؤلاء أبو هريرة الذى قال (أشهد بالله أن عليا أحدث فيها) أى المدينة (٤) . فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاه ولاية المدينة (٥) .

وكان ابن الزبير (عبد الله) يبغض عليا وينتقصه ، وينال من عرضه (٦). وفى ذلك العهد كان سب على وحزبه على منابر الأسلام سنة ، وظل الناس على تلك العادة حتى أزالها عمر بن عبد العزيز — ولم يسلم على من الخليفة الذى يلحن فى نطقه الوليد بن عبد الملك فقداتهم عليا بأنه لص بن لص قال فى

---

(١) الأحاديث الموضوعة ص ١٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ .
(٣) الأحاديث الموضوعة ص ٤٠٤ .
(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٠ .
(٥) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٦٧ .
(٦) المرجع السابق ص ٦١ .

أسلوب ركيك — (لعنه الله — بكسر الهاء — كان لص بن لص) فعجب الناس من لحنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومن نسبته عليا عليه السلام إلى اللصوصية ، وقالوا ما ندرى أيها أعجب ! (١) .

فيجب أن نفطن ونحن نقرأ الأحاديث إلى هذه الموضوعات التى روج لها الشيعة ودارت حولها مساجلات ، وتأثرت بالسياسة والسيادة ، والعصبية ، وأزكتها نيران القتال والبغضاء ، ولقد قلت فى بداية الحديث ان الشيعة أكثر نشاطا وحركة من غيرهم ويؤمنون بالتقية ، فمن الممكن أن يظهر أحدهم غير ما يعتقد ليلبس على الناس أمرهم ثم ينوب بعد ذلك إلى رشده .

ويجب أن ننبه إلى أن إنتشارهم العددى ، ونفوذهم السياسى فى عصور الأزدهار الأدبى قد أدى إلى تقبل بعض آرائهم أو تحويرها ، فقد دخل الناس إلا ما ندر فى نحلتهم ولا سيما فى العصر العباسى ، فجل الشعراء من الشيعة ، فالمتنبى وأبو تمام وأبو العلاء ، وابن الرومى ودعبل وأبو فراس ، وهذا ما قاله أحد أعلامهم عن شعراء القرن الثانى والثالث «فجل شعراء الدولة العباسية كانوا من الشيعة عدا مروان بن أبى حفصة وأولاده» (٢) ، ويبالغ فيقول : «وبالجملة فأكثر شعراء يتيمة الدهر للثعالبى من الشيعة حتى أشتهر وشاع هل ترى من أديب غير شيعى» (٣) .

وهذه قضية خطيرة فلسنا ننسب الشاعر إلى نحلة لأنه ذكر كربلاء ودم الحسين ؟ ، فقد يذكر ذلك عن موقف خلقى ونفسى ولا يعنى ذلك أنه شيعى

---

(١) شرح نهج البلاغة ص ٥٧
(٢) أصل الشيعة وأصولها ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

يؤمن بما لديهم ، وقد يذكر ذلك تقربا إلى الممدوح ، أو تملقا للعامة ، أو كسبا للشهرة والذيوع لاسيما بين أوساط يغلب عليها التشيع . ولذا فأنا أشك فى أن جل الشعراء من الشيعة . وإن ورد فى شعرهم ما يحمل دلالة شيعية .

ولو سلمنا بمقولة الشيعة لاعتقد المسيحيون أن كثيرا من شعراء المسلمين على دينهم لذكرهم بعض الألفاظ المسيحية ، والمواقف الدينيهم لديهم.وليس على مثل هذه السهولة يحكم على الناس .وإنما توسعت فى الشيعة لأننى أعلم مدى تعلق الطلاب بما ينفثه أصحاب الدعاية للأمام الخمينى فى أيامنا هذه ، فيجب ألا نخلط بين المظهر والحقيقة ، فالشيعة عرفت بالكذب وإتهمت بالوضع ، وهذا الأمر دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

أما الخوارج فلا يعرف عنهم الوضع فى الحديث ، وذلك للأمور الآتية :

١ — ضيق النظرة العامة .

٢ — عدم تطور آرائهم وتشعبها .

٣ — الألتزام الحرفى بالقرآن الكريم .

٤ — الأعتماد على الأعراب والمتبدين وخاصة بنى عميم من تميم .

٥ — التأئى عن المناقشة والحوار .

٦ — مجافاتهم للمجتمع ، وانصرافهم عن الصحابة الذين يروون الحديث وكذلك التابعين .

وهذا مادحض ما أخذه بعض العلماء على الأمام البخارى إذ روى عن زعيم خارجى هو عمر بن حطان وهو من الدعاة فقد قال أبو داود «ليس فى أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج» (١) .

---

(١) تدريب الراوى جـ ١ ص ٣٢٦ .

ثانيا — أعداء الأسلام :

ويندرج تحت هذا العنوان كل من يضمر للأسلام ، ويعمل على تقويضه سواء أبدا فى صورة زنديق مستهتر أو ملحد مجاهر ، أو منافق يظهر الأسلام ويبطن غيره من العقائد والملل .

وهذه الفئات لا تنشط إلا فى تربة مهيئة وجو مناسب ، أما حين تكون الدولة قوية والسلطان قاهر والعدل ظاهر ، فأنها لا تجرؤ أن تشرئب بأعناقها ، ولا يمكن القطع بأن كل الذين دخلوا فى الأسلام كانوا من أوليائه ، وهؤلاء الأعداد ليسوا من جنس واحد ، فمنهم العربى وغير العربى ، وغير العربى متأثر بما اعتقده سلفا من زراد شتية ، وما نوية ومزدكية ، أو تأثر بالنصرانية واليهودية ، أو بالفلسفات القديمة من يونانية ورومانية أو عقائد عربية قديمة لم يمح الأسلام أثرها وأن طفا عليها فى الظاهر .

ولاشك فى أن الجو العام الذى ساد المسلمين من وقوع كبار قياداتهم فى الفتنة والفجور فى الخصومة ، والتعصب الذى لا يعرف إلى العقل سبيلا ، كل ذلك وغيره جرأ أعداء الأسلام عليه ، ونزع من نفوسهم هيبته ، ولم يخشوا منه شيئا ، فكانت أحاديثهم تدور حول ما يأتى :—

١ — الأستهتار برسوم الأسلام ومظاهره .

٢ — إشاعة الفساد وإظهار المجون ، والتحلى بشيم الفسق .

٣ — تعضيد مفاهيمهم العامة ، وتأييد أفكارهم .

٤ — التلبيس على الناس حتى لا يظهر الحق من الباطل .

وهذه الفئة وجدت بذورها بهذا المعنى (عداوة الأسلام) منذ بدأ الأسلام وقويت مع الفتنة وبسقت وكثر أتباعها فى نهاية العصر الأموى وما تلاه .

ولما كانوا لا يكنون للأسلام غير الشر كثرت جرأتهم وفشت أحاديثهم فوجدنا من يقول : «وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إثنى عشر ألف حديث» (١) .

وحين يقع أحدهم فى يد السلطة يقر أنه — وحده — «وضع أربعمائة حديث فهى تجول فى أيدى الناس» (٢) .

وهذا رقم معقول برغم كثرته إذا قيس بما وضعه عبد الكريم بن أبى العوجاء — وهو خال معن بن زائدة الشيبانى المشهور — فقد أقر قبل أن تضرب عنقه فى زمن المهدى قائلا «والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام» (٣) .

وارتفع العدد عن هذا، قال حماد بن زيد : «وضعت الزنادقة على رسول الله صلعم أربعة عشر ألف حديث» (٤) .

فمن ذلك ما يروى عن أبى هريرة مرفوعا «أن الله خلق الفرس فأجراها فعرقت ، فخلق نفسه منها» يقول صاحب تدريب الراوى عن هذا الحديث(٥ «وهذا لا يضعه مسلم بل ولا عاقل ، والمتهم به محمد بن شجاع كان زائغا فى دينه ، وفيه (أبو المهزم) قال شعبة رأيته ولو أعطى درهما وضع خمسين حديثا

أو ما يروى من أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا ، وصلت عند المقام ركعتين فهذه إستهانة بالأسلام وسخرية منه ، وإظهار هوانه عليهم ، وللأسف

(١) الكفاية فى علم الرواية ص ٤٣١ .
(٢) الكفاية فى علم الرواية .
(٣) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى ص ٢٤٨ ج ٢ ط القاهرة ١٣٥٧هـ
(٤) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٨٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٧٨ .

أن عوام الناس ربما اعتقدوا ذلك إعظاما لقدرة الله ، أو إكبارا من شأن الأسلام ، وما هو بذلك .

وقد يوضع الحديث ليطعن الأسلام فى قلبه ، ويفتح بابا عظيما للفتنة كما فعل ذلك الزنديق محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، فقد روى عن أنس بن مالك مرفوعا عن النبي قال : «أنا خاتم النبيين لا نبي بعدى إلا أن يشاء الله» .

والحديث يخالف النص الصريح فى سورة الأحزاب (١) ويتناقض صدره مع عجزه ولا أدرى كيف تقبله الرواة (فالا أن يشاء الله) فيه إحتمال وجود نبي بعد محمد صلعم إذا شاء الله ذلك .

وهذا الإحتمال يتعارض مع (أنا خاتم النبيين) ولا ريب أن الدافع من وراء ذلك واضح ، والنية مبيتة ، والهدف معلن . ، وهو فتح الطريق أمام ادعاة النبوة ، وقد كثروا فى العصر العباسى .

وقد قال الشوكانى عن الوضاعين «منهم زنادقة وضعوا لقصد فساد الشريعة وإيقاع الشك والتلاعب بالدين «ثم روى خبر ابن أبى العرجاء» (٢) .

ويمكن أن يعضد ما يقوله ذلك الشعر الذى يروى عن مجالس بنى برمك:

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وأن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

ثالثا — المفاخرة والتعصب :

لو إقتصر الأمر على الخلاف الفكرى والمذهبى دون أن يصحبه تعصب

(١) الآية رقم ٤٠ (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .
(٢) الفوائد المجموعة ص ٤٢٦ .

لهان الأمر ولضعف الخطر ، وإنما يكمن الشر حين يرتبط الخلاف بالتعصب وحب الغلبة بالحق والباطل ، وتتحكم الأهواء فى العقيدة ، وتتحطم أسباب المودة ، وتبور وسائل الوفاق ورأب الشقاق .

ولو أننا أنعمنا النظر لألفينا الأختلاف قد فشا بين الناس ، والأفتراق قد غدا سنة ومنها جا ، فكل قبيلة تتعصب لذاتها ، وأبناء المدن يفاخرون سكان البوادى والتعصب للمدينة فى الأقاليم .

فقد أوجد المسلمون إمتيازات لبعض الفئات فى العطايا والمرتبات مثل : الهاشميين وقريش والبدريين ، وافتخر أهل المدينة بما قدموا وتاه العرب على غيرهم ، وساعد على ذلك عوامل كثيرة متداخلةومن الأشياء الغريبة التى وقفت عليها أن العباس بن عبد المطلبأرسل إبنه الفضل ومعه أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلبإلى على وسألاه أن يتوليا أمرا ، فلما رفض أغلظاله القول ، واتهماه بأنه يستغل مصاهرته للنبى دون بنى هاشم . (١) ،

ويمكن أن تدور المعانى التى وضعت فيها الأحاديث حول .

أولا : التعصب لجنس معين .

مثل ما ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا خرجت الرايات السود فاستوصوا بالفرس خيرا ، فإن دولتنا معهم» وهذا حكم سياسى موجه يرفع من قدر الفرس ، ويهيب بالسواد أن ينضم إليهم ، ولا يخفى أثر الدعاة فى هذا .

وقوله : «دعونى من السودان ، إنما الأسود لبطنه وفرجه .

فهذا غض من شأن قوم ، ودحر لأعمالهم ، وانتقاص من قدرهم ، وهو

(١) يراجع الخبر فى (الفائق) فى غريب الحديث لجار الله الزمخشرى . ج ٢ ص ٦٥ .

يخالف سنن الرسول عليه الصلاة والسلام فى القول ، ودماثته فى التعبير .

وكيف يقول الرسول صلعم ذلك ؟ .. ويحكم هذا الحكم العام ثم.. يصادر على أفعالهم فيوقعهم فى الخطيئة بحكمه ؟ ومن الممكن أن يحتج المبطلون منهم بهذا الحديث السابق .

وهنالك حديث موضوع آخر يناهضه «إتخذوا السودان فإن فيهم ثلاثة من سادات الجنة لقمان الحكيم والنجاشى وبلال» (١) .

ومنه حديث «خير الناس العرب» وحديث «أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى وكلام أهل الجنة عربى ، والقرآن عربى» (٢) .

وهنالك أحاديث فى الترك وأهل الحبشة والنبط وغيرهم والقول فى هذا يتسع . وهذه الروايات تعبر تعبيرا صادقا عن حركة المجتمع ، وما كان يمور به ، ويصطرع فيه من إضطرابات . فهذه الأجناس المتصارعة فى الحياة الدنيا تريد أن تتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سندا يؤازر ما ترومه أو سيفا يمحق الخصوم ، فتفترى الأحاديث لرفعة أقوام ، وتختلق للحط من شأن آخرين .

ب — التعصب للقبيلة أو فى معناها :

وتروى فى ذلك أحاديث كثيرة موضوعة نأتى بأظهر ما يكشف عن الملامح العامة ، فمن هذا ما روى من أن الرسول صلعم قال : «خير الناس العرب ، وخير العرب قريش ، وخير قريش بنو هاشم ».. ومن ذلك أن رجلا قتل بالمدينة ، لا يدرى من قتله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «أبعده الله أنه كان يبغض قريشا» . .

---

(١) الفوائد المجموعة ص ٤١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١٣ .

ولا ريب فى أن مصدر مثل هذين الحديثين إنما هو الهوى القبلى الضيق ، ففى قريش من كان يناصب الأسلام العداء ، وفى القبائل الأخرى من كان يترك أهله وماله فى سبيل الله ورسوله .

وكيف يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عصبية وقد بعث إلى الناس كافة ؟ وكيف يخلق بين الناس العداوة ويوجد الحسد وهما من عوامل الشقاء والعذاب وقد بعث رحمة مهداة . ؟ !

وكيف يصدر منه ما يقدح فى قوم لم يرهم ، أو يمدح قوما بظهر الغيب أو يصادر على تصرفات الناس ويحكم عليهم قبل أن تكون وقد بعث بمكارم الأخلاق . ؟ ، ومثل هذا التعصب القبلى هو الذى دعا روح بن زنباع إلى أن يتذرع به قائلا : بعد أن قام الوايدين عتبة خطيبا بالمدينة «. أيها الناس إنا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب ، ولكنا ندعوكم إلى قريش ، ومن جعل الله له هذا الأمر ، واختصه به((١) .

ويقول عروة بن أذينة :

إذا قريش تولى خير صالحها فأستيقنن بأن لا خير فى أحد
رهط النبى ، وأولى الناس منزلة بكل خير ،وأثرى الناس فى العدد(٢)

وللأنصار أيضا نصيب من هذا .. ولا يعقل أن نجد أحاديث لقريش ، ومن لف لفهم ولا نجد للأنصار ، ومن ينكر فضل الأنصار ؟ .. ولذلك جاء لهم عن رسول الله صلعم «أكرموا الأنصار فأنهم ربوا الأسلام كما يربى الفرخ فى وكره» (٣) ، وفى شعر الأحوص بن محمد التعصب لقومه ، وتجد جذورا فى شعر حسان بن ثابت .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٩٢ .
(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٦١ .
(٣) الفوائد المجموعة ص ٤١٣ .

ولا يقف الأمر عند هذا القدر بل يصل إلى كل ما يتعلق بما من شأنه أن يثرى هذا التعصب ، فالعربى السيد يكره الفارسى ، ويقتضى تبعا لهذا كراهية لغته فينسب الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مدعيا أنه يقول : «أبغض الكلام إلى الله الفارسية» (١) .

وينسب إلى محمد عليه الصلاة والسلام أنه قال — وهذا موضوع «أن الله إذا لان تكلم بالفارسية ، وإذا غضب تكلم بالعربية» فكأن الفرس أهل أناة وحلم وروية .

والعرب أهل طيش وسخط ، وتقحم ، أو أن الفرس مصدر نعمة ومحل رخاء ، والعرب أهل نقمة ، وأخدان شقاء .

والشعر العربى فى فترة صدر الأسلام وماتلاها فيه نماذج شعرية تكشف عن مدى الهوى المستحكم ، والأفق الضيق ، والتعصب المقيت ، وهذه أمور من شأنها تفتيت وحدة المجتمع ، وتوسيع شقة الخلاف ، والنأى عن الموضوعية ، وترك كل شىء للأنفعال والمزاج ، وهذا كله إنعكاس للحياة التى عاشها المسلمون فى العصور الأولى ، وصورة صادقة لمدى الهرج والفتن وحوادث التاريخ تؤكد هذا .

جـ — التعصب للأقليم والبلد :

ومرجع ذلك الكلف بالمفاخرة ، وحب الغلبة عند المناظرة ، وإذا كان القرآن قد ذكر مكة والمدينة (يثرب) فلتذكر السنة أسماء مدن كثيرة ، بعضها كان موجودا وبعضها لم ينشأ بعد (فى زمن الحديث) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٤ .

ومن ذلك قوله : «أربع مدائن من مدن الجنة فى الدنيا ، مكة والمدنية ، وبيت المقدس ، ودمشق وأربع مدائن النار فى الدنيا القسطنطسنسة ، وطبريه وأنطاكية المحترقة ، وصنعاء ، وأن المياه العذبة والرياح اللواقع من تحت صخرة بيت المقدس «رواه ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا ، وفى إسناده الوليد بن محمد المرقرى وهو كذاب . وواضح من الخبر أنه لم يتعرض لمدن العراق ، وفى هذا من أثر التعصب للأقليم مالا يخفى .

وحديث (يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط جدة) (١) مروى عن أبن عمر ، وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى ، ولبس بشىء ، حدث عن أبية بمائتى حديث موضوعة .

وكيف تفوز جدة بهذا الخبر وحدها ، ويحظى المرابطون بذلك الفضل؟ فليضع أهل بلدة أخرى منافسة حديثا .. عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ستفتح عليكم الآفاق ، وتفتح عليكم مدنية يقال لها (قزوين) من رابط فيها أربعين (يوما أو ليلة) كان اه فى الجنة عمود من ذهب عليه زبر جدة خضراء ، عليها قبة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف مصراع من ذهب ، على كل مصراع زوجة من الحور العين» . رواه ابن ماجة وفى إسناده داوود بن المحبر وهو وضاع ، وقد أورد ابن الجوزى فى الموضوعات وهذا التصوير الذى يخلب الألباب ، ويجذب الناس إلى إبتغاء تلك المنزلة العالية فى الجنة ، وهو وإن كان تصويرا يروق العامة ففيه مبالغة السوقة ، وهو وليد الخيال المجنح ، وهذا الحرص على التفاصيل الدقيقة فى الصورة تثير الضحك وتنأى عن مقام الجلال الذى يجب أن يكون وفيرا فى قول ينسب

(١) الفوائد المجموعة ص ٤٢٨ .

إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . فضلا عن أن هذا التهويل بعيد عن طبيعة العقل العربي ، وقريب من التكوين النفسي والتاريخي للفرس ، حيث لديهم القباب ، والياقوت ، ومصاريع الذهب .

والتعصب لا يكون للبلد فقط ، بل يتعداه إلى الأقاليم ، فالشوام يزعمون لأنفسهم فضلا فيرمون غيرهم بكل نقيصة .

عن ابن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «إن ابليس دخل العراق فقضى حاجته منها ، ودخل الشام فطرد حتى بلغ (ميسان) ثم دخل مصر فباض وفرخ وبسط عبقريته» .

ولاشك أن أثر الثورة على عثمان واضح فى وضع الحديث ، فالذين تولوا كبره العراقيون والمصريون ، أما الشاميون فأبرياء ، فهو حديث سياسى إقليمى وهذا لا ريب من وضع شامى الهوى ، أموى المزاج ، على حين تجد حديثا آخر يدمغ الشاميين ، ويصمهم .

قال صلى الله عليه وسلم (الجفاء والبغى فى الشام) ففى هذا أثر التعصب والعداوة . ويزعم المصريون أن هناك حديثا يقول «الجيزة روضة من رياض الجنة ، ومصر خزائن الله فى أرضه» ، وفى سبيل المنافسة يهدر الأنسان قيما كثيرة ، فالمهم عنده أن لا يغلب عند النقاش ، وأن يجد ما يقوله ولو كان باطلا ، وأن يترك فى الناس شيئا يتردد وإن كان مختلقا .

د – التعصب لرؤساء المذاهب والأعلام :

فإذا أجازوا الوضع فى على وعثمان ومعاوية فقد جرأ ذلك ضعاف الناس فى أن يتقولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيروون أحاديث فى بعض الناس مثل «أويس» هذه الشخصية العجيبة التى يزعمون أن محمدا عليه الصلاة

والسلام نزل عليه جبريل وهو بفناء الكعبة فقال يا محمد أنه سيخرج فى أمتك رجل مشفع فيشفعه الله فى عدد ربيعة ومصر . فإن أدركته فسله الشفاعة لأمتك قال يا جبريل ما أسمه ؟ .. قال أسمه أويس» .

فكيف يطلب من رسول الله صلعم أن يبتغى الشفاعة لأمته من رجل مهما تكن منزلته . ؟

ومثله أحاديث فى على بن الحسين أمام الشيعة ويلقبه النبى عليه الصلاة والسلام بسيد العابدين ، ثم يذكر ابنه محمد بن على (الأمام الباقر) (١)،وهذا التعصب قد يكون من حوارى فيكذب لأمامة ، وقد يكون من معاند فيكذب عليه . ومن العجب أن هناك خبرا يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كنت عند رسول الله وأقبل العباس وعلى فقال : يا عائشة . إن هذين يموتان على غير ملتى — أو قال — على غير دينى —) . وفى رواية ، أنهما من أهل النار (٢). ؟

فأنظر كيف دفع التعصب قوما إلى إفتراء الكذب على رسول الله صلى عليه وسلم فهذا القول لم يصم العباس وعليا وحدهما ، ولكنه يصم النبى عليه السلام ، ويحرجه فى خلقه وقوله .

وليس وراء مثل هذه المفتريات إلا حب النشوية والأنتصار—ولوبالباطل فقد أعمى الحقد أبصارهم ، وطغت العصبية عليهم فأهلكتهم ، وحرى بنا أن نناى فى خصوماتنا عن دس الدين ، وحشر العقيدة ، فذلك طمس للروح الوثابة فى الدين ، ومحو لنور الأسلام .

---

(١) الفوائد المجموعة ص ٤١٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٦٤ .

ومن ذلك حديث فى الحسن البصرى «أن الرسول قال اللهم نزهه فى العلم» والحسن البصرى لم يولد فى زمن النبى ، وراوى الحديث جابر بن عبدالله اليمانى قال عنه الخطيب البغدادى (جابر كان كذابا جاهلا بما يقوله، وكلامه باطل من كل الوجوه) .

وهناك أحاديث فى يزيد بن معاوية وغيره من الأسماء التى أسهمت فى النشاط السياسى والفكرى .

ومن العجب أن التعصب إمتد إلى فئات كنا نظن أنها بمنأى عن التمسك بالهوى والأعتصام بالمذهب ، وهى طبقات الفقهاء والمحدثين وغيرهما ، ذلك لأنها تمثل العقلية المثقفة ، والصفوة المختارة ، من المجتمع الأسلامى ، ولكن — للأسف — انحدرت إلى الدرك الأسفل ، حتى لم نعد نميز بين سوقى وعالم ، ومثقف وجاهل ، ومفكر ، ومقلد ، فالفتنة عامة ، والتعصب مستحكم شائع والهوى غالب ، والأنصاف فى رحاب الله ...

ولو أننا نقلنا بعض الأحاديث التى قالها أهل المذاهب فى بعضهم لأتينا على صفحات وأسهبنا ، فقد خرج الأمر من التعصب إلى التعدى والضرب يروى يموت بن المزرع «إذا رأيت الشيخ يعدو فأعلم أن أصحاب الحديث خلفه»(١)

وقرأنا أحاديث تذم أهل الرأى ، وتدين منهجهم ، وبلغ من الحمق أنهم ينسبون إلى النبى أحاديث متناقضة تبعا للمذهب ، فهناك أحاديث ترفع من قدر الأمام الشافعى وأحاديث تدمغه ، ولا يخفى أثر التعصب بين الأحناف والشافعية ودوره فى الوضع مثل «سيكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٣٠ .

إدريس أضر على أمتى من إبليس ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى» (١) .

وهذا الحديث مروى فى الفوائد المجموعة ص ٤٢٠ ، وفى الأمام الشافعى ما يرفعه مثل «عالم قريش يملأ الأرض علما» فوراءه تعصب الشافعية لأمامهم وهذه الأمور المنكرة مرجعها إلى الموالاة والتعصب . يقول الأمام الشاطبى فى الأعتصام «. لولا الغلو فى الدين ، والتكالب على نصر المذهب والتهالك فى محبة المبتدع ، لما وسع ذلك عقل أحد .» (٢) .

ويقول الأمام مالك فى رواية عنه — لا أظنها صحيحة — «لو خرج أبو حنيفة على هذه الأمة بالسيف كان أيسر عليهم مما أظهر فيهم» (٣) . يعنى من القياس والرأى ، وكيف يقال هذا فى مذهب يعمل العقل ، ولا يخرج به عن سواء الشرع فالأمام أبو حنيفة قد أثرى الفقه الأسلامى ؛ واستخرج من الكليات أحكاما تفصيلية فيها نفع للناس ، ورحمة بهم ، ولا يمكن أن نأخذ برأى المحدثين إذ يطلبون حديثا لكل أمر ، وخبرا لكل ما يجد ويحدث ، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه البتة لأن الحوادث تجد وتنشأ ، بينما الخبر محدود . ولذا فلابد من أعمال العقل ، والأخذ بالقياس ، وقد أتهم أهل الحديث بنقائص كثيرة منها عدم الفهم ، ومزايلة الفقه ، فالرجل منهم إذا سئل عن معنى حديث لم يعرفه وقال أنما أنا زاملة (أى حامل له فقط) وروى فيهم :

زوامل للأخبار لا علم عندهم   بجيدها ، إلا كعلم الأباعر

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة جـ ٢ ص ٤٨ لعلى الكنانى — تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — القاهرة ١٣٧٨ هـ .

(٢) الأعتصام جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٣) جامع بيان العلم ص ١٤٧ جـ ٢ .

لعمــرك ما يــدرى البعــير إذا غـدا

بأحمالــه ، أوراح مـا فى الغرائر

وقال عمر بن الحارث «ما رأيت علما أشرف ولا أهلا أسخف من أهـل الحديث» (١) .

واسوف أتناول هذا الموضوع فى بحث قادم إن شاء الله .

وعلى هذا فقد ساعدت هذه الفوضى الفكرية والأخلاق غير الدينية فى أن يصل أهل العلم إلى هذه الحال المردية ، والتى وصفها أمام من أئمة الحديث هو ابن قتيبة قائلا : «كان طالب العالم فيما مضى يسمع ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويتفقه فى دين الله لينتفع ، فقد صار العالم الآن يسمع ليجمع ، ويجمع ليذكر ويحفظ ليغالب ويفخر» (٢) . ومعنى هذا أن وكد طالب الحديث كان للمغالبة ، وغرضه التكثر بما يحفظ والذكر بين الناس جلبا للفخر ، وإبتغاء للزهو . وإذا وصل الأمر إلى هذه الحال فقد خلا العلم من التحلى بالمكارم ، ونأى عن توخى المصلحة العامة ؛ وفى هذا فصل بين الحديث والخلق ؛ ولا يعدو الأمر فى طلب الحديث أن يكون شهوة ، أو وسيلة للغلبة . وهنا فمن الممكن أن يخرج المحدث عن سنن العلم ، ويند على متطلبات السلوك،وتتغلب الشهوات التى تؤدى إلى البعد عن الموضوعية والإساءة إلى المحدثين ، والطعن أحيانا — فى الحديث ذاته .

أما وصف ما كانوا عليه من الفتنة فيقول عنه ابن قتيبة ت ٢٧٦ ويجب أن نقرأه فى فهم ووعى «فأصبح الناس إلا قليلا ممن عصم الله مفتونين ، وفيما

---

(١) جامع بيان العلم

(٢) الأختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص ٧ .

يو بقهم خائضين وعن سبيل نجاتهم ناكصين ، ولما وضعه الله عليهم متكلفين ، وعما كلفهم معرضين ، إن دعوا أنفوا ، وإن وعظوا هزأوا ، وإن سئلوا تعسفوا وإن سألوا أعنتوا ، قد فرقوا الدين وصاروا شيعا ، فهم يتنابزون بالألقاب . ويتسابون بالكفر ، ويتعاضدون بالنحل ، ويتناصرون على الهوى ، وعاد الأسلام غريبا كما بدا» (١) وكان المحدثون يتعقبون الناس فى الأسواق ، والشوارع ، ويهيجون العامة ، ويكثرون من إشاعة الفزع بين الناس .وكانوا يعاقبون من يقول قولا يختلف فيه معهم . فالأمام الطبرى محمد بن جرير ت ٣١٠ أعلن رأيه صراحة معلنا أن الأمام أحمد بن حنبل لم يكن فقيها وإنما كان محدثا . وأتباعه كانوا يضيقون ذرعا بهذه الصفة ، فضلا عن رغبتهم فى نسبة إمامهم إلى الفقه . فلما مات الطبرى لم يدفن نهارا ، لأن العامة أبت أن يدفن فى وضح النهار ، وكان المحدثون يكابرون بما لديهم ولو كان خبرا ضعيفا ، ويحاولون أن يفرضوا آراءهم بالعنف ، وكانوا يصورون الأشياء تصويرا فيه مبالغة وتجسيم وينأون عن التجريد والمطلق وكأنهم يحدثون الأطفال (٢) . فهم لا يفرقون بين المستويات التى تتلقى المعرفة ، وإنما ينهجون منهجا لا يخرجون عليه ، ولا يتطورون به .

ومتى إبتغى الأنسان الغلبة وتعصب لما معه فقد جاوز سبيل العلم ، وتعدى حدوده ، وغدا فى دائرة البهتان والكذب ، ولا غرو فى أن نعثر على أفاك وأدعاء بين الرواة ، وفى ذلك يقول ابن حزم (وقد كان فى التابعين الراوين عن الصحابة رضى الله عنهم خبث كثير ، وكذب ظاهر) . (٣) .

---

(١) الأختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص ٧ .
(٢) نقض المنطق ص ١٣٥ .
(٣) الأحكام فى أصول الأحكام جـ ٧ ص ٩٧٦ .

وكانوا أحيانا لا يتحرون الدقة فى الرواية ، فمنهم من يزيد وحجتهم أن الزيادة مقبولة من العدل(. (١)

وكيف يصح هذا ، ؟ والأمانة تقتضى الدقة فى النقل ، ثم أليست الزيادة وإن كانت من عدل ضربا من الكذب . ؟ .

أما لغتهم فكانت محدودة بأطر بعينهما ، إذ لهم ألفاظ لا يعدونها وربما كثر اللحن لديهم فلا يدركونه ، أو يدركون ولا ينهضون لإصلاحه ويروون اللحن على لحنه ، وقد عقد الخطيب البغدادى فى كتابه «الكفاية فى علم الرواية بابا ذكر فيه من كان لا يرى تغيير اللجن فى الحديث (٢) .

ويروى ابن سيرين كان يحكى صاحبه فيلحن كما يلحن ، وكان أحدهم يحدث بالحديث فيه اللحن (فيلحن إقتداء بما سمع ((٣) حتى تافع راوية بن عمر كان يأبى ، إلا اللحن متى سمعه .

وهذا التمسك بظاهر الأمر ولو كان خطئا هو الذى أوقع علماء الحديث فى شر كثير ، وعد ذلك من الأسباب التى جرت عليهم الهزء والسخرية .

ولعل من ذلك ما جعل النحاة ينأون عن لغة الحديث ، ولا يستشهدون به إلا لماما ، وفى ذلك يقول أبو عبيد (لأهل الحديث لغة ، ولأهل العربية لغة) . (٤)

فأولئك قوم لم يتعهدوا لغتهم ، ولم يعملوا عقولهم فيما بين أيديهم من

---

(١) الكفاية ص ٤٢٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨
(٤) الكفاية ص ١٨٢ .

النصوص ليميزوا بين المنقول ، إذ يجب أن يجعل الأنسان حاجزا بين مايعرف وما يجب أن يقول فى كل ما يعرف يروى ، فذلك ضرب من الغفلة ، وكفى بالمرء غفلة أن يروى كل ما يحفظ .

وفى بيئة كهذه تفرخ الفتنة ، وتتمكن العداوة ، ويهن البناء الأسلامى ، ويكثر الزيف ، ويشيع الكذب ، حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك لعمرى قاصمة الظهر ، وحالقة الدين ، وبوار الأمة ...

رابعا – الترغيب والترهيب :

وقد وضعت أحاديث كثيرة من هذا الباب ، ولم يكن الوضاعون هذه المرة من أعداء الأسلام ، أو من أصحاب الملل والنحل ، وإنما من الزهادوالعباد والذين رغبوا فى تدعيم القرآن أو ألسنة أمام المظاهر المختلفة للنشاط الأنسانى .

ويمكن أن نقسم الأحاديث التى وضعت إلى الأقسام الآتية :–

١ – أحاديث فى فضائل القرآن :

فالقرآن الكريم ذو مكانة فى نفوس المسلمين ويبدو أن الناس إنصرفوا عن تلاوته وحفظه إلى حفظ الماجن من الشعر ، ورواية المنكر من القول ، والكلف بالمناظرة ، فأراد هؤلاء العباد أن يحببوا الناس فى القرآن فكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإختلقوا أحاديث عن فضائل القرآن سورة سورة وبالغوا فى الثواب .

وإذا كان الدافع لهذا العمل نبيلا فليس بمانع من خطئه ، وهذه النية الطيبة قد إجترمت عملا شنيعا من استباحتها الكذب ، وتعمدها التقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الذين عرفوا بوضع الحديث فى فضائل القرآن (أبو عصمة نوح بن

أبى مريم(، وكان يقال له (نوح) الجامع لأنه أخذ الفقه عن أبى حنيفة وابن أبى ليلى ، والحديث عن حجاج بن أرطأة ، والتفسير عن الكلبى ومقاتل والمغازى عن ابن اسحاق وولى قضاء مرو — هذا الرجل أكثر من وضع الأحاديث فى فضائل السور ، ويروبها عن عكرمة عن ابن عباس فلما قيل له : من أين لك ؟ . قال : انى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، وإشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن اسحاق فوضعت هذا حسبة» (١) .

والعامة من الناس تستحسن هذا النوع من الحديث ، وينال عندها حظا كبيرا من القبول ، فهم يقدرون قيمة الشيء بثمنه ، فإذا ما غلا ثمن القرآن كان ذلك دليلا على إرتفاع قيمته ، وهذا يؤدى إلى أمرين .

١ — جذب العامة وتهافتهم على تلاوة القرآن ليحصلوا على الأجر الكبير .

٢ — صرف الهمة إلى القراءة لا إلى التدبر ، وإلى النظر فيه لا فهمه وفقهه فجل الأحاديث التى فى أيدى الناس عن فضائل القرآن موضوعه ، ونحن لا نقبلها وأن كانت موضوعة لغرض نبيل ، ولكن وجاهة الغرض لا تبيح إفتراء الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الوضاعون يعرفون الطبقة التى يوجهون إليها أحاديثهم وهى طبقة العامة ألفينا الجزاء يتناسب مع شهوات هذه الطبقة من الحور العين ، والقصور وغير ذلك . ولا ينكر أهل الصنيع غايتهم بل يصرحون بها .

«روى ابن حبان فى الضعفاء عن ابن مهدى قال : قلت لميسرة بن عبدربه من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا ؟ .. قال وضعتها أرغب

---

(١) تدريب الراوى ص ٢٨٢ .

فيها» (١) وهذا الترغيب مرتبط ببيئة معينة ، وتخضع لمزاج واصفها ، ولذا فمن الممكن أن لا يؤثر الترغيب - الآن - فى الرجل العصرى الذى يعيش فى حضارة تحترم العقل ، وتعلى من شأن الفكر ، وتنأى - ما أمكن - عن مخادعة الشهوات ، وسيطرة شراسة الحرمان .

والقرآن إذا لم يحترم لما فيه من معان ومعالم ، وحضارة فلن يحترم - فى نظرى - طمعا فى طعام شهى ، أو مسكن هنى .

وقد أثرت هذه الأحاديث فى دفع العامة إلى قراءة القرآن قراءة لا تجاوز الحناجر ، فإذا علمنا أن أحدهم يقرأ القرآن كله فى يوم أو أقل فلا غرو أن يمر به من غير أن يفهم ويمر على الوعيد فلا يتأثر ، ويتلو الأمر فلا يفقه ،وعلى الجملة فالترغيب الذى دفع الناس إلى العجلة فى القراءة وعدم إقامة النطق ، يخرج بالقارىء عن حد الأعتدال ، ويقترب به من مخالفة قوله تعالى (يتلونه حق تلاوته) .. فضلا عن إهمال التدبر ، ومجانبة الفهم ، والأعتماد على تحريك اللسان من غير وعى ، فتغدو القراءة ضربا من الهذر ، ونوعا من اللغو .

ب - فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم :

دفع حب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الزهاد وجهلة المسلمين إلى التوسع فى نسب فضائل إلى محمد عليه الصلاة والسلام يزعمون أنها ترفع من قدره ، ولو دروا لأدركوا أنه لا رفعة لمقام فوق النبوة ، ولا نباهة لذكر فوق شرف الرسالة «ورفعنا لك ذكرك» (١) .

والقرآن ذاته سمو بمكانة محمد عليه الصلاة والسلام وإعزاز لمن خوطبوا

---

(١) اللآلىء المصنوعة ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) سورة الشرح آية رقم ٤ .

به .. قال تعالى عن القرآن فى سورة الزخرف (وإنه لذكر لك ولقومك) (١).

ولكن العباد لم يرضوا بهذا الذكر ، وأضافوا من عند أنفسهم أمورا ظنوها — إفتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم — ترفع من قدره .

وكأن العظمة لا تكون إلا بكثرة المحاباة ، وخرق المألوف ، والخروج على ما أعتاده الناس ، أما عظمته الحقيقية من إبلاغ وجهاد ، وجلائل الأعمال وتغيير فى بناء العقلية العربية ، وثورة فى سلوكها العام والخاص فهذا لا يغنى عندهم .

فهم يحبون رسول الله فيدفعهم هذا الحب إلى اختلاق الكذب ، وعسير عليهم أن يعذب أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتون بأحاديث ملفقة مؤداها الشفاعة فى آمنة بنت وهب (أم محمد عليه الصلاة والسلام) وعمه أبى طالب ، وأخيه من الرضاعة ابن حليمة السعدية .

ومن ذلك ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : «ذهبت لقبر أمى فسألت أن يحيها فأحياها ، فآمنت بى وردها الله تعالى » فى رواته النقاش كذاب وضاع كما قال الذهبى (٢) .

فهذا الحديث أملاه الحب ومحاولة إظهار إحياء الموتى على يد محمد عليه السلام مثل عيسى عليه السلام ، وإن كان هذا مخالفا للروح الأسلامى ، ولأحاديث أخرى أقوى . وكأنه عز عليهم أن يكون محمد رحمة للعالمين وتعذب أمه ، أو ينال أحد من قرابته مكروه — وكيف تكون أمه صلى الله

(١) آية رقم ٤٣ .
(٢) ميزان الأعتدال ج ٥ ص ٤٢٠ .

عليه وسلم أقل منزلة من السيدة مريم عليها السلام ؟ وربما رجع ذلك إلى تأثير قديم عاش فى وجدان الناس من الديانات السابقة ؛ .

وإذا كان يوسف عليه السلام عرف بالحسن وأعطى شطره ، فليكن محمد أحسن منه ، وكأن شخصية الرسول لن تكتمل لها ملامحها حتى تنفوق على ما للآخرين من فضل . فهم مفتونون بالمقارنة مأخوذون بالموازنة الحسية وذلك أمر فيه سذاجة ، وبعد عن معرفة القدر الذى يجب أن يكون للنبى .

ومن عجب أن يأتوا بحديث تظهر فيه ضآلة المعنى ، وحمق الغاية ، ويساق فى صياغة توحى بالتدليل والمحاباة والأرضاء . والحديث أنه «هبط جبريل فقال يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : حبيبى إنى كسوت حسن يوسف من نور الكرسى وكسوت حسن وجهك من نور عرشى ، وما خلقت خلقا أحسن منك يا محمد» (١) .

فهل محمد صلى الله عليه وسلم على هذه الصورة التى تتشوف للجمال الحسى ويؤرقها جمال يوسف وقسامته . ؟ ، وما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث لا يدل على ما يفهم من الحديث ، فهو ذو ملامح عربية وسمات مألوفة بين قومه . والرجل الكامل لا يشغله جماله الحسى شغلا كثيرا . ففى رجولته وأعبائه ، وما ينوء به من مشاق ومهام ما يشغله عن تكلف الحسن وتطلب الجمال .

وإذا كان الرجل قد يجد فى مطالب الرجولة ما يثبت به ذاته ، فمن البين أن الكلف بالحسن من شيم النساء ، وأخلاق الغوانى ، ومن العجب أنهم

---

١ — الفوائد المجموعة ص ٣٢٣ الأحاديث فيه ، وهو الصلاة على النبى صلعم والقرآن .

يروون أحاديث فى ملاحة محمد وحسنه يخجل منها الأنسان السوى . ولو عقلوا لأدركوا أنه يكفى فى النبي أن لا يكون قبيحا قبحا ظاهرا حتى لا ينفر الناس ، أو ينالهم أذى منه ، أما الحسن الملفت للأنظار الآخذ بالأبصار فلم يكن يشغل بال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما جاءوا به ليضيفوا محمدة كانت تنقص رسول الله فى رأيهم ، أو تغض من قدره عندهم ، وهذا راجع إلى تصورهم للنبوة . وتأثرهم بخرافات قديمة .

وبلغ بهم الحب أن جعلوا الرسول مركز الكون ، وأصل الأشياء ، فلولاه ما كان الوجود (لولاك ما خلقت الأفلاك) . ويقول فى ذلك البوصيرى .

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم(١)

فإذا كان محمد آخر رسول فهو أول الخلق وذلك — فى ظنهم — يثبت فضلا ، أو يوحى بمنزلة لم يبلغها أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وإذا أدعت النصارى فى أن عيسى عنصر إلهيا (اللاهوت) وفى القرآن (ونفخنا فيه من روحنا) فمحمد لا يقل عن ذلك منزلة ، فيأتون بحديث يقول «أنا من الله والمؤمنون منى ، والخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة» قال ابن حجر لا أعرفه (٢) .

وهناك أمر آخر أكثروا من وضع الأحاديث فيه ، وهو الصلاة على النبي صلعم والقرآن صريح ، ففى سورة الأحزاب «إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» . (٣)

وهناك صيغ وردت فى التسليم عليه ، ولكن هذا لا يرضى الزهاد والعباد

(١) ديوان البصيرى — تحقيق محمد سيد كيلانى ص ١٤٠ طبعة الحلبى — ط ٢ — ١٩٧٣ م القاهرة
(٢) الفوائد المجموعة ص ٣٢٦
(٣) آية رقم ٥٦

فهم يروون أن يحملوا النـاس على الصلاة والتسليم عليه ، فتأتى أحاديث كثيرة منها :

«زينوا مجالسكم بالصلاة على ، فإن صلاتكم على نور لكم يوم القيامة» ومن يرغب عن النور فى ذلك اليوم العظيم ؟ .. فما أسهل القول وأجزل الثواب والصلاة عليه تصله على أية حال وجزاؤها الشفاعة «من صلى على عند قبرى سمعته ، ومن صلى على نائيا وكل الله ملكا يبلغنى وكفى أمر دنياه وآخرته ، وكنت له شهيداً أو شفيعا» قال العقيلى لا أصل له ، وقد أخرجه البيهقى الشعب وإسناده كذاب ، وواضح هلهلة الصياغة ومخالفة صريح المعقـول والمنقول .

فمحمد صلى الله عليه وسلم الميت يسمع . ! وهذا عجيب : ولكن سمعه لا يتعدى مستوى الحاسة المعتادة لدى الناس ، وماداموا قد أثبتوا له معجزة السمع وهو ميت فكان يتحتم عليهم أن لا يتأثر سمعه بالمسافات فهو يسمع من دنا ومن نأى . لتتم المعجزة على وجهها ولكنهم خالفوا ، وجعلوا ملكا يبلـغ صلاة البعيد ، ومن الممكن أن نفترض أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان يسمع وهو ميت لأسمع الموتى وهو حى فمن يسوغ الفرض الأول يسوغ الثانى ولكن كيف يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ميت ؟ .. وقد قال ربه فى القرآن (إنك لا تسمع الموتى) وما أنت بمسمع من فى القبور) (٢) .

فإذا كان صلى الله عليه وسلم لا يصل قوله إلى الموتى ، فكيف يصـل قولى وأنا دونه منزلة وعبادة ؟ .. إليه وهو ميت ؟ إلا إذا قلنا أنه صلى الله عليه

---

(١) فاطر آية رقم ٢٢ .

وسلم حى فى قبره ، وقد قال بذلك بعض الصالحين الذين لا يحكم تصوراتهم معرفة ، ولا يضبط خواطرهم فهم معتدل ، وإدراك رزين !...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى أن الصلاة على النبى صلعم أفضل من كثير من الكفارات مثل عتق الرقبة ، وأحيانا تمحو أوزار الأنسان وتغسله من ذنوب كثيرة ، «من صلى على فى كل يوم جمعة أربعين مرة محا الله عز وجل عنه ذنوب أربعين سنة ومن صلى على مرة واحدة فتقبلت منه محا الله عنه ثمانين سنة» (١) .

وهذا الحديث لو صح لهدم الأسلام وأتى عليه من القواعد ، إذ يسهل سبيل البغى ، ويطمع الناس فى الشهوات ، ويفتح لهم أبواب الفساد ، فبمقدور الأنسان أن يقترف السيئات ردحا طويلا من الزمن ، ثم يأتى بعد أربعين سنة فيصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أقول أربعين مرة كما يقول الحديث يوم الجمعة ، ولكن أضعاف ذلك الرقم فيسقط عنه الوزر ، ويمحوا الله بالصلاة على نبيه خطاياه ، أن فى ذلك فتحا للشيطان وبابا للفتن ، وهدما للأسلام من حيث لم يحتسبوا .

وإن تعجب من هذا فعجب قول هؤلاء الوضاعين إذا سئلوا عن سبب هذا الكذب وقد قال الرسول (من كذب على فلتبوا مقعده من النار) — إنما نكذب له لا عليه (٢) .

فالكذب فى صالحة حلال والأختلاق لأضافة وهم عندهم صواب «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا» . (٣)

(١) الفوائد المجموعة ص ٣٢٩ .
(٢) تدريب الراوى ١ ص ٢٨٣ .
(٣) الكهف آية رقم ٥ .

ومن أراد أن يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم فليقرأ القرآن وليتدبر السيرة ، ففيهما رسم لشخصيته ، وبيان لملامحه عليه الصلاة والسلام .

ولم يعد الأنسان فى عصرنا يقبل مثل تلك النزهات ، أو الإيمان عن طريق التزيد أو ما يخرج بالعقل عن سواء السبيل وخير للأسلام أن يكون نبيه بشرا سويا لأنه مثل معتاد يترسم خطاه الناس من أن يكون شيئا عجيبا ، يخرج عن حيز القدرة والأمكان إلى أمر الفرجة والأفتتان ..!!

ج — فضائل الأعمال :

إنتظمت أحاديث الفضائل غير ما تقدم — ما وضع ليحمل الناس على فعل معين ويحضهم عن طريق الإغراء والترغيب أو الإخافة والترهيب .

فهم يزينون — بذلك — العمل على الناس ، فالنية حسنة والقصد شريف ولكن الوسيلة مرذولة .

فمثلا إذا أرادوا أن يحببوا الناس فى السواك رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «صلاة بسواك خير من سبعين صلاة بغير سواك» قال عنه يحى بن معين باطل .

ولا ريب فى أن ضعفه غير خفى ، فليس السواك من أركان الصلاة ولا شروطها فكيف تفضل به الصلاة هذا الفضل المبالغ فيه ؟! . وهذا الحديث ترغيب فى السواك ، ولكنه ترغيب مضحك إذ جنح إلى الإسراف ، ومال إلى لأغراب .

وهناك أحاديث فى الحد من فعل معين مثل مصافحة اليهود والنصارى يروون فيه «من صافح يهوديا أو نصرانيا فليتوضأ أو ليغسل يده» رواه ابن عدى عن ابن عباس وقال لا يصح ، وفى إسناده إبراهيم بن هانىء مجهول

يحدث بالأباطيل . وما ثبت عن رسول الله يدحض هذا القول ، وفعل الصحابة يخالف منطوق الحديث .

وفى الترغيب من غسل الجنابة حديث يقول : «من إغتسل من الجنابة حلالا أعطاه الله مائة قصر من دره بيضاء وكتب له بكل قطره ثواب ألف شهيد» (١) . رواه ابن الجوزى عن أنس مرفوعا وقال وضعه ابن دينار .

وواضح أثر الترغيب فى أمر واجب وهذه المبالغة الممقوتة من دلائل الوضع ، فالأغتسال من الجنابة أمر لازم .. ولا يستطيع المرء أن يؤدى الصلاة إلا بعد التطهر ، وليس من اللازم أن يثاب الأنسان على هذا الفعل ، فإذا أثيب فمن فضل الله ، أما هذه القصور فأمر فى غاية القصور ، وكيف يأخذ الأنسان بكل قطرة ثواب ألف شهيد . أما والله أن ثواب شهيد واحد لكثير .. ولكنه حب الترغيب والغفلة عن منهاج الشريعة . ومرامى الأسلام العامة . ! !

وهكذا أصبح لا هم لهم غير الغاية التى جعلوها أمامهم وإن خالفت المألوف ، ودابرت المعروف . . .

فمن الواضح أن المصلى يتخير مكان سجوده ويطهره من القذارة . ولكنهم يريدون أن يثبتوا أن السجود هو الذى يطهر الأرض ، فيأتون بالحديث فيه إهانة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة لموجبات الصلاة حيث يروون «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى الموضع الذى يبول فيه الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقالت عائشة : ألا تخص لك موضعا من الحجرة أنظف من هذا ؟ فقال : يا حميراء أما علمت أن العبد إذا سجد لله سجدة

---

١ — الفوائد المجموعة ص ٩ .

طهر الله موضع سجوده إلى سبع أرضين» تفرد برواية هذا الحديث بزيغ بن حسان وهو متروك . فقد يكون صدر الحديث صوابا ، ولكن عجزه بهمبالغة فقد تضمن شيئا من الممكن وشيئا من الوضع . وفيه كذلك أثر التشيع .

وحتى يحبب الناس فى الصلاة النافلة قبل الظهر يرتكب منكرا ، بحيث يغدوا ترك الفرض أقل جرما من ترك النفل . فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول «من لم يلازم على أربعة قبل الظهر لم تنله شفاعتى «فقال النووى لا أصل له(١) فالذى يصلى الفرض ويعرض عن صلاة نافلة الظهر لم يظفر بشفاعة محمدعليه السلام .

ومن العجيب أن صيغة الحديث : (من لم يلازم) . وهى تخالف المألوف من روح الأسلام . ومألوف ما صح عن رسول الله من حب القصد؛والجنوح إلى التخفيف فما جعل الله علينا فى الدين من حرج ، ولا يكلف نفساً فوق وسعها . ويريد الله أن يخفف عنا ، ولكنهم قوم لا يفقهون ...

وإذا كان الحديث فى كل ما سلف يحض على فعل معين ويحمل الأنسان بالترغيب على أتيان ما يقصده فوضع الحديث قد يأخذ شكلا آخر بأن ينفر من سلوك معين ، ويهجن أمرا لا يحب الصالحون إنتشاره ، ويكرهون ذيوعه فإذا ظهرت القسوة على اليتيم ، وأرادوا أن يحببوا الناس فى العطف عليه وأكرامه ، إخترعوا هذا الحديث «إذا بكى اليتيم وقفت دموعه فى كف الرحمن يقول : من أبكى هذا اليتيم الذى واريت والديه تحت الثرى ؟ .. من أسكته فله الجنة» رواه الخطيب عن أنس وقال منكر جدا (٢) .

والحديث به ضعف فى التركيب اللغوى ، فالفعل المضارع (يقول) كان

١ — الفوائد المجموعة ص ٥٨ .

٢ — المرجع السابق ص ٧٢ .

يتطلب أن تدخل عليه الفاء (فيقول) ثم أن العرب تفرق بين اليتيم واللطيم ، والعجى ، فاليتيم من مات أبوه فكيف يطلق على من مات أبواه ؟ .. هذاجهل من الواضع واضح . أما التصور فساذج تغلب عليه المبالغة ، وهذه سمة عامة فى الأحاديث الموضوعة .

ولكى يرقق قلوب الناس على الصبيان يأتى بهذه النماذج الفجة التى لا ترضى إلا ذوق العامة ، فلهم باب فى الجنة مقصور عليهم «أن فى الجنة دارا يقال لها دار الفرح لا يدخلها إلا من فرح الصبيان» وقوله : «من ربى صبيا حتى يقول لا إله إلا الله لم يحاسبه الله» (١) وهذا الحديث ظاهر بطلانه ، وواضح كذبه ، لأنه يهدر قيمة العمل ويرغب الناس فى أمر يحمل فى باطنه ترغيبهم فى المنكر ، فما أسهل أن يربى المرء صبيا ثم يتقلب فى المعاصى واثقا من غفران الله له ، أو ليس فى هذا تسهيل للمعصية ؟ ، وترغيب فى إقتراف الذنوب ؟ ولكنه الحب المقترن بالجهل .

وقد عرف من الوضاعين فى هذا الباب عبد الله بن المسور ، فكان لا يضع من الحديث إلا ما فيه أدب أو زهد فيقال له فى ذلك فيقول «أن فيه أجرا» (٢) .

وكان يضع الأحاديث فى الأدعية وغيرها ، وكان هذا دين الصالحين من العباد والزهاد يبغون إبعاد الناس عن مشاغل الحياة الدنيا إلى الطاعات والعمل الصالح فارتكبوا جريمة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستحلوا الأنتحال والوضع ، ولهم فى ذلك جرأة شديدة لأن عملهم مرتبط

---

(١) الفوائد المجموعة ص ٧٦

(٢) قبول الأخبار ومعرفة الرجال لأبى القاسم البلخى ص ٧ .

بحجة لهم فلا يجدون حرجا من الكذب ، ولا إثما فى فعلهم .

وهذا ما شهد به يحى بن سعيد القطان حين قال : «لم نر الصالحين فى شىء أكذب منهم فى الحديث» (١) .

وقال : «ما رأيت فى أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير» ويعلق السيوطى قائلا : «أى لعدم علمهم بتفرقة ما يجوز لهم وما يمتنع عليهم ، أو لأن عندهم حسن ظن ، وسلامة صدر» (٢) .

ومما يؤسف له أن بعض العلماء الثقات يحسنون الظن بالأحاديث الموضوعة فى فضائل الأعمال ، ولا يرون بأسا من رواتها كالأمام أحمد وأبى داود والنسائى . يقول الأمام أحمد : (إذا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد ، وإذا روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضائل الأعمال ، ومالا يضع حكما تساهلنا فى الأسانيد) (٣) .

وحدث أن قال ابن الجوزى عن حديث رواه الأمام أحمد أنه موضوع فانتصر له ابن حجر مدعيا أنه فى فضائل الأعمال (وطريق الأمام أحمد معروفة فى التسامح فى أحاديث الفضائل دون أحاديث الأحكام) فيعقب الشوكانى قائلا : ولا يخفاك أن هذه مراوغة من الحافظ ابن حجر وخروج من الأنصار فإن كانوا من الأحاديث فى فضائل الأعمال وكون طريقة أحمد معروفة فى التسامح فى أحاديث الفضائل ، لا يوجد كون الأحاديث صحيحة ولا حسنا

---

١ — صحيح مسلم شرح النووى ج ١ ص ٩٤ .

٢ — تدريب الراوى ص ٢٨٢ ج ١ وعبارة يحى السابقة مع إضافة الزهد موجودة فى اللآلىء المصنوعة للسيوطى ج ٢ ص ٢٤٨ .

٣ — الكفاية ص ١٣٤ .

ولا يقدح فى كلام من قال فى أسانيده وضاع » (١) . ويبدو أن التساهل فى مثل هذه الأحكام كان سمة بارزة بين العلماء . إلا من عرف بالتشدد . وهذا أمر فى غاية الخطر وباب كبير للفساد . لأن التصور الأسلامى لا يتجزأ ، والمحصلة النهائية لا تتعلق بأحاديث الأحكام فقط .

وإننى لأعجب من كلف الرواة من إرجاع كل شىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ... فليس من الضرورى أن يحيط بكل شىء .. ولو نسبوا أحاديث الفضائل إلى الصحابة فقط ، أو التابعين لقبلناها على مضض ، فأما الإصرار على نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشىء عجيب ، وأعجب منه أن يروى عن بعض العلماء هذا القول : «الخبر إذا ورد لم يحرم حلالا ، ولم يحل حراما ، ولم يوجب حكما ، وكان فى ترغيب أو ترهيب أو تشديد أو ترخيص وجب الأغضاء عنه ، والتساهل فى رواته» (٢) ، وقد أفتوا بأنه يجوز أن تؤخذ عن سائر الشيوخ ، وفى هذا التساهل يكمن الداء ، وتنذر الأمور بالبلاء ويصبح الأنسان فى حيرة ، وقلق وعناء .

خامسا : القصاص :

من الذين أكثروا الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القصاصون ، فهم يجلسون إلى العامة ، ويحدثون الناس ، والعامة ينأون عن الفقه ، ويميلون إلى من يتملق غرائزهم ويتقرب إلى مشاعرهم ، وقد عرف القصاص ذلك فتقربوا إليهم مؤثرين رضاهم ، راغبين فى نوال فضل منهم ، آملين فى مكانة بينهم .

---

١ — الفوائد المجموعة ص ٤٣٠ .

٢ — الكفاية ص ١٣٤ .

ومن هنا كثر فى أحاديث القصاص الغرائب والمفارقات ، والتزيد ، جلبا للاستحسان وطمعا فى الثناء .

وقد انتشر القصاصون فى العصر الأموى ، وزادوا فى العصر العباسى ، وإذا كنا ننكر على كبار القوم فما بالنا بضعفائهم وحمقاهم ، ومن الممكن أن تتضح الصورة فى أذهاننا إذا راعينا ما يلى :

١ — أن القاص كان يلهى العامة ويرفق قلوبهم فهو يخاطب مشاعرهم ، وعواطفهم .

٢ — أن الولاة كانوا أحيانا يمكنون لهم لأداء دور فى شغل العامة عن المنازعات السياسية .

٣ — أن أكثر القصاص من الفقراء والمحتاجين الذين يرغبون فى النوال والعطاء

٤ — أن أغلبيتهم لم يكونوا على جانب من الثقافة والفقه .

٥ — الجرأة على الأفتراء ، وخلط الكذب بالصحيح .

روى ابن الجوزى بإسناده قال : «صلى أحمد بن أحمد و بن معين فى مسجد الرصافة فقام بين أيديهم قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحى بن معين قالا : حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال لا إله إلا الله فله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب ، وريشة من مرجان وأخذ فى قصة نحوا من عشرين ورقة ، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحى بن معين وجعل يحى ينظر إلى أحمد فقال له : حدثته بهذا؟ فيقول / والله ما سمعت هذا إلا الساعة فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ثم قعد ينتظر بقيتها ، قال يحى بن معين بيده : تعال .. فجاء متوهما لنوال ، فقال له يحى : من حدثك بهذا الحديث ؟ .. فقال : أحمد بن حنبل ويحى بن معين ، فقال : أنا يحى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط فى

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لم أزل أسمع أن يحى بن معين أحمق ، ما تحققت هذا إلا هذه الساعة ، كأن ليس فيها يحى بن معين وأحمد بن حنبل غيرهما ؟ .. وقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحى بن معين فوضع أحمد كمة على وجهه وقال : دعه يقوم فقام كالمستهزىء بهما» (١)

فالقاص يزعم أمام من يقص عليهم أنه سمع الأمامين أحمد بن حنبل ويحي بن معين فيرفع بذلك من قدر كلامه إذ الكلام بقدر صاحبه ، ثم ليرفع من قدر نفسه إذ يصبح من الذين يحدثهم مثل هذين العالمين . فإذا به أمام الرجلين يكذبانه ، فلو إعترف بكذبه لقضى على نفسه ، وقطع عيشه ، ووسيلة كسبه ، فلابد حينئذ — من تكذيبهما ورميهما بالسفه والضلالة ، ليظل ذا قيمة فى نظر العامة .

وهكذا يرتكب القاص كثيرا من المخزيات المضحكات لقاء عيشة راضية وذكر سائر . وهذا موقف هزلى يكشف عن مدى التدهور الذى وصل إليه القوم آنذاك ، ومدى سيطرة أولئك القصاص على ألباب السوقة ، واستحواذهم على إهتمام العامة .

وقد وضع القصاص أحاديث كثيرة تلقى رواجا لدى العامة ، وإنكارا من العلماء ، وهذا ما جعل العلماء يضيقون بهم ذرعا لأتخاذهم العامة ردءا يحفظهم من نقد العلماء . وأحيانا كانت — العامة — تفرض آراء القصاص وتحمل المنكر من العلماء على قبولها بالتصدى له وتهديده ، ومن وسائل الإفساد

---

١ — الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع — الخطيب البغدادى ص ١٤٩ ، والباعث الحثيث شرح أختصار علوم الحديث لأبن كثير ص ٩٣ ، تحقيق المرحوم الشيخ أحمد شاكر طبعة محمد على صبيح ١٩٥١ م القاهرة .

أن يلجأ صاحب البدعة إلى العامة يستغل بساطتهم وسذاجتهم ويتخذهم حماية وأمنا ، فهم يقبلون منه مفترياته ، ويمنعونه من كل ما يكره ، ويحققون له مآربه .

والتاريخ العربي في العصر الأموى والعباسى وما تلاهما مليء بالنماذج فمن دخل الكوفة فقد غدا محرما عليه أن يذكر عثمان ، وقالوا «من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ – الكوفة – وليقل رحم الله عثمان بن عفان» . وبالمثل تعامل سوقة أهل الشام شيعة فأبوعبد الرحمن النسائى ت ٢١٥ هـ دخل دمشق وكان متشيعا فسئل عن فضائل معاوية – ولم يفطن إلى ما استدرج إليه – فقال ما أعرف له فضيلة فأخذته العامة تدفعه من المسجد ، وداسوه بأرجلهم ، ثم حمل إلى الرملة فمات بسبب ذلك الدوس (١) .

وروى ابن العربي أن أستاذه الفهرى كان يرفع يديه عند الركوع وعند رفع الرأس منه – وهذا مذهب مشهور وفيه أخبار – ولكن أهل البلدة لا يأخذون به ، فتقدم الشيخ للصلاة ففعل ما تعوده من رفع اليدين – فأغضب ذلك الصنيع أهل البلدة حتى أوغر (أبو ثمنه) وهو قائد عسكرى لأنه رئيس البحر – صدور العامة عليه ، وهيجهم يقول ابن العربي – على حد نقل الشاطبي – (فلما رفع الشيخ الفهرى يديه فى الركوع وفى رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه – ألا ترى إلى هذا المشرقى كيف دخل مسجدنا ؟ قوموا إليه فأقتلوه ، وارموا به فى البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبي من بين جوانحى ، وقلت : سبحان الله . هذا الطرطوشى ففيه الوقت ، فقالوا لى . ولم يرفع يديه ؟ . (٢) .

---

١ – طبقات الشافعية – للسبكى جـ ٢ ص ٨٤ .

٢ – الأعتصام جـ ١ ص ٣٥٨ دار عمر بن الخطاب – للنشر والتوزيع – الأسكندرية .

فأولئك قوم يبيحون قتل أمام فاضل لأنه يخالفهم فى هيئة من الهيئات لها سند من حديث وعمل . وقد أستغل القصاص أفن العامة ، وتفورهم من مخالفيهم ، وبعدهم عن المنطق فى كل ما يأتون ، ونأيهم عن العقل — عادة — فى كل ما يصنعون ، وبذلك تكون العامة ردءا يحفظ ، وسوطا يرفع ، ، ومأربا يبتغى ... وفى هذا من الفساد مالا يخفى على ذى بصيرة ...

سادسا : الحسد والتباغض :

كان للمنافسة أثر كبير فى وضع الحديث وهى من شأنها أن تهىء التربة لعوامل الشر من تباغض وتحاسد ، وهذا أمر ملاحظ فى الفرق والأقاليم ، وكل مظاهر الأختلاف التى قسمت الأمة الأسلامية ، فالقدرى يحتج لنحلته بالأحاديث ، والمعتزلى لا تعوزه النصوص وكل حزب بما لديهم فرحون .

فإذا أخذ إنسان شيئا أو نال خيرا حقد عليه قرناؤه ورموه بالأنلك فيما يأتى . ولذلك حين دعا زيد بن ثابت — وهو العالم الثبت — إلى نصرة عثمان إجتمع عليه عصبة من الأنصار وعيروه بما أخذ من عثمان إذ أقطعه حدائق من نخيل ، وحباه بأموال ما كان ليحصل عليها ، وهذا أوغر صدورهم ، وجعلهم ينفضون من حوله ، وتدل صيغة مخاطبتهم لزيد على ما فى صدورهم من كمد :

«أعطاك عثمان عشرة آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك مثل حديقة منها» (١) . فهو قد أخذ أجره فنصره ، وهم لم يأخذوا شيئا فعلام ينصرونه وكأنى بهم وهم يمثلون صدق قوله تعالى (إن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) (٢) .

---

١ — شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٨ .
٢ — التوبة آية رقم ٥٨ .

وربما يرجع جل الخلافات التى وقعت بين الناس إلى الحسد والتباغض ، وهما ناشئان عن أمور دنيوية ، ومنافع شخصية ترفدها مآرب خاصة .

وقد يحاول زعيم أن يطامن من غلواء قائد فينصرف عنه وينضم إلىخصمه ويناصبه العداء فمن زعماء على المشهورين — القعقاع بن شور — وهو شخصية عامة ، وسيد معروف ، قال فيه الشاعر :

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس

هذا الرجل — قعقاع بن شور — كان من شيعة الأمام على رضى الله عنه ووثق فبه الأمام فاتخذه واليا على (كسكر) ، ثم أتى القعقاع أمورا أنكرها عليه على منها (أنه تزوج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم((١) . فلما أراد أن يؤاخذه على ويحاسبه هرب إلى معاوية وأصبح من أنصاره وأعوانه .

وكذلك الشاعر النجاشى الذى كان مع على ثم غدا فى معسكر معاوية ، وقال يهجو أمير المؤمنين :

ألا من مبلغ عنى عليا بأنى قد أمنت فلا أخاف
عمدت لمستقر الحق لما رأيت أموركم فيها إختلاف .

فهو يصف أمور على بالتنازع والأضطراب : وما دفعه إلى هذاالتناقض والأنتقال من على إلى معاوية — غير تضييق على عليه فى شرب الخمر ، ويقال إنه حده فى شرب الخمر فلحق بمعاوية وهجا عليا (٢) .

وهذه أمور طبيعية فى الناس إذا رضى أو إسترضى أثنى ومدح ، وإذا غضب أو أغضب ذم وقدح .

---

١ — شرح نهج البلاغة جـ ٤ ص ٨٧ .
٢ — المرجع السابق ص ٨٩ .

وهذا البغض والتحاسد وراء أحجام النجدبين عن تسمية محمد ، والشيعة لا يسمون أحدا من أبنائهم بأبى بكر وعمر ، وعثمان ومعاوية .

ومن الطرائف أن واليا لمدينة (قم) الإيرانية ، وكان سنيا ، طلب من أهلها أن يحضروا له من بينهم من أسمه أبو بكر . وإلا أنزل بهم العذاب ، فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم . وإجتهدوا ، فلم يروا إلا رجلاصعلوكا حافيا عاريا أحول أقبح خلق الله منظرا أسمه أبو بكر . فشتمهم وقال : جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون على ! وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم أيها الأمير : أصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجىء منه من أسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك ، وعفا عنهم((١) .

فهذا الموقف الساخر إنما نشأ عن الحقد والتباغض ، وكان الناس فى (أصفهان) غلو فى أمر معاوية معاداة لغلو أهل قم . وحين أنكر المقدسى حديثا فيه فضائل معاوية نادى مناد من عرض الطريق : خذوا هذا الرافضى فأقبل الناس عليه (٢).

وكان المتوكل — وهو الخليفة العباسى — يبغض عليا بغضا شديدا حتى جعل من ندمائه رجلا يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ويرقص ، ويقول . قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين (٣) .

والنماذج فى ذلك كثيرة ، والنهازون يعرفون كيف يرضون الخليفة ، أو يسيطرون على أذهان العوام ومشاعرهم بما يحبون ، فيختلقون لهم القصص والأخبار ، والنوادر والأحاديث ... وتلك مهنة رابحة رائجة تدر خيرا وفيرا وتلقى قبولا ورواجا .

---

(١) معجم البلدان — لماتوت الحموى ، ج ٤ ص ١٧٦
(٢) أحسن التقاسيم ص ١٢١
(٣) تاريخ ابو الفراج ٢ ص ١٨٨

وبلغ من الكلف من وضع الحديث والأنتصار به أن يأتى الواضع بالكلام السوقى ، والمعانى السائدة فى مجتمع ما فيجعله حدثيا .

ففى فتنة خلق القرآن وهى متأخرة نجد الرسول ينص عليها ويذكرها ، ويحدد عقوبات للذى يقول بها «كل ما فى السموات والأرض وما بينهما فهو مخلوق غير الله والقرآن ، وذلك أنه كلامه منه بدأ وإليه يعود ، وسيجىء أقوام من أمتى يقولون القرآن مخلوق ، فمن قال منهم فقد كفر بالله العظيم ، وطلقت امرأته من ساعته ، لأنه لا ينبغى لمؤمنة أن تكون تحت كافر . الا أن تكون سبقته بالقول (١) .

فالوضع باد ، والتكلف للمصطلحات ظاهر ، والعجز لا يستره شىء . وهذا القول نوع من الإفلاس الفكرى ، لأن الرجل إذا لم يجد ما يجادل بـه خصمه من حجة لجأ إلى شىء يرهبه به ، فيختلق الحديث الذى يتفق وهواه ، فإن سلم خصمه فقد كفاه الله مشقة الجدل وإن أبى فإنما أثمه على نفسه لمخالفته صريح النص ، والمختلق — فى ذلك — لا يعد نفسه مهزوما لأنه ملتزم وسواه الفاسق ، الناكث لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الواضح أن المصطلح — مخلوق — وقديم — من أثر الثقافة اليونانية ، وقد دخل إلى المسلمين فى بحوثهم الكلامية ؛ فكيف يتناول الرسول مثل هذه القضية ، ويحددها ، ويهدد قوما بها ؟ ، وهذا منطق خبير فالأنسان إذا رد الحديث لسنده أتـوا بسند جيد ، وإذا رده لمتنه ، قالوا . من أين لك أن تحكم على المتن ؟ وهل أحطت بكل المعانى التى تحدث عنها رسول الله ؟ وإن رد بأن الرسول صلى الله عايه وسلم كان لا يعلم شيئا عن هذا وليس فى ذلك من نقص أو عيب؟ قالوا

---

١ — تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة جـ ١ ص ١٣٤ .

يستكثر على النبي أن يعلم ويرمى رسول الله بالجهل ... وكل ذلك إهانة للعقل وإفتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطلب الغلبة بكل وسيلة .

وليت التنافس إقتصر على هذا ، بل إمتد إلى الميادين التالية :

أولا :

التنافس بين أصحاب المهن والأنشطة المختلفة .

وإذا كان رؤس الناس وأعلامهم قد زجوا بالحديث فى منازعاتهم ، وخلافاتهم ، فلا غرو أن يفعل ذلك السوقة فكل صاحب بضاعة يريد أن يروج لها بحديث لأنه يعلم مقدار إيمان الناس بما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ولكي يثبت ثانيا حث الرسول على ما لديه ، وحطه من قدرما مع غيره ، وربما توهموا أن ذلك يزيد من شرف رسول الله صلعم ، ويعلى من قدره . لأنه يعلم المهن ويدرك أسرارها ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يعرف ذلك . فالحاكة والخياطون يأتون بالأحاديث التى تؤيد مذهبهم ، وتجعل لحرفتهم قداسة ومن ذلك ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عمل الأبرار من رجال أمتى الخياطة ، وأعمال الأبرار من النساء المغزل «فى إسناده أبو داود النخعى وهو كذاب . فكأن كل حائك بار ، وهذا حكم مناف للعقل ، ولا ينبغى أن يقحم بالنبي عليه الصلاة والسلام فى مثل ذلك ، فيروى المنافسون للحياكة من أصحاب المهن الأخرى أن رسول الله قال : «من أطلع فى دار حائك خف عقله» وقوله — : «يخرج الدجال معه سبعون ألف حائك»(١)

فيروى المحبون للحياكة «لا تلعنوا الحاكة فأول من حاك آدم» .. فيأتى المنافسون بحديث آخر «لا تشاوروا الحاكة والحجامين ، ولا تسلموا عليهم»..

---

١ — الفوائد المجموعة ص ١٥٤ .

وبخلاء أمتى الحياطون» (١) . ، فهذا حوار فيه ذكر للمثالب ، والمحاسن ، وإحتجاج كل فريق ! بما يزعم — عند نفسه — أنه حديث ، وكيف يرد هذا التناقض على لسان النبى .؟

وأما أصحاب الجزارة فلديهم أحاديث «أن جبريل قال للنبى صلعم : يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك : لا تسلم على الجزار ، ثم قال له فى اليوم الآخر سلم على الجزار ، فهل نسخ الثانى الأول ؟ ولماذا نهى ثم أمر ؟ ولماذا هذا الأضطراب ؟ . أليس هذا من العبث ؟ فيأتى المنافسون بحديث آخر يجمع أصحاب مهن مختلفة «ثلاثة ذهبت منهم الرحمة الصياد ، والقصاب ، وبائع الحيوان» . (٢) ولاشك أن وراء هذه الآثار أغراض شخصية ،ومنافسة غير شريفة ، وأمور لا يبتغى من ورائها وجه الله .

ومن المهن التى وضعت فيها أحاديث ومصدرها المنافسة غير ما ذكرت التعليم فقد ورد فى المعلمين حديث «لا تستشيروا الحاكة ولا المعلمين ، فإن الله سلب عقولهم ، ونزع البركة من أكسابهم» . وإذا سلب الله عقولهم فكيف يعلمون ؟ . وكيف ينزع البركة من أكسابهم ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول (إنما بعثت معلما) . ؟ . ونحن نرى لدى المعلمين البركة وسعة الرزق أحيانا

وأما تجار الثياب والمزارعون فلا يعجزهم أن يأتوا بحديث يرفع من قدر مهنتهم «خير تجارتكم البز ، وخير صناعتكم الحرث» .

فيضع المنافسون حديثا يرد على إدعائهم «شرار الناس التجار والزراع» .(٣)
وهناك أحاديث كثيرة فى هذا الباب تراجع فى المعاملات من أى

١ — المرجع السابق ص ١٥٣ .
٢ — الفوائد المجموعة ص ١٤١ — ١٤٧ .
٣ — الفوائد المجموعة ص ١٦٠ — ١٤١ .

كتاب من كتب الموضوعات . وهذه أهواء شخصية سمحت لأنفسها أنتعبث بالدين ، وتتخذه وسيلة من وسائل النفع ، أو الهدم ...! .

ثانيـــا :

التنافس بين أصحاب الأطعمة والأشربة :

إنتقلت عدوى الأستشهاد بالأحاديث فى كل شىء إلى الأطعمة ،والأشربة ولا بأس من ذلك إذا كان فيه بيان لما يحل أو يحرم ، فذلك يدخل فى حدود بيان ما شرع الله .

أما أن يتطرق الحديث إلى أشياء عابرة لا تقدم ولا تؤخر فذلك أمر يخالف متطلبات العقل .

ومن عجب أن يزج بالحديث فى مثل هذه الأمور التافهة ، فمن غاظه أن يأكل الأنسان فى مكان عام قال فيه «الأكل فى السوق دناءة» .

وأصحاب الرمان يأتون بحديث يزعمون فيه أن رمانهم أصله من الجنة «ما من رمانكم هذا إلا وهو يلقح من رمان الجنة» (١) . وفى هذا أثر للترويج . وتصوير لعقلية ذات صبغة معينة ، وكشف عن عالم نفسى يضج بنوازع متباينة .

وأصحاب البطيخ يدخلون المنافسة فيذكرون حديثا فيه «أن البطيخ ماؤه رحمة وحلاوته مثل حلاوة الجنة» ؛ فإذا كنت لا تحب حلاوة البطيخ ، فلن تدرك حلاوة الجنة ، وإذا كانت حلاوة البطيخ مثل حلاوة الجنة فما أقل قيمتها وما أبخسها من جنة ؟ .

فأنظر إلى هذا الهزء ، وتعجب من هذه الجرأة على الكذب الظاهر لغرض خسيس ، ومأرب دنىء .

١ — المرجع السابق ص ١٦٠ .

وقال ابن الجوزى «لا يصح فى فضائل البطيخ شيء إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكله» (١) . وأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليس فضيلة ، فالأكل ظاهرة إنسانية للحى ، ولا يترتب عليها أحكام .

وأما أصحاب البقول فيقولون عن الفول ترويجا لبضاعتهم «من أكل فولة بقشرها أخرج الله منه من الداء مثلها» . ولماذا بقشرها ؟ . وأى داء يخرج ؟ وهل الداء له جرم ووزن ومقدار ؟ تلك أمور غريبة ومهينة حقا .

ويقولون عن العدس «عليكم بالعدس فأنه مبارك ، فأنه يرق له القلب ويكثر الرمصة» .

وأيضا «قدس العدس على لسان سبعين نبيا» (٢) وكيف يصح ذلك ، والقرآن يصفه مبكتا بنى إسرائيل «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير»(٣) فأيهما نصدق . ؟

وهناك أحاديث عن القرع والخبز والقثاء ، وأما الأرز ففيه حديث يثير الضحك «الأرز منى وأنا من الأرز» و «الأرز فى الطعام كأنه سيد القوم» . ما معنى هذا القول . ؟ هل هناك أرز يقال له الأرز النبوى ، أو نبى يقال له النبى الأرزى ؟ . أفلا يعقلون ؟ ، وهناك أحاديث فى الجبن والحلبة والبقل والجرجير والكرات والباذنجان وقال فيه «إنما الباذنجان شفاء من كل دواء» (٤) «الملح فيه شفاء من سبعين داء» (٥) .

---

١ - المرجع السابق ص ١٦١ .
٢ - الفوائد المجموعة ص ١٦١ .
٣ - البقرة آية رقم ٦١ .
٤ - المرجع السابق ص ١٦٧ .
٥ - المرجع السابق ص ١٦١ .

وهناك أحاديث كثيرة فى اللحم والعنب ، فى العنب ينسبون إلى النبى أنه قال : «فى العنب خمسة خلال : تأكلونه عنبا ، وتشربونه عصيرا ، وتتخذون منه ذبيبا ، وربا ، وخلا» . وأحاديث عن كيفية أكل رسول الله للعنب .

وأما اللحم فأصحابه يروجون أحاديث تنفعهم منها «سيد طعام أهل الجنة اللحم» (١) و «أفضل طعام الدنيا والآخرة اللحم» . وماذا يفعل الرجل النباتى؟ ذلك أمر مرجعه إلى الذوق والعادة والألف ، فليس هناك سيد ولا مسود .

وأما المنافسون فيأتون بأحاديث تعكس نظرتهم ومنها «أن للقلب فرحة عند أكل اللحم ، ومادام الفرح بأحد الا أشر وبطر «وحديث «لا تأكلوا اللحم» (٢) .

بأى الحديثين نأخذ ، الآمر بأكل اللحم أم الناهى عنها ، وكيف يصدر أمران متناقضان عن آمر واحد افلا يعى ما يقال ام هذا محض إفتراء ؟ لا ريب فى ان ذلك أفك مبين وبهتان عظيم ، وأى امرىء يحترم ذاته لا يتحدث فى مثل هذه الترهات فضلا عن نبى كريم ذى قدر ، مشهود له بالحكمة ، والوفاء والكمال والجلال . ! !

وهناك أحاديث عن الديك والحمام والشاه والبقر والجراد والبوم والبيض والبصل ، ولعل أظهر مثل على ذلك ما صنعة محمد بن الحجاج اللخمى ، وكان صاحب هريسة ، فرأى إنصراف الناس عن بضاعته وزهدهم فيها فلجأ إلى الحديث ونسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فى الهريسة «عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله هل أتيت من الجنة بطعام ؟ قال : نعم :

---

١ — المرجع السابق ص ١٦٧ .

٢ — المرجع السابق ص ١٦٩ .

أتيت بهريسة فأكلتها ، فزادت فى قوتى قوة أربعين ، وفى نكاحى نكاح أربعين» (١) . والناس تنشد هذين الأمرين القوة ، والقدرة على النكاح ، ويتطلبون ذينك بكل مرتخص وغال ، فإذا وجدوا فى الهريسة إندفعوا إلى شرائها ، وبذلك يكون صاحب الهريسة قد روج لبضاعته وناله خير كثير وإثم كبير .

وأما بائع الحلاوة فيقول كلاما سوقيا ينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المؤمن حلو يحب الحلاوة» . ومن المؤمنين من لا يحب تلك الحلاوة ويفضل عليها المش والجبن ؛ وهذا شبيه بقول البائع فى أيامنا — الحلو يحب الحلو فذلك ضرب من الدعاية ، ونوع من الترويج للسلعة ، وإن جازت على صغار العقول ، وقليلى التمييز ، . وكثير ماهم .

وهناك أحاديث لأصحاب العسل والتمر والسمك ، وغير خفى أن الداعى إلى كل ذلك عوامل المنافسة ، وأنهم إتخذوا الأحاديث وسيلة للرواج والأعلان وهذا موقف وضيع إذ كيف يستبيح رجل ذو خلق أن يستغل رسول الله فى الترويج لبضاعة ، أو الإشادة بسلعة ؟ فما بالنا بمن ينتمى إلى الأسلام ويدعى الإيمان ؟! ...

وإذا جاز لرجل أن يكذب على رسول الله من أجل سلعة أو حرفة فمن المتوقع أن يكذب بين يدى الحاكم ، يزين له الباطل ، ويبغض له المباح ، ويمكن له فى الأرض ، بل أنه قد يروى الأحاديث التى تؤيد وجهة نظر إمامه أو شيخه .

---

١ — الفوائد المجموعة ص ١٧٦ .

وهذه المنافسة تركت من الأثر مالا يخفى على ذى بصر ، وجرت من الوبال مالا يحد ، وذلك لأنهم حاولوا الأنتصار بأية وسيلة ، فأباحوا لأنفسهم من الوسائل غير الشريفة مالا يخفى وحسبهم أنهم ترخصوا فى الأحاديث ، ولم يرقبوا فى رسول الله حرمة ، وأعظموا عليه الفرية .

الجرح والتعديل :

من الأمور الطبيعية لدى الأنسان أن يرضى عن شيء فيثنى عليه أو ينفر من شيء فيرميه بالنقص ، وذلك من ضرورات الحياة ، ولوازم العيش .

وذلك أن ما يحدث من الأنسان من أفعال أو ما يجرى مجراها لها دلالاتها وتأثيرها ، وهذه الأمور — الدلالات والتأثيرات — تتعلق بمن يخالطهم الفاعل أو يؤثر فيهم ، ولهذا رد فعل من المستقبل لذلك الأثر ، فقد يصادف هوى عنده فيرضى ، وربما أثار ما يكره فيسخط .

ومن هنا ألفينا الأنسان منذ كان له رد فعل لكل ما يتلقاه ، ويحكم على الأشياء من منطلقات عدة .

ولابد أن نلاحظ عدة ملحوظات :

أولا : أن الحدث الواحد قد يحدث حوله إختلاف . فإهتمام الأنسان بمظهره ربما عده بعض الناس بهرجه وتظاهرا ، وإسرافا لا معنى له ، ويرتبون على ذلك أحكاما وقضايا .

وقد يراه بعض الناس من باب إظهار أثر نعمة الله ، والتمتع بالطيبات ، وأخذ الزينة فيحكم بأحكام مخالفة للنوع الأول . ولذا فالحدث ذاته أمر واضح معلوم ، والناس تختلف من مواقفهم — ومنطلقاتهم .

ثانيا : إن الناس تختلف من حيث النوازع والقيم — والعادات والتقاليد فكل فرد عالم قائم بذاته ، فما يرضى عنه إنسان قد يرفضه سواه ، بل إن الإنسان الواحد تتغير أحواله وبإستمرار ، فقد يحسن شيئا فى فترة ، ثم يقبحه بعد حين ، وربما رأى شيئا حسنا ثم إنصرف عنه ورآه مكروها . ولهذا فالأحكام ليست ثابتة نظرا لعدم ثبات مصدرها ، وهذا ما نجده فى كتب الأحكام — إذ يرى إمام شيئا فى فترة من عمره ثم يعدل عنه بعد ذلك . ومن

مجاوزة الحد أن نظن أن الأحكام ثابتة . وأن المعايير نهائية ؛ ولو أننا أدركنا هذا لما وجدنا متعصبا يتعصب لرأى غيره ، أو يبحث عن حجج يؤيد بها رأيا إنصرف عنه صاحبه ، ولما فجعنا وأصابنا الهلع حين نلتقى عالما بيننا يتراجع عن رأى قد إرتآه فى زمن معين ولأصبحنا أقل حدة ، وأقرب إلى التعقل ، والرزانة .

. فليست هناك أحكام ثابتة مادامت مصادرها غير ثابتة .

ثالثا : لابد من إعتبار عامل الزمان والمكان فى الحكم ، فمثلا مشى الرجل عارى الرأس قد يكون مسقطا للمروءة فى زمن مضى ، ولكنه الآن أمر معتاد لا يستنكف عنه جليل أو صغير ، وكذلك الأكل فى الطريق ترد به الشهادة ، وغدا فى زمننا — أحيانا — أمرا ملزما ، وعملا ضروريا ، .

فلكل زمن سماته وملامحه ومن الغفلة أن نجعل سمات زمن حاكمة على الأزمان التالية . إذ أن عوامل الوجود تخالف ذلك ، فضلا عما يترتب عليه من تضمن السابق للاحق وفى هذا قضاء على الحضارة والوجود ، ولا يفتح الباب أمام التجديد والإبداع ، والتبارى فى إظهار المواهب الفردية .

والمكان يسم الأنسان بميسمه ، ويشكل نزوع الذين يقطنونه ، وهذا أمر مشاهد لامرية فيه قديما وحديثا — فى صدر الأسلام . كان البدوى غير القروى وتلقى هذا الخلاف بين أصحاب القرى ، فأهل مكة غير أهل الطائف ، وسكان المدينة يختلفون عن سكان اليمامة ، وهكذا ، وفى العصر الأموى كان الحجاز غير الشام ، والشام غير العراق ، ومصر غير افريقية وهكذا .. فالغناء يراه العراقى خروجا عن السنة ، ويحكم على المغنى بأحكام متشددة بينما لا يرى بأسا فى ذلك علماء الحجاز .

بل بلغ الأمر أحيانا أن يترك العالم الحجازى الحديث الذى يرويه من أجل

تأثير المكان فهذا الإمام مالك بن أنس أمام دار الهجرة ، يروي حديثا فى بيع الخيار عن نافع عن ابن عمر ، وهذا السند من أصح الأسانيد ، ولكنه يترك الحديث لأنه ألفى أهل المدينة على غير ما يروى . فحديث «المتبايعان بالخيار» رواه مالك ولم يعمل به ، وزعم أنه رأى أهل المدينة على العمل بخلافه . (١) فالموطأ قد «أختاره من أقاويل سلف أهل بلده الذين هم الحجة عنده على من خالفهم» وهذا تعبير ابن عبد البر فى كتابه الذى أدارد حول ما فى الموطأ من الآثار .

والغفلة عن إدراك عوامل الزمان والمكان هى التى توقع الناس فى الحيرة وتجعلهم يائسين من الإصلاح ، وهذا ما جعل بعض الصحابة من الذين إمتد بهم الأجل ينكرون عوائد لم تكن مألوفة من قبل ، يقول أبو الدرداء «. لو خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عرف شيئا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة» . (٣) .

والإمام الشافعى كان له فى العراق رأى ومذهب ، فلما إنتقل إلى مصر رجع عن بعض آرائه ، وغدا له مذهبان قديم فى العراق ، وجديد فى مصر .

ومن قبله الإمام أبو حنيفة أفتى وهو بمكة بفتاوى فلما رجع إلى الكوفة رجع عنها ، ويروى أن رجلا سأله عن رأى فوجده قد رجع عنه فقال له الرجل «كيف هذا ؟ فقال — أبو حنيفة — كان رأيا رأيته — فرأيت العام غيره ، (٤) . فهذا أمر طبيعى وإن كان ابن قتيبة يورده على أنه نقيصة فأبن

---

١ — الكفاية فى علم الرواية ص ١١٤ .

٢ — الأستذكار ج ١ ص ٢٢ . تحقيق على النجدى ناصف — طبعة المجلس الأعلى للشئون الأسلامية ١٩٧١ م — القاهرة .

٣ — الأعتصام الشاطبى ج ١ ص ٢٦ .

٤ — تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة ص ٣٧ .

قتيبة من مدرسة تختلف عن مدرسة ابى حنيفة ، وليس فى التراجع تنقص ولا فى العدول عيب ...:

فلابد أن ندرك قيمة الفروق الزمانية والمكانية فى الحكم على الأشياء . ففى إغفال ذلك مشقة كبيرة وإهدار لقيم جديدة ، وخلق نوع من التناقض بين الناس .

والجرح والتعديل على هذا يعد من أجل البحوث التى نهض بها علماء المسلمين للذب عن سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو نتيجة حسنة لتلك الجهود المضنية التى بذلها العلماء فى سبيل تتبع الرواة ، والوقوف على سلوكهم ومذاهبهم ، ومعرفة أهوائهم وخاصتهم .

وعلم الجرح والتعديل شأنه شأن أى علم لم يبدأ مكتمل الملامح ، وإنما مر بعدة مراحل يمكن تحديد معالمها بإختصار على النحو التالى :—

أولا :— عصر الصحابة والتابعين :

نشأ هذا الفن منذ ظهور الأسلام ، فكان صلى الله عليه وسلم يسأل عن أشياء يحب أن يطمئن إليها فى إنسان ما .. وقد سأل عن عقل ما عز حين إعترف بالزنا ، وقال عن بعض الناس (الأحمق المطاع) وقال (بئس أخو العشيرة) .

ومن المعلوم أن أبا بكر وعمر وعليا ، وغيرهم كانوا إذا رأوا فحشا ظاهرا أنكروه وإذا إرتابوا فى أمر سألوا عنه .

وحين كثرت الرواة كان طلاب الحديث إذا حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبصرة أو الكوفة مثلا ، ذهبوا حيث يقيم الصحابى فيسمعون منه ، ولكننا لا نعدم قولا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل فى هذا الباب .

ومن الصحابة الذين عرفوا بالحديث فى هذا :

عبادة بن الصامت ت ٣٤ هـ وعبد الله بن عباس ت ٦٨ هـ وأنس بن مالك ت ٩٣ هـ ومن كبار التابعين الذين أسهموا فى هذا :

سعيد المسيب ت ٩٣ هـ والشعبى ت ١٠٤ هـ وابن سيرين ت ١١٠ هـ وقد فشت فى هذا العصر — فوق الفتن والقتال — الحديث من غير إسناد ، وفى هذا إدعاء ، وقطع للتتبع .

ولذلك قال هشام بن عروة لرجل : «إذا حدثك رجل بحديث فقل : عمن هذا» (١) .

وفشت الأحاديث المرسلة ، وعرف سعيد بن المسيب بالإرسال ، ووقف العلماء منه ، ووثقة الشافعى (٢) وهذا بداية التساهل ، لأننا إذا وثقنا فى المرسل فما موقفنا فى غيره ؟ .. ولا سيما والعامة من المحدثين يتعلقون بالشبهة ، ويقلدون الثقات ، ولا يمكن الأطمئنان إلى إرسالهم .

وعرف الإرسال عن الزهرى فهو يقول : «قال ابن عمر» ولم يسمع منه وإنما حدثه سالم بن عبد الله بن عمر «وكذلك الحسن البصرى» .

وقد تتبع العلماء هذه المراسيل فوثقوا منها ما رأوه ثقة ، وضعفوا ماثبت ضعفه عندهم ، وكانوا ينصون عليه حتى لا يشتبه على أحد من بعد .

وما أحسن هذه الكلمة التى قالها الأوزاعى لتلميذه : «تعلم من العلم مالا يؤخذ به ، كما تتعلم ما يؤخذ به (٣) . وهذا موقف علمى ليدع الأنسان عن بينة ، ويقبل ما يقبله عن بيئة . فيكون على علم بما يدع وما يقبل .

---

١ — الجرح والتعويل لابى حاتم الرازى جـ ١ ص ٣٤ طبعة حيدر أباد ١٣٧٥ هـ .

٢ — أنظر فى كتاب (الكفاية) باب فى مراسيل سعيد بن المسيب ومن يلحق به من كبار التابعين ص ٤٠٤ .

٣ — الكفاية ص ٤٠٢ .

ويقول ابن المبارك إنى لأسمع الحديث فأكتبه وما من رأيى أن أعمل به ولا أن أحدث به ، ولكن أتخذه عدة لبعض أصحابى» .

ففى هذه الفترة إرهاصات وبدايات ، ولم تأخذ شكلا جدا لكثرة الصحابة وكبار التابعين ، ووفرة الثقة ، وعدم المجاهرة بالكذب . ولسبب موضوعى وهو أن طبيعة الأشياء تقضى أن يبدأ العمل صغيرا ثم يثمر ، ولا يمكن أن نتوقع لأى علم أن يبدأ كاملا ، فلابد من المحاولات ، والتجارب حتى يستوى الشىء تاما .

ثانيا :— البداية الجادة :

من ١٥٠ ه إلى ٢٥٠ ه

في هذه الفترة نشط العلماء فى تتبع الرجال ، وبيان أحوالهم ، ولا سيما وقد حدثت تطورات سياسية من سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ١٣٢ ه ، والصراع الدائم بين الشيعة والمجتمع الأسلامى ، والتطاحن بين العلويين والعباسيين . وهذا باب كبير للكذب ، والتكثر ، والأدعاء ، فلابد من تلمس وسيلة للتعرف يمكن من خلالها السيطرة — قدر المستطاع — على الرواية وضبطها . فهذا أمر ضرورى وحيوى .

ومن الأسماء الكبيرة التى جدت فى كشف مثالب الناس : شعبة ت ١٦٠ ه ، وكان لا يروى إلا عن ثقة ، ومالك بن أنس ت ١٧٩ ه ، وهشام الدستوائى ت ١٥٤ ه ، والأوزاعى ت ١٥٧ ه ، وسفيان الثورى ت ١٦١ ه الذى أظهر الغلظة على الكذابين وتصدى لهم بالفعل بعد القول فكان يستعدى عليهم السلطان ، ويتصدى لهم ويعرض نفسه للسوء حتى قيل فيه : «ما رأيت رجلا أصفق وجها فى ذات الله من سفيان الثورى رحمة الله» (١) .

١ — الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث لأبى أحمد بن عدى الجرجانى ج ١ ص ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية) رقم ٩٥ مصطلح .

وهو القائل «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ» (١) ، وكان من الطبيعى أن يبدأ هذا العلم بالجرح إذ القاعدة فى المجتمع إستصحاب الأصل والأصل هو ظاهر الصلاح ، والأخذ بما بدا من سمات الخير ، فلم يهتموا قبل ذلك بإحصاء الزلات ، وتتبع العورات ، ولكن لما فشا التقول ، وغدا الحديث مضغة فى الأفواه كان لابد من هذه الوقفة .

ومن الأسماء التى تألقت فى هذا العصر يحى بن سعيد القطان ت ١٩٨ هـ ، وعبد الرحمن بن مهدى ت ١٩٨ هـ قال عنه على بن المدينى ت ٢٣٤ هـ «ما رأيت أحدا أعلم بالرجال منه» (٢) .

وقد ترجم له ابن حبان فى الثقات وقال عنه : «كان من سادات أهل زمانه حفظا وورعا وفهما وفضلا ودينا وعلما ، وهو الذى مهد لأهل العراق رسم الحديث وأمعن فى البحث عن الثقات وترك الضعفاء ، ومنه تعلم أحمد ويحى وعلى وسائر أئمتنا ، وكان إذا ترك رجلا تركته الأئمة . وهذا فرط ثقة . وإن كان أسلوبا لا يجدى فى البحث العلمى ، فحاضر الحضارةالأسلامية مثل المتابعة والأخذ من غير فكر ، وإعتماد اللاحق على السابق والتسليم المطلق فى كل شيء فعبد الرحمن بن مهدى من القلائل الذين أسسوا هذا العلم،ونالوا بذلك الثقة من الأئمة ، فقد كان حافظا أملى من حفظه عشرين ألف حديث .

ويفرق على بن المدينى بين عبد الرحمن بن مهدى ويحى بن سعيد بقوله :

«كان يحى بن سعيد أعلم بالرجال وكان عبد الرحمن بن مهدى أعلم بالحديث «فإذا إجتمعا هذان العلمان على ترك راو تركه الناس . فأحدهمايعرف

---

١ — الكفاية ص ١١٩ .

٢ — تذكرة الحفاظ للذهبى ترجمة يحى بن سعيد جـ ١ ص ٢٧٥ : ٢٧٦ .

التاريخ ، وخفايا الأمور ، والثانى يفقه الفروق بين الأحاديث ، ويميز بينها ويعرف الغث من السمين ، وهذا نقد موضوعى .

يقول ابن المدينى : «إذا إجتمع يحى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدى على ترك رجل لم أحدث عنه ، فإذا إختلفا أخذت بقول عبد الرحمن لأنه أقصدهما ، وكان فى يحى تشدد» (١) . ولو جاء رجل يتشدد لأخذ برأى يحيى بن سعيد وترك رأى عبد الرحمن لتساهله ، فهذا يرجع للموقف الخاص والشخصية .

وقد وصل الأمر ببعض العلماء فى هذا العصر أن يعلن رأيه فى أخيه ، ويقول :

«لا تأخذوا عن أخى» (٢) ؛ وهذا يؤثر الحق على أواصر القربى ، فالحق أحق أن يتبع ؛ ولا يدفعنا حب أحد إلى محاباته ، والتجاوز عن خطئه العلمى.

ولكن مشكلة نشأت فى هذا العصر ، إذ طرح سؤال : هل يجوز أن يغتاب المؤمن ؟ وقد وجد بعض الناس فى ذلك حرجا ، إذ كيف يستحلون لأنفسهم أن يطلقوا ألسنتهم فى أعراض المسلمين ولو بالحق ؟ ..

ولكن شعور العلماء بالحرج زال شيئا فشيئا حين قارن العلماء بين مايترتب على سكوتهم من سريان الكذب ، والعمل بالباطل ، وقدح فى رجل عرض نفسه لذلك ، فوجدوا الكلام عن الكذابين أقل ضررا فأباحوا لأنفسهم هذا .

ويمكن أن نتلمس أثر هذا التحرج من أسئلة أعلام الجرح والتعديل

---

١ - تراجع هذا المنقول فى تذكرة الحفاظ ج ١ من ص ٣٠١ : ٣٠٣ .

٢ - صحيح مسلم شرح النووى ج ١ ص ١٢١ .

لأساتذتهم فعبد الرحمن بن مهدى يقول : «سألت شعبة وابن المبارك والثورى ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب فقالوا : أنشر فأنه دين» .

وهذا الموقف يقفه قرينه يحى بن سعيد إذ يقول «سألت سفيان الثورى وشعبة ومالكا وابن عيينة ، عن الرجل لا يكون ثبتا فى الحديث فيأتينى الرجل فيسألنى عنه ، قالوا : أخبر عنه أنه ليس يثبت» (١) .

ويسأل الأمام أحمد تلميذ له فيقول : «قلت لأحمد بن حنبل أنه يشتد على أن أقول فلان كذاب ، فقال أحمد : إذا أسكت أنت ، وسكت أنافمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم» (٢) .

وقال بعض الصوفية لعبد الله بن المبارك حين سمعه يتكلم فى بعض الرواة : «يا أبا عبد الرحمن تغتاب ؟ .. قال : أسكت . إذا لم تبين كيف يعرف الحق من الباطل ؟ ! !» (٣) .

وحين أكثر يحى بن سعيد من التشدد فى الأمر أنكر عليه بعض الناس وقالوا له : «أما تخشى الله أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال : لأن يكون هؤلاء خصمائى أحب إلى من أن يكون خصمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لم حدثت عنى حديثا ترى أنه كذب (٤) ؟»

وبذلك تكون معالم العلم فى هذه الفترة قد وضحت ، وتجشم الرواة الصعاب فى سبيل التصدى للكذابين ، والحرج من إعلان عورة المسلم ، فتوفر لمن جاء بعدهم مادة غزيرة ، ورفع عنهم الحرج ، وقلت المشقة .

١ - المرجع السابق ص ٩٢ .
٢ - الكفاية ص ٤٦ .
٣ - الكفاية ص ٤٥ .
٤ - الكفاية ص ٤٤ .

ثالثا : دور التأليف :

بدأ هذا الطور مع نهاية المرحلة السابقة ، وقد إتخذ التأليف الطابع المعتاد إذ بدأ بداية متواضعة ثم كبر ونما ، ثم أكتمل وتم ، وهذا أمر مشاهد فى كل الصنائع والعلوم والفنون .

فللمتقدم فضل المبادرة والمحاولة وللمتأخر فضل التتميم والأكمال ، وليس النقص فى عمل الرائد يقل من قيمته ، ولا الزيادة فى عمل المتأخر ترفع من قدره ، فلولا المتقدم ما كان المتأخر ، وليس معنى هذا أن المتأخر على المتقدم أعتمد فقط ومنه أخذ ، وتجنب خطأه ، وما وقع فيه وقوم من عمله حين أبصر تقصير سواه .

أقول هذا مبادرا حتى لا يظن أحد أن صاحب الكتاب الكبير تربو منزلته على صاحب البداية الصغيرة !

ولعل من أوائل الذين كتبوا فى الجرح والتعديل محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى ت ٢٣٠ هـ ويحى بن معين ت ٢٢٣ هـ وعلى بن المدينى ت ٢٣٤ هـ وأحمد ابن حنبل ت ٢٤١ هـ ، ثم البخارى ت ٢٥٦ هـ ومسلم ت ٢٦١ هـ وأبو زرعه ت ٢٦٤ هـ وأبو داود السجستانى ت ٢٧٥ هـ .

وفى القرن الرابع ابن حبان ت ٣٥٤ هـ صاحب الثقات ، وفى القرن السادس ابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ والذهبى ت ٧٤٨ صاحب ميزان الأعتدال وسير أعلام النبلاء ، وتاريخ الأسلام وابن كثير ت ٧٧٤ هـ صاحب التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل وفى القرن التاسع نجد ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ يؤلف تهذيب التهذيب فى إثنى عشر جزءا ولسان الميزان ستة أجزاء بالإضافة إلى شرحه المفيد لصحيح البخارى وتعريفه بكل رواية .

وفى القرن العاشر نجد السيوطى ت ٩١٠ هـ وله كتب (النكت البديعات) و (الوجيز) و (اللآلىء المصنوعة) فى الأحاديث الموضوعة(ومحمد بن يوسف الشامى ت ٩٤٢ هـ وله الفوائد المجموعة فى بيان الأحاديث الموضوعة(وعلى بن محمد بن عراق ت ٩٦٣ هـ وله كتاب (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة) جمع فيه ما قاله الجوزى والسيوطى ومحمد بن طاهر الفتنى ت ٩٨٦ هـ وله (تذكرة الموضوعات) أخذه من كتب السيوطى .

وفى القرن الحادى عشر كتب الملا على قارى ت ١٠١٤ هـ (تذكرة الموضوعات) .

وفى القرن الثانى عشر كتب الشيخ محمد بن أحمد السفارينى الحنبلى ت ١١٨٨ هـ (الدور المصنوعات فى الأحاديث الموضوعات) .

وفى القرن الثالث عشر كتب محمد بن على الشوكانى ت ١٢٥٠ هـ(الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة) وهو كتاب جيد لأنه جمع فيه ما كتبه ابن الجوزى والصفانى والجوز قانى والقزوينى ومقاصد السخارى ، والذيل على موضوعات ابن الجوزى للسيوطى ، واللآلىء المصنوعة وتخريج الأحياء للعراقى والتذكرة لأبن طاهر الفتنى ، وإستفاد من الكتب التى وضعت فى الضعفاء والكذابين مثل مصنف ابن حبان ، والعقيلى والأزدى والدار قطنى والحاكم وابن عدى والذهبى ، ولذلك فقد إعتمدت عليه كثيرا فى تخريج بعض الأحاديث .

وفى القرن الرابع عشر كتب عبد الحى بن عبد الحميد الكندى ت ١٣٠٤هـ (الأثار المرفوعة فى الأحاديث الموضوعة) وكتب محمد بن خليل القاوقجى ت ١٣٠٥ هـ كتاب (اللؤلؤ الموضوع فيما قيل : لا أصل له ، أو بأصلهموضوع ومحمد البشير ت ١٣٢٥ هـ .

هذه أهم الجهود فى هذا العلم الجليل ، ومنه يتضح أن العلماء لم يخشوا فى الحق لومة لائم ، وكانوا يبتغون وجه الحق وتحرير حديث الرسول من كذب صاحب البدعة أو إختلاق ذى الهوى ، وهذه غاية شريفة نصبوا أنفسهم لها ، وبذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال من الوقت والنفس والأهل ، حتى غدا هذا العلم من سمات الحضارة الأسلامية ، فهو إلى حد كبير نقد موضوعى يتصل بموضوع جليل وخطير ، هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مراتب الجرح والتعويل :

لا يمكن القول بأن الناس على درجة واحدة فى العدالة أو الجرح ، فمنهم الذى توفرت أسباب عدالته ، ولم تظهر عليه من الدلائل ما تسلبه هذه الثقة ، ومثل هذا ألا يسوى بينه وبين من قلت عدالته ، وكذلك من جرح من الناس يتفاوتون فيما بينهم ، وقد أستخدم العلماء مصطلحات تدل على مراتب متنوعة

أولا : مراتب الجرح :

١ — تكون بكل ما يدل على المبالغة فى الجرح مثل (أكذب الناس ، ركن الكذب) ، ومن عجب أن ترد هذه الصيغة على لسان على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صحابى جليل مثل أبى هريرة ، فقد نسب إلى الإمام على أنه قال «ألا إن أكذب الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أبو هريرة الدوسى» (١) . ولو صحت هذه العبارة لدلت دلالة خطيرة على الحالة السيئة التى كانت تسود الجو العام أيام الصحابة ، وإن كنا نشك فى ورودها على لسان رجل جليل مثل الإمام على رضى الله عنه فى رجل جليل مثل أبى هريرة

١ - شرح نهج البلاغة جـ ٣ ص ٦٨ .

فالقائل أجل من أن ينحدر هذا الإنحدار كله ، والمقول فيه أجل من أن يكون على هذه الصورة ، ولكن قاتل الله شهوة التعصب ، وحب تجريح المخالفين من أصحاب الأهداء والنحل .

٢ — تكون بالكذب أو الوضع نحو وضاع ، كذاب ، وهى وإن دلت على المبالغة لكنها دون المرتبة الأولى .

٣ — تكون بكل ما يدل إتهامه بالوضع أو الكذب مثل (متهم بالوضع أو الكذب) أو (يسرق الحديث) أو (هالك ، متروك ، ليس بثقة) .

٤ — تكون بما يدل على ضعفه الشديد مثل (رد حديثه ، طرح حديثه ، ضعيف جدا ، ليس بثقة) .

٥ — ما يدل على تضعيفه أو إضطرابه فى الحفظ مثل (مضطرب الحديث لا يحتج به أو ضعيف ، له متكابر) .

٦ — تكون بوصف الراوى بما يدل على ضعفه مثل (ليس بذاك القوى فيه مقال ، ليس بحجة ، فيه ضعف ، غيره أوثق منه) .

ثانيا : مراتب التعديل :

١ — ما يدل على المبالغة (أوثق الناس ، أضبط الناس ، لا يسأل عنه) .

٢ — ما يؤكد الثقة بأية صفة سواء آكان باللفظ أم بالمعنى مثل (ثقة ثقة ثقة حافظ) .

٣ — ما يدل على العدالة من لفظ يشعر بالضبط مثل (ثبت ، متقن ، حجة ، امام) .

٤ — ما يدل على التعديل والتوثيق من غير دلالة على الضبط والأتقان (صدوق ، مأمون ، لا بأس به) .

٥ — ما يدل على صدق الراوى ولايدل على ضبطه (محله الصدق ، صالح الحديث) .

٦ — ما يشعر بقربه من التجريح مثل : (شيخ إن شاء الله) و (ليس ببعيد إن شاء الله) .

وعلى هذا فالدرجات متفاوتة فى مراتب الجرح والتعديل ، ونلاحظ أن أدنى مراتب الجرح تقترب من أدنى مراتب التعديل ، ولذلك فيمكن تقسيم هذه المراتب إلى ما يلى :

١ — ما يحتج به وهو ما جاء فى المراتب الأربعة الأولى من التعديل .

٢ — مالا يحتج به وهو ما جاء فى المراتب الأربعة الأولى من التجريح .

٣ — ما يعتبر بحديثه فيذكر على سبيل العظة ، والأستئناس ويشمل الدرجات أرقام ٥ و ٦ من كلا النوعين .

ولكى تتم الصورة نرى أنه لابد من التعرض لكتابين فى الجرح والتعديل بإختصار :

أولا : الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ت ٣٢٧ ه :

ولد الإمام عبد الرحمن بن أبى حاتم بالرى عام ٢٤٠ ه وأخذ العلم على كبار علماء عصره وكان منهم أبوه الأمام أبو حاتم الرازى ، وقد إجتهد هذا الإمام فى طلب العلم فلم يدع فرصة إلا إنتهزها ، وسانحة إلا اهتبلها ، حتى أنه لم يكن يجد وقتا لطعامه ، وياليتنا نأخذ من هؤلاء الأعلام قدوة ، ولكننا نريد أن نكون علماء ولم نسلك سبيل العلم ، ونحب أن نحمد بما لم نفعل .

وكتاب الجرح والتعديل جاء فى ثمانى مجلدات مسبوقة بمقدمة جليلة الفائدة ، قصرها ابن أبى حاتم على التعريف بالجرح والتعديل ، وضرورة الأحكام إلى السنة ، والأحتياج إلى معرفة الصحيح من السقيم ، وذلك مرتبط

بمعرفة الرواة ، وعلم الدراية ، ثم أخذ فى ذكر طبقات الرواة ، وذكر عدالة الصحابة ، وتكلم عن التابعين ، وأرخ لأئمة النقاد وترجم لهم ، وضمن المقدمة قضايا تعرب عن ثقافة واسعة ، ومعرفة عريضة عميقة ، وذكاء حاد وتوفر على المادة .

أما متن الكتاب فقد إستفاد مؤلفة من الكتب السابقة عليه فى فنه فنقل نصوصا كثيرة من أبيه ، وأبى زرعة الرازى وعبد الرحمن بن مهدى ويحى بن سعيد القطان وسفيان الثورى وغيرهم .

وفى الكتاب هذا ميزة حيث لم يقتصر مؤلفة على رواية أقوال أئمة هذا العلم من السابقين عايه ، بل نقل — أيضا — آراء المعاصرين له ، فجاء مرجعا وافيا الأمتداد التاريخى والثقافة المعاصرة للمؤلف .

وميزة أخرى نفتقدها فى كثير من الكتب العامة ، فقد يكون المؤلف عالما فاضلا جمع فأوعى ، ولكنه غير جرىء فى الحق فلا يستطيع أن يقول رأيه علانية ، أو تكون ملكة النقد عنده ميتة فيكتفى بالجمع والجلب من غير أن يعرف ما يحتوى كتابه ، ولا إختلاف العلماء فى القول ولكن ابن أبى حاتم كان ناقدا شجاعا فأخذ أشياء على علماء أجلاء لهم مكانتهم مثل محمد بن اسماعيل البخارى وغيره .

أما منهجة فقد رتب أسماء الرواة حسب ترتيب حروف المعجم ، فبدأ بالهمزة هكذا : (باب أحمد (باب إبراهيم) (باب اسماعيل) ثم يأتى على كل الرواة الذين يحملون أسم (أحمد) ثم (إبراهيم) حتى يأتى عليها ، وإذا كثرت الأسماء فى (أحمد) مثلا ثنى بالحرف الأولى من الأب فيقدم من أول أسم أبيه هذا الحرف ثم الباء حتى ينتهى ، فإذا زادت الأسماء أخذ فى الأعتبار أسم الجد كما فى (باب محمد بن عبد الله) .

وبعد أن أنتهى من الأسماء المعلومة ، وجد أن هناك رواة لا يدخلون فى التقسيم السابق فانشأ ستة أبواب :

الأول : لمن عرف بأبن كذا (كأبن مالك وأبن هانىء) مثلا .

الثانى : من إشتهر بأنه أخو كذا (أخو بنى فلان) .

الثالث : للمبهمات ، وفيه ترجمتان فقط وهما (رجل عن أبيه) و (مولى سباع) .

الرابع : من عرف أبنه ولم يعرف أبوه . وهذا عكس الباب الأول .

الخامس : من لم يعرف إلا بكنيتها من النساء .

السادس : من تعرف بكنيتها من النساء .

والكتاب بهذا هو دائرة معارف متقدمة فى ذلك الزمن الأول من النصف الأول من القرن الرابع ، ويكفى أنه ترجم لما يقرب من عشرين ألف ترجمة وهو بهذا أصل من الأصول ذلك العلم ، وقد أفاد منه كل من جاء بعده من العلماء .

ثانيا : ميزان الأعتدال فى نقد الرجال :

للذهبى ت ٧٤٨ هـ ...

من الأئمة الذين يشار إليهم بالبنان ذلك فهو العالم الثقة الحافظ محمد بن أحمد الذهبى ، التركمانى الأصل ، فهو من أهل (ميافارقين) .

هذا الرجل غير عربى الجنسية ، ولكنه المسلم لسانا وقلبا إستطاع أن يكون إماما تعنو له الجباه وتقدره العلماء ، فقد إستطاع بجده ونشاطه ودأبه ، وحرصه على العلم أن يحصل ويفهم ، ثم يؤلف إنتاجا غزيرا مفيدا يقارب المائة ، جلها كتب تنوء بتأليفها لجنة من العلماء فى عصرنا هذا .

ولو أننا إستعرضنا أسماء بعض كتبه لتعجبنا من هذا الفيض العميم ، والعلم

الغزير ، فمن مؤلفاته (دول الأسلام) و (المشتبه فى الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب(و (تاريخ الأسلام الكبير) لايزال بعضه مخطوطا و (سير أعلام النبلاء خمسة عشر مجلدا و (تذكرة الحفاظ) مطبوع فى أربعة أجزاء .

والذهبي كان رجلا جادا فى طبعه ، متشددا فى قوله ، ولذلك لم يقصر كتابة على ذكر الضعفاء والمتروكين ، وإنما ذكر بعض الثقاب الذين فيهم مقال ، فتكلم فى من أخرج لهم البخارى ومسلم لأدنى تجريح ، وأهون قول .

ومن الغريب أن هذا العالم الجاد المتشدد لم يتطرق شكة إلى أحد من الصحابة بينما نجد من دونه علما ودراية يتطاول على الصحابة مثل الشيعة ومن لف لفهم ، ويكفى أن نقرأ كتابين عن أبى هريرة أحدهما لمؤلف شيعى هو عبد الحسين والثانى شيخ سنى هو محمود أبو ربه ، لنعرف الفرق بين مناهج الرجال ، وكيف يكون النقد .

ووثق الذهبي أيضا الأئمة الأعلام من الأمصارفقهاء مثل : الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم وقال عنهم : «فأن ذكرت أحدا منهم فأذكرهبالإنصاف وما يضره ذلك عند الله ، ولا عند الناس .

وقد قسم الرواة إلى هذه الأقسام الفنية :

١ — الرضاعون المعتمدون .

٢ — الكذابون الذين يدعون السماع ولم يسمعوا .

٣ — المتهمون بالوضع .

٤ — الكذابون فى لهجتهم ، وليس فى الحديث النبوى .

٥ — من كثر خطؤهم وترك حديثهم ، ولم يعتمد على روايتهم .

٦ — من فى دينهم رقة ، ، وفى عدالتهم وهن .

٧ — المحدثون الضعفاء لوهمهم ، والذين قبل حديثهم فى الشواهد ، والأعتبار ، لا فى الأصول والأحكام .

وهذا النوع جمع أشتاتا من الناس منهم الشيوخ المستورون ، والمجهولون والثقات الذين لهم بدعة ، والثقات الذين تكلم فيهم من دونهم .

ثم رتب الأسماء للرجال حسب حروفهم المعجم ، وإلتزم ذلك فى اسم الأب والجد ولذلك فمن اليسير الرجوع إلى الذهبى دون غيره حيث لم يلتزم الترتيب عادة ، فإذا ذكر الراوى أتبعه بذكر من ضعف وقوله فيه وذكر نموذجا له .

ولما كان الذهبى متأخرا ، وهو بطبعه واسع الأطلاع ، فقد توفرت له مادة علمية لا نظير لها ، فأفاد منها إفادة جيدة ، وإستخدمها إستخداما حسنا لوضوح ذهنه وقوة الذهبى لأنه جمع — تقريبا — جل ما فى الكتب المتقدمة عليه .

الجرح والتعديل ماله وما عليه :

هذا العلم الجليل القدر الذى أنفق فيه العلماء أعمارهم وأموالهم ، والذى أفاد السنة إفادة كبيرة غير منكورة ،لا يمكننا أن نأخذ أقواله حكما مسلما لا مرية فيه وإنما نتحفظ على ماتحوم حوله الشبه ، وينبىء عن نية غير خالصة لوجه العلم ، ولا مبتغى فيها وجه الله .

وليس ما نقوله نابعا من حب الشك فقط ، وإنما نتيجة لأعمال الذهن ، وفهم طبائع الناس، فلا يمكن — علميا — أن تغفل الخلاف الفقهى ، أو إفتراق الرأى، أو تدابر المزاج والشيم ، أو الحسد وما يحمله من خلال منفرة

وبادىء ذى بدء لابد أن ننبه إلى أمرين مهمين — فى نظرى — :

أولا :

المفروض أن تتسم جل الأحكام التى حفلت بها كتب الجرح والتعديل بالصواب والبعد عن الذاتية ، وأن يكون أقلها أحكاما ذاتية أملتها عوارض النفس وشهوات الغلبة .

ومن هنا فلا يجوز أن نبرىء الأحكام من هجنة الذاتية ، ولا نرفضها لما يعلق بها من أمر لا محيص عنه .

وإذا كان من العسير — عمليا — أن نفصل بين الباحث ومعتقده ، ولا سيما فى أمر يتصل بالنفس ، فلابد أن نؤمن بتأثير الأسباب غير الموضوعية فى الأحكام التى تصدر عن الأنسان مهما أحاط لنفسه ، ونأى بذاته عن التأثر .

وتتضح هذه الأحكام فى الموالاة فى النحلة ، والمناصرة فى المذهب ، أو الأختلاف الفكرى وتدابر الرأى .

فرجال الحديث لهم مواقفهم من الصوفية ، والقدرية والمرجئة ، وهذا غير خفى فى تراجم الرجال حين يحتد المترجم ، ويصوغ رأيه فى عبارات تقطر ذاتية ، وتفيض تأثرا بما يمور فى ذاته ، ويهتاج به صدره .

ثانيـــا :

لا يوجد الأنسان الذى يرضى عنه جميع الناس نظرا لأختلاف المزاج والطبائع وبالتالى فالحكم بالعدالة ليس معناه نقاء الشخص من كل عيب ، وأن ذاته مسلمة لا شبهة فيها ، وإنما معناه أنه ظاهر الصلاح ، لم يقف الناس منه على عيب قادح .

وكل أنسان — فى نظرنا — فيه سمات خير ، وصفات شر ، ولا ينبغى أن نفهم من الجرح خلو المجروح من كل محمدة ، ومزايلته لكل فضيلة . .

وكذلك التعديل ، فالرجل المعدل ليس معناه خلوه من أية شائبة ، فكل إنسان فيه نقائص ، ومن طلب عيبا وجده ، وقد أدرك هذا الأمر سلفنا الصالح يقول سعيد بن المسيب «ليس من شريف ولا عالم ، ولا ذى سلطان إلا وفيه عيب لابد . ولكن من الناس من لا تذكر عيوبه» . (١)

وإنما الأمر — عندى — على الغالب ، فمن غلبت ملامح صلاحه الظاهرية حكم له بها ، وليس ذلك بحاملنا على أن نجزم بتنزهه عن إقتراف الشر .

ومعنى ما قدمت أننا يجب أن لا نأخذ الأحكام مأخذ اليقين ، وإنما نسترشد ونتبين ، ثم نرجح ، ونحكم بقية ما معنا من مقاييس..

وهناك أمور هامة يجب مراعاتها عند النظر إلى الجرح والتعديل ، وهذه الأمور نجملها فى الملحوظات التالية :

١ — قد يكون العدل نتيجة إنخداع فى مظهر :

فيبدو الراوى فى صورة حسنة وهيئة محببة فيقبل الناس منه ما يرويه إعتمادا على ظاهره الطيب وحسن سمته (قال رجل لأحمد بن يونس / عبد الله العمرى ضعيف قال (أحمد بن يونس) إنما يضعفه رافضى مبغض لآبائه ، ولو رأيت لحيته وخضابه وهيئته لعرفت أنه ثقة) .

ويعلق الخطيب البغدادى على هذا الأمر بقوله : فاحتج أحمد بن يونس على أن عبد الله العمرى ثقة بما ليس حجة ، لأن حسن الهيئة مما يشترك فيه العدل والمجروح» (٢) .

---

١ — الكفاية ص ٧٩ .

٢ — الكفاية ص ٩٩ .

وهذا أمر كثير وروده فى كتب التراث حيث ينخدعون بالمظهر المتفق مع سيما الصلاح ، وبادى الزهد والأعتدال . فما أسهل أن يغير المرء من هيئته لتتفق مع ما يحبه الناس ؛ ومن الخطل أن نحكم على معتقد بشىء خارجى ظاهر والله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صورنا .

٢ — الحكم بالجرح لعمل لا ينقص من القدر :

لما كانت الناس تختلف فى الطبائع فمنهم المتشدد والسمح ، والكز ومن فيه سجاحة ومن يتصور أن العلم لابد أن يرتبط بأخلاق معينة خلقها فى وهمه ، فإذا فعل العالم شيئا بسيرا هينا أسقط مرؤته ، ووصمة بالجرح ، ورد حديثه .

التجريح بسبب الغيرة والتنافس بين العلماء

الحكم بالجرح والتعديل قد لا يكون موضوعيا — وذلك كثير — لأنه يرجع إلى أسباب ذاتية ، ومواقف خاصة ، ولا سيا إذا تحكمت الأهواء ، وتدابرت الآراء .

ومن هنا فيجب أن لا نأخذ كل ما يقال على أنه صواب لامرية فيه ، إذ لابد أن تعرف شخصية المعدل أو الجارح ، وتقف على ميوله ورغباته ، ثم تنظر إلى المجروح والمعدل ما شخصية كل منهما ، وما مدى إتفاقه مع المعدل أو الجارح أو إختلافه ...

فكثير من الأحكام التى توجد فى كتب الجرح والتعديل إنما نشأت عن موقف خاص ، أو إختلاف مذهب ، أو منافسة على أمر من الأمور . فأهل الحديث يلقبون بالحشوية ، والثابتة ، والمجبرة (١) ، وسموا بالغثاء — وهو ما

١ — تأويل مختلف الحديث ص ٥٥ .

يحمله السيل من زبد ووسخ — وبالقثر — وهم سفلة الناس — فهذا النبز والقول الجارح من دوافع المخالفة والبغض .

وإذا سيطر حب المذهب ، وإبتعد المرء عن الموضوعية إنطلقت الأحكام على غير هدى ترمى المخالف ، وتشوه صورته فهذا عمر وبن عبيد المفكر المعتزلى حين يخبره من يجالسه برأى من يخالفه — وهم غرة أهل زمانهم فى العلم والفقه والأجتهاد فى العبادة وطيب المطعم — كما يقول ابن قتيبة فىوصفهم يقول عمرو بن النضر — «مررت بعمرو بن عبيد فجلست إليه فذكر شيئا ، فقلت : هكذا يقول أصحابنا ، قال : ومن أصحابك ؟ قلت : أيوب ، وابن عون ، ويونس ، والتيمى — فقال : أولئك أرجاس أنجاس أموات غير أحيا» . (١) .

وعلى فرض صدق الرواية — على الرغم من تحاملها — فإنها صادرة عن إختلاف فى وجهة النظر وهكذا يبيح الإختلاف أعراض الناس والنيل منهم .

ولاشك فى أن مثل هؤلاء الذين جرحهم عمرو بن عبيد — عدول عند غيره ويبلغون مرتبة الأخذ عنهم ، والقدوة بهم .

وقد فشا هذا فى كتب السلف فنجد العلماء وهم الذين يؤخذ عنهم ، ويقتدى بهم يطلقون ألسنتهم فى معاصريهم ومنافسيهم لأسباب شخصية ، ويتبادلون التهم على غير أساس علمى ، ولا يعدم الباحث عن عيب أن يجده والمتتبع لخطأ أن يعثر عليه ، فيضرب عن الصواب صفحا لخطأ عارض ، وينسى الفضيلة لرذيلة سنحت .. فلا يرى القادح غير ما يشتهى ، ولا المادح غير ما يحب ، . وهذا ضرب من النزق ونوع من الخرق .

---

١ — تأويل مختلف الحديث ص ٥٨

فالسيوطى وهو العالم الجليل يرميه السخاوى بكل موبقة ، ويعريه من كل حسنة لأسباب خاصة ، ويتعصب للسيوطى قوم منهم الفخر الديمى ، وأمين الدين الأقصرانى ومع السخاوى ابن الكركى الذى رد عليه السيوطى فى كتبه (التى تحمل دلالاتها الجواب الزكى عن قمامة بن الكركى(، والدوران الفلكى ومقامة الفتاش على القشاش ، ومع السخاوى أيضاً ابن العليف ، والشمس الجوجوى وغيرهم .

فالسخاوى تناول السيوطى فى كتابه «الضوء اللامع فى تاريخ القرن التاسع ورمى السيوطى بكل آبدة وهو على قيد الحياة ، وأجاب السيوطى على كل ذلك مدافعا فى كتبه «الكاوى فى تاريخ السخاوى» . وطرز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة» . فمثل هذه الأحكام تطرح جانبا ، ولا يؤبه بها ، ولا يعول عليها ، لأنها بعيدة عن المنهج العلمى ، وناشئة عن منافسة وحسد .

وفى كل العصور توجد أمثال ما ذكرنا ، ففى عصرنا الحديث ينـدرج تحت هذا الباب ما كتبه العقاد عن الرافعى ، وما كتبه الرافعى عن العقاد ، وما دار بين طه حسين ود. زكى مبارك وما حدث من هجوم من العقاد على شوقى ، ومن إبراهيم المازنى على المنفلوطى وعبد الرحمن شكرى . وما كتبه العوضى الوكيل عن محمود حسن إسماعيل ، وما نشاهد وتسمع من تنقص ، وزراية إنما منشأ ذلك كله — غالبا — المنافسة ، والحسد ، ، والبغى أحيانا . ومن ذلـــك :

«أن الأمام الشافعى رضى الله عنه سأل إنسانا جرح رجلا عن سبب تجريحه إياه فقال : «رأيته يبول قائما ، فقيل له وما فى ذلك ما يوجب جرحه ؟ ... فقال : لأنه يقع الرشش عليه وعلى ثوبه ثم يصلى .. فقيل له : رأيته يصلى كذلك ؟ .. فقال : لا .» (١) .

---

١ — الكفاية ص ١٠٨ .

وسئل شعبة عن سبب تركه حديث رجل فقال : «رأيته يركض على برذون فتركت حديثه» (١) .

فهل هذا سبب يقدح فى الراوى أو يجرحه ؟ .. لذلك فلابد أن نتحفظ فى بعض ما نقرأ من أحكام . ، وهذا الخطأ غير القادح المفروض أنه لا يرد به العلم ، ولكن بعض السابقين كان يسقط علم العالم لأمر يسير ارتكبه ، وهذا منافى للمنهج العلمى إذا الخطأ لا يعمم فقد يخطأ الأنسان فى شيء وهو ثقة فى أشياء أخر ، كان أبو الزبير ثقة عالما يأخذ عنه شعبه . وكان يتتبع أخباره ، ويسأل كل قادم من مكة عنه ، حتى ذهب شعبه إليه فى مكة ذات يوم فرأى منه أمرا كرهه يقول شعبه (فبينما أنا عنده إذ جاء رجل فسأله عن شيءفافترى عليه ، فقلت : تفترى على رجل مسلم ؟ .

قال — أبو الزبير — إنه غاظنى .

قلت : يغيظك فتفترى عليه . ؟

فآليت أن لا أحدث عنه ، . فكان — شعبه — يقول : فى صدرى منهأربعمائة لا والله لأحدثتكم عنه بشيء أبدا .» (٢)

فكيف يعمم شعبه الحكم ، ويكتم أربعمائة حديث عنه ؟ ألأنه إفترى على رجل أغاظه ؟ فهذا يعرض لكل الناس ، وما فعل شعبه هذا إلا من الغيظ وأثره . ! .

وليس ذلك قادحا فى عدالة الرجل ، فمن الممكن إنه إذا إنتفى الغيظ إنتفى تبعاً لذلك الأفتراء ، ومن ذا الذى لا يغتاظ ، ولا يغضب ورحم الله بشارا إذ يقول :

---

١ — الكفاية ص ١١٦ .

٢ — الكفاية ص ١١٥ .

فمن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وربما يتهم الرجل ويجرح لأنه يلعب الشطرنج ، أو يجلس فى الطرقات أو يترك لأن الشيخ إمتخط حين ذكر عنده مثل صالح المرى فقد رد حديثه وجرح لأنهم ذكروه عند حماد بن سلمة فامتخط حماد (١) .

٣ — التجريح بسبب الغيرة والتنافس بين العلماء :

فمن الثابت أن العلماء بشر ، تعتريهم نواقص النفس ، وسخائم الفطرة ، فإذا حظى عالم بشهوة واسعة ، أو جاه عريض غار منه أقرانه ، ونافسه عليه أترابه فكادوا له وتربصوا به ، ونالوا منه بكل وسيلة .

يقول شعبة : «إحذروا غيرة أصحاب الحديث بعضهم على بعض ، فلهم أشد غيرة من التبوس» (٢) .

والناس يخلعون على العالم صفات يحبونها ، وينسون أنه من طين تجرى عليه الطبيعة أحكامها ، وهذا يدفعهم إلى أمرين :

١ — إحسان الظن بالعلماء .

٢ — رفض العلم حين يقفون من العالم على مالا يحبون .

وكلاهما خطأ وقريب من قول شعبة ما يروى عن ابن عباس من طرق شتى منها : «إستمعوا علم العلماء ، ولا تصدقوا بعضهم على بعض ، فوالذى نفسى بيده لهم أشد تغايرا من التيوس فى زربها» .

ويردد هذا القول بأسلوب مختلف بعض الأختلاف «خذوا العلم حيث

---

١ — الباعث الحثيث شرح إختصار علوم الحديث لابن كثير — شرح الشيخ أحمد شاكر ص ١٠١ الطبعة الثانية — طبعة حجازى — القاهرة .

٢ — الكفاية ص ١٠٩ .

وجدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فأنهم يتغايرون تغاير التيوس فى الزريبة» (١) .

وهذا أمر مشاهد ومألوف ، وثابت فى كتب التراث ، فمثلا سئل حماد ابن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة عن عطاء وطاوس ومجاهد علماء مكة فقال لأهل الكوفة بلدته : «أحمدوا الله يا أهل الكوفة فإنى لقيت عطاء وطاوسا ومجاهدا فلصبيانكم وصبيان صبيانكم أعلم منهما» (٢) .

وكان يحى بن معين وهو أستاذ جليل يطلق لسانه فى الثقات غيرة وحسدا فتكلم فى الزهرى والأوزاعى وطاوس ، ومن العجب أنه قال عن الإمام الشافعى أنه ليس بثقة .. «ومما نقم على ابن معين وعيب به أيضا قوله فى الشافعى أنه ليس بثقة ، وقيل لأحمد بن حنبل أن يحى بن معين يتكلم فى الشافعى فقال أحمد : ومن أين يعرف يحى الشافعى ؟ .. هو لا يعرف الشافعى ، ولا يقول ما يقول الشافعى» (٣) .

وابن معين من أعلم الناس بالرجال ، والشافعى إمام مجتهد ، ولا يمكن أن يحمل القول إلا على المنافسة والغيرة .

وتكلم ابن أبى ذؤيب فى الإمام مالك (بكلام فيه جفاء وخشونة) على حد تعبير ابن عبد البر ولم يذكره ، والكلام ذكره القاضى ابن أبى يعلى فى (طبقات الحنابلة) عند ترجمته للفضل بن زياد البغدادى ج ١ ص ٣٥١ ، والقاضى عياض فى (ترتيب المدارك) (٤) والأمام القرافى المالكى فى كتابه «تنقيح الفصول» (٥) .

---

١ — جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٥١ .
٢ — المرجع السابق ص ١٥٣ .
٣ — المرجع السابق ص ١٦٠ .
٤ — ترتيب المدارك ج ١ ص ٥٣ : ٥٥
٥ — ترتيب المدارك ج ٢ ص ٢١٤ .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك موقف النسائي من أحمد بن صالح المصري الذي لم يكن في مصر من يحسن الحديث إحسانه ، وثقه البخاري ، ويقول عنه يعقوب الفتوى : «كتبت عن ألف شيخ وكبير حجتي فيما بيني وبين الله رجلان «أحمد بن صالح وأحمد بن حنبل» (١) .

هذا الرجل كان النسائي سيء الرأي فيه ، وليس لأمر علمي وإنما لسبب خاص جدا ، فقد قدم النسائي إلى مصر مع قوم لا يستريح إليهم أحمد بن صالح فلم يحدثهم وكان في أحمد هذا تعال وكبر ، فآغاظ ذلك النسائي فجمع الأحاديث التي وهم فيها أحمد وشرع يشنع عليه .

وهذا الموقف وقفة البخاري من أبي حنيفة وأصحابه . ووقفة من البخاري أبو زرعة ، وأبو حاتم ، فلم يعملا بحديثه وتركاه ، وفي هذا يقول تاج الدين السبكي (فيا لله والمسلمين ، أيجوز لأحد أن يقول : البخاري متروك ، وهو حامل لواء الصناعة ؟ ... ومقدم أهل السنة والجماعة ؟» (٢) ، والسبكي يرى أن كل إنسان له أعداء فقد يكون الرجل إماما بلغ درجة كبيرة من العلم وله أعداء فيحملون عليه ، ويقولون فيه غضا من قدره ، وحطا في منزلته . ولذا فهو لا يلتفت لمثل ذلك الجرح والصواب عنده (أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره ، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة ، وإلا فلو فتحنا هذا الباب أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون» (٣) .

---

١ - تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٤٩٥ - للذهبي وطبقات الشافعية للسبكي المجلد الأول ص ١٨٦ طبعة — بيروت .

٢ - قاعدة في الجرح والتعديل ص ٣١ .

٣ - طبقات الشافعية المجلد الأول ص ١٨٨ .

وهذا الأمر إنما أفضت فيه لنتبين أن العلماء قد يحملهم الحسد على مالا يستطاب منهم ، وتدفعهم المنافسة إلى تقحم المهالك ، وإطلاق اللسان ، وما علينا إلا أن نعرف مصدر ذلك فلا نسلم به ، ولا نقبل به على علاته ، ومن عرف الدافع إستراح . وكثير من علماء عصرنا رأيهم سيء في زملائهم ، ولا يخرج الدافع عن سبب مما ذكرنا .

الجرح والتأويل للخلاف المذهبي :

كان للخلاف المذهبي أثر كبير في هذا الفن ، حتى كثر وشاع ، فغدا من المألوف أن يجرح كل طائفة من خالفهم .

وليس هذا بدعا من عندي ولكن ما نطقت به الكتب ، وتواترت أخباره والأمثلة وفيرة ، ولكنا نجتزيء بما يغني ويدل :

فالإمام مالك بن أنس وهو معروف بميله نحو اليسر وبعده عن التشدد يقول — على حد رواية تلميذه ابن وهب — «لا يصلى خلف القدرية ، ولا يحمل عنهم الحديث» (١) ، وكيف هذا ؟ ألأنه يفهم فهما معينا في العقيدة يوقف منه هذا الموقف ؟ فقد يكون فيهم الصالح القدوة ، والعالم الجليل ، ولكن الإمام مالك جعل الخلاف سببا للرفض .

ومن العلماء الذين طعنوا في غيرهم بسبب الخلاف المذهبي الإمام البخاري فقد ناله أذى في بخارى (موطنه) بسبب أحد أتباع المذهب الحنفي وهو محمد ابن أحمد المعروف بأبي حفص الصغير ، فأسرها وحمل على ذلك المذهب لهذا ، وتأثر البخاري بصحبته (لنعيم بن حماد) المروزي وهو شديد التعصب على أبي حنيفة .

---

١ — الكفاية ص ١٢٤ .

يقول الإمام الذهبي فى الميزان عن نعيم هذا : «كان نعيم ممن يضع الحديث فى تقوية السنة ، وحكايات مزورة فى مثالب النعمان» (١) ولا غرو فى ذلك «فكل صاحب هوى يكذب ولا يبالى» (٢) .

وقد عرض البخارى بأبى حنيفة فى صحيحه فى ثمانية عشر موضعا ، ويذكره بعبارة فيها تجهيل (قال بعض الناس) .

وكان بين الإمام أحمد بن حنبل والحسين بن على الكرابيسى صداقة وثيقة امتدت مدة طويلة ، فلما إختلفا حول القول بخلق القرآن انقلبت الصداقة عداوة وساء ما بينهما فكان كل واحد منهما يطعن على صاحبه» (٣) .

ومن العلماء من له تعنت واضح فى جرح من خالفه فى المذهب أو الوطن فالجوزجانى يظهر التعصب ضد أهل الكوفة للخلاف فى النحلة .

يقول ابن حجر فى تهذيب التهذيب : «الجوز جانى لا عبرة بحطة على الكوفيين» (٤) . لأنه ناصبى وأهل الكوفة يغلب عليهم التشيع .

وللخطيب البغدادى مواقف غير مرضية من الإمام أبى حنيفة ، وقد تناول أبا حنيفة فى تاريخ بغداد ، والذى يقرأ المثالب التى ألحقت بأبى حنيفة يدرك لأول وهلة أنها وليدة الحقد والضغينة . فأبو حنيفة معروف نسبه ولكن الرواه يختلفون فى أصله ، وفى هذا إيعاز بأنه من بيئة مجهولة غير بيئة الشافعى ، ومالك والأوزاعى مثلا ، حتى يروى أنه (ولد أبو حنيفة وأبوه

---

١ - ميزان الأعتدال جـ ٤ ص ٢٦٩ (ترجمة نعيم بن حماد) .
٢ - الكفاية ص ١٢٣ .
٣ - الأنتقاء لأبن عبد البر ص ١٠٦ .
٤ - تهذيب التهذيب ص٣٢٣ : ٤٢٣ .

نصرانى) (١) . وهذا خبر ينفيه الثقات ، وثابت التاريخ ، . ويتهم هذا العالم الراسخ أنه لا يعرف النحو ، ولا يحسن ضبط القرآن (٢) ، وواضح أن هذا من أسباب الوحدة والحسد ، والخلاف ، فقد كان الرجل فوق ما عرف عنه من فقه ، وفهم ثاقب ، وبصيرة ذات نفاذ — جوادا ، شهما ، نبيلا ، وكان مهيبا ذا هيئة «كان لباسا ، حسن الهيئة ، كثير التعطر يعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله قبل أن تراه» (٣) ، وهذا ما يفسر قول مسعر بن كدام «ما أحسد أحدا بالكوفة إلا رجلين : أبو حنيفة فى فقهه ، والحسن بن صالح فى زهده» . (٤) .

ومن الأمور التى أتهم بها أبو حنيفة قلة محصوله من الحديث ، وهذا زعم مرفوض لوفرة المواد الفقهية التى تتفق والأحاديث ، ولكن أصحاب الحديث لا يحبون أن يجمع هذا الرجل بين الفقه والحديث ، فقد شهد له الناس بالبراعة والإمامة فيه ، فأما الحديث فهو ضعيف فيه . «كان أبو حنيفة يتيما فى الحديث أو «كان زمنا فى الحديث» (٥) ، وهذا قول ملقى على عواهنه من غير تحقيق ولا تدبر ، ولم يقف الأمر عند القول المرسل ، بل جاء شعرا . يقول أحمد ابن المعذل . :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فعليك إثم أبى حنيفة أو زفر
المائلين إلى القياس تعمدا والراغبين عن التمسك بالأثر (٦) .

---

١ — تاريخ بغداد المجلد ١٣ ط الخانجى ص ٣٢٤ .
٢ — المرجع السابق ص ٣٣٢ .
٣ — المرجع السابق ص ٣٣١ .
٤ — المرجع السابق ص ٣٣٨ .
٥ — المرجع السابق ص ٤١٥ .
٦ — المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ويتهمونه بأنه يقول «إن الصلاة ليست من دين الله» (١) ، وهذا الأفك في القول يرجع إلى عوامل نفسية شديدة التعقيد ، ويبدو أن هذا الإمام كان يجد نفوسا مشرئبة لسماع الباطل فيه ، وهذا ما شجع يوسف بن أسباط ــ وهو راو سيء السمعة ، وضعيف الحفظ والرواية ــ على تشويه سمعة ذلك الإمام فيروى أنه سمع أبا حنيفة يقول : «لو أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدركته لأخذ بكثير من قولي (٢) . ومن العجيب أن يقبل الناس هذا القول على ما فيه من سوء أدب ، وعدم حياء ؛ ولو عرض السامع هذا القول على العقل لرفضه لما حفظ من سيرة الإمام وتقواه وحسن خلقه ، ولأستحالة أن يأخذ عنه النبي عليه الصلاة والسلام. إذ لا يأخذ إلا عن الله ، وإنما النبي مصدر تشريع لا مستورد قوانين ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن عقل أبي حنيفة على الرغم من رجاحته وسماحته ــ فوق عقل النبي ، وهذا القول من شأنه أن ينفر العامة من الإمام ، ويفض الناس من حوله ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الراوي يوسف بن أسباط قد صحف قول أبي حنيفة (لو أدركني البتي وأدركته لأخذ بكثير من قولي» . ففير لقب العالم المشهور (البتي) إلى النبي ، ثم نقله إلى الرسول ليبتعد عن المشابهة ؛ ويلبس على الناس الأمر ، وهذا ما جعل العامة يضيقون ذرعا بأبي حنيفة (فأهل مرو لا يحتملون رجلا يثنى على أبي حنيفة(٣) وقد حدث هذا لشقيق البلخي حين دخلها .

وقد إستغل الوضاع إستعداد البيئة لسماع القول في أبي حنيفة فأختلفوا أقوالا على ألسنة علماء مشهود لهم بالإستقامة والإمامة مثل سفيان الثوري

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٧٢

٢ ــ المرجع السابق ص ٣٨٧ .

٣ ــ المرجع السابق ٤٠٨ .

الذى يروى عنه أنه حين سمع بموت أبى حنيفة . قال «إن فتان هذه الأمة قد مات» . (١) .

ونحن وإن كنا نسك فى نسبة القول السابق إلى الثورى فإنا نصدق ما قيل «الناس فى أبى حنيفة حاسد وجاهل ، وأحسنهم عندى حالا الجاهل» (٢) ، وقد روى الخطيب هذه المثالب وأتى بها وهو يترجم للأمام .

وهذا ما حدا بتلاميذ أبى حنيفة أن يردوا عليه ، ويشتدوا فى ردهم ، وهذا أثر من التعصب المذهبى ؛ وأسماء الكتب تعرب عن المكنون وتكشف عما يختلج فى الصدور من خواطر .

فمن كتبهم (السهم المصيب فى كبد الخطيب) و (تأنيب الخطيب على ما ساق فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب) لمحمد زاهد الكوثرى (٣) ، ولا ذنب للخطيب غير أنه نقل ما قيل مع أنه ترجم للأمام أبى حنيفة ترجمةجيدة ونقل طرفا من حياته وخلقه ، وأقوال الموثقين له ، ولكنه التعصب .

وقد أتهم فقه أبى حنيفة بكثير من المثالب ، لعل من أظهرها قلة الحديث وسار هذا القول حتى رواه ابن خلدون فى المقدمة (٤(وينسب إلى الإمام مالك أنه قال «لو خرج أبو حنيفة على هذه الأمة بالسيف كان أيسر عليهم مما أظهر فيهم» (٥) يعنى الرأى والقياس .

وهذه مسألة مردودة لأن الناس خلطوا بين شهرته بالرأى والحديث ،

---

١ — تاريخ بغداد ص ٤٢٢
٢ — المرجع السابق ٣٦٧ .
٣ — الكتاب مطبوع فى مصر . طبعة الخانجى وعمل على المنوال كتابه الثانى (حسن التقاضى فى سيرة أبى يوسف القاضى) طبعة الخانجى أيضا.
٤ — يراجع حديثه عن المقدمة .
٥ — جامع بيان العلم ج ١ ص ١٤٧ .

فكأنهما لا يلتقيان ، فإما أن يعمل الأنسان رأيه أو يأخذ بالحديث ، وكأنهما أمران لا يلتقيان وهذا منطق عجيب ، فللحديث موطنه ، وللرأى ضرورته وموطنه .

فإذا أضفنا إلى ذلك نفور المحدثين من الرأى ، وإنزعاجهم من التخريج ، وتحرجهم من التعمق أدركنا سر ولعهم بالغض من قدر أبى حنيفة .

وقد لاحظ العلماء أفراط أصحاب الحديث فى تنقص أبى حنيفة ، ونضرب مثلا لذلك بابن عبد البر الذى يقول : «أفرط أصحاب الحديث فى ذم أبى حنيفة وتجاوزوا الحد فى ذلك» (١) . على حين أنه وأصحابه كانوا رواة للحديث — فأبو يوسف «كان صاحب حديث» (٢) ومحمد بن الحسن طلب الحديث وسمع من مسعر والأوزاعى والثورى (٣) ، وكذلك زفر بن الهزيل .

ثم كشف عن بعض أسباب جرحهم لأبى حنيفة فى قوله : «لأمامته ، وكان أيضا مع هذا يحسد ، وينسب إليه ما ليس فيه ، ويختلق عليه مالا يليق» (٤) .

وليس أدل على هذا الأختلاف والكلف بالتجريح من وضعهم قراءة منسوبة إليه جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعى ، ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى وهى لا أصل لها . فكيف سول الأختلاف ، وحب التشهير الأختلاق ؟ فلم يكفهم أن يشوهوا موقف أبى حنيفة من الحديث ، وإنما يعرجون على القرآن لينفض الناس من حول مذهبه .

---

١ — الجامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٤٨ .
٢ — المعارف ص ٤٩٩ .
٣ - المصدر السابق ٥٠٠ .
٤ — جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٤٨ .

يقول أبو العلاء الواسطى : «إن الخزاعى وضع كتابا فى الحروف نسبه إلى أبى حنيفة ، فأخذت خط الدار قطنى وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له» (١) .

وليس من المعقول أن يكون أبو حنيفة رافضا للحديث ، أو لا يأخذ به ولديه هذه الثروة من الأحكام التى تتفق مع الأحاديث ، كما أن الفقه لا يتيسر من غير حفظ للأحاديث ولكنه الجرح للمخالفة ، والولع بالتحدث عن أعراض الناس عند أصحاب الحديث .

ولذلك قال شيخ الأسلام (ابن دقيق العيد) فى كتابه (الأقتراح) : «أعراض المسلمين حفرة من حفر النار ، وقف على شفيرها طائفتان من الناس : المحدثون والحكام» (٢) .

وأصبح الجرح للخلاف المذهبى من المقرر . وقد شهد بذلك طائفة من العلماء ، منهم ابن السبكى الذى قال عن أستاذه الذهبى : «هذا شيخنا الذهبى رحمه الله تعالى من هذا القبيل له علم وديانه ، وعنده على أهل السنة تحامل مفرط فلا يجوز أن يعتمد عليه» (٣) .

فإذا ترجم للمشبه والمثبتين للصفات أطنب فى الوصف ، وذكر كل ما يعرف من المحاسن وغفل عن الغلطات والعورات ، وتأول لهم (وإذا ذكر أحدا من الطرف الآخر كأمام الحرمين والغزالى ونحوهما لا يبالغ فى وصفه ، ويكثر فى قول من طعن فيه ، ويعيد ذلك ويعتقده دينا وهو لا يشعر ، ويعرض

---

١ — النشر فى القراءات العشر لأبن الجوزى ج ١ ص ١٦ ط ١ . المكتبة التجارية الكبرى .
٢ — قاعدة فى الجرح والتعديل ص ٤٠ .
٣ — المرجع السابق .

عن محاسنهم الطافحة فلا يستوعبها» (١) . ثم ذكر نماذج أخرى لجرح أستاذه غير الموضوعى .

والقائم على الخلاف المذهبى ، فهو غير منصف حين يتعرض لأئمة المذاهب إذ يعتريه الغضب وتسيطر الموجدة عليه «فأنى أعتقد أن الرجل كان إذا مد القلم لترجمة أحدهم غضب غضبا مفرطا ، ثم قرطم الكلام ومزقه . وفعل من التعصب مالا يخفى على ذى بصيرة» (٢) .

وهذا الكلام أيضا قائم على التجريح المغرض لأختلاف المذهب، فالسبكى يطعن على أستاذه ويبالغ فى ذكر سوآته لهذا ، ونحن لا نتابع السبكى فى قواه ولا نذعن لمراده جملة وتفصيلا .

وإنما ذكرت هذا لأبين أن الجرح كان أحيانا يخرج عن سواء السبيل ، ويتأثر بالعوامل التى تخرج به عن الموضوعية ، وتجنح به إلى الذاتية ، وإلا لو صدقنا هذا لألفينا كلاما عن مالك ، وعن الشافعى وجل أئمة الأسلام ، فلا يوجد الأنسان الذى لا يكرهه أحد ، ومقالة السوء أسرع من مقالة المديح . والناس يلهجون بذكر المثالب ولعل من هذا ما دفع بعض تلاميذ الأئمة إلى دحض التهمة فألفوا الكتب التى تثبت معرفة مشايخهم بالحديث .

ومن هؤلاء : محمد بن الحسن ، وزفر بن الهزيل ، وابن أبى زائدة من الحنفية ، والبيهقى من الشافعية ، ألف كتابه (معرفة السنن والآثار) ليثبت معرفة شيخه بالسنة ، ولابد من الوقوف على ما يلى قبل أن نقبل قولا فى الجرح أو التعديل .

---

١ — قاعدة فى الجرح والتعديل ص ٤٠.
٢ — المرجع السابق ص ٤٣.

١ — الحالة العصبية للعالم فقد تتوفر فى أحدهم حدة شديدة ، أو يغلب عليه الأنفعال فيطلق الأحكام لأدنى سبب ، ومن كان مثل ذلك فتعديله معتبر وجرحه فير معتبر ؛ فهو ضنين بالمدح ، شحيح بالثناء ، فإذا عدل كان عن حق ، وإذا جرى على طبعه وأكثر من التجريح نتحفظ فى الأخذ عنه لمعرفة ما عليه من مزاج .

٢ — إذا كانت العداوة مدخلا إلى الجرح فالموالاة سبيل إلى التعديل ، وعلى هذا فلا يجب التسليم المطلق بالأحكام العامة التى نتلقاها من الكتب المعتمدة وإنما لابد أن نعرف مذهب العالم وطباعه ، والمترجم له ونحلته حتى نكون على بينة ، ونحكم عن معرفة ، ومن هنا فيجب أن يكون الجرح مفسرا . فقد تجد عالما يثنى على رجل لأنه يتفق معه فى المذهب الفكرى أو السلوكى وقد ينال من عدالة عالم لأنه يختلف معه . وهذا كثير فى الكتب القديمة . وفى عصرنا هذا . نجد العلماء مثلا . إذا مالوا إلى التصوف أثنوا على الدكتور عبد الحليم محمود ، ورفعوه مكانا عليا ، وإذا كانوا من أنصار السنة المحمدية أو الجماعة الشرعية سفهوا رأيه ، وهجنوا سلوكه ، لأنه يزور الأولياء ، ويذهب إلى الموالد ، وهذا موقف غير علمى ، وفيه خلط بين المستويات ، فقد يكون الرجل صوفيا وهو ثقة ، وأكثر معرفة وتثبتا من ذى نحلة أخرى . ولكنها الأهواء . وتحكم المشارب ، وتضارب المآرب .

٣ — الأنسان المستور الحال يأخذ حكم العدل ، فلا يشترط أن يقال عن الرجل أنه عدل أو ثقة ، وإنما يكفى أن لا يجرحه أحد — أو يعرف الناس عنده ما يحط من قدره ، أو يقدح فى عدالته .

لكل هذه الأسباب وغيرها ، كان بعض العلماء يقبل الرّجال وإن لم يخرجوا ما دام لهم من يعدلهم ، أومن سكت عنهم .

فالنسائى يخرج عن كل من لم يجمع على تركه ، ويقول النسائى : (لا يترك الرجل عندى حتى يجتمع الجميع على تركه) ؛ ومن البين أن الأجماع على الترك شبه محال وكأنه بذلك يعدل الناس جميعا .

ويتضح من هذا أن النسائى لا يتابع العلماء فى الجرح والتعديل ، لأنه يدرك أن الأحكام يشوبها مالا يحمد من الأسباب .

وهذا مذهب ابن حنبل فقد كان يأخذ عن كل إنسان مالم يجمع الناس على ترك حديثه .

قال يعقوب :

«قال لى أحمد بن حنبل : مذهبى فى الرجال أنى لا أترك حديث محدث حتى يجتمع أهل مصر على ترك حديثه» (١) .

وأخذ بهذا عالم مصر (أحمد بن صالح) فقد روى السخاوى فى شرحه (ألفية الحديث) أن ابن صالح قال :

«لا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على ترك حديثه» (٢) .

والإجماع على ترك حديث رجل قليل ، بل أنه يدخل فى باب النادر ، ولا يخفى أن هذا الأتجاه من العلماء إنما مصدره الريب فى الحكم ، والخشية من المتابعة على غير يقين . والتريث فى الإدانة والإدراك لمداخل المسائل ومخارجها ففى زمن الفتن يكثر القول تعديلا أو تجريحا ، وكذلك إذا إشتدت المنافسة ، أو ضعفت الأخلاق ، وندرت الفتوة ... وإذا كان هذا حال العلماءوالراسخين

---

١ - تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ ص ٣٣٧.

٢ - شرح ألفية الحديث ص ١٦٠.

فى العلم فما بالنا بمن هم دونهم معرفة وأقل ورعا ، وأسخف عقلا ... وأكثر جشعاً ، وأعرض دعوى ... !

ولذا فلابد أن نفطن لجل الفرق التى فشت فى أيامنا من «قطبية ، وجهاد وتكفير وهجرة» ، وغير ذلك من المسميات ، فكل فريق ينتقص منافسيه ، ويحصى أخطاءه ، ويضخم من أمر نفسه ، ويعلى من قدر ذاته .. حتى غدا الأمر منبهما والشباب فى تيه ، وعمت الحيرة ، وتفرق الناس طرائق قددا . وذلك سبيل يفتت وحدة الأمة ، ويأتى على بنيانها من القواعد .

شرح بعض الأحـاديث

الحـديث الأول

روى الأمام البخارى فى صدر صحيحه قال : «حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا عبد الوهاب ، قال : سمعت يحى بن سعيد يقول : أخبرنى عمر بن إبراهيم أنه سمع علقمة بن وقاص الليثى يقول : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

ولنا فى هذا الحديث عدة مباحث :

أولا : سند الحديث :

جاء هذا الحديث عن عمر دون بقية الصحابة ، ولم يروه عن عمر غير علقمة بن وقاص الليثى فيحى بن سعيد الأنصارى ، ثم رواه عن يحى خلق كثير .

فهذا الحديث ليس متواترا ولا مشهورا ، وإنما هو رواية آحاد ، والثقة إذا إنفرد أحد بروايته ، ولا يترتب على درجته المتواضعة من حيث السند تواضع المتن ، فقد إهتم العلماء بهذا الحديث إهتماما خاصا ، وإعتنوا به عناية فائقة .

ويقول الإمام الشافعى «هذا الحديث ثلث العلم والحديثان الآخران (من

أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» و (الحلال بين والحرام بين .. الخ)

وعن أبى داود قال : «نظرت الحديث المسند فإذا هو أربعة آلاف حديث ثم نظرت فإذا مدار الأربعة آلاف حديث على أربعة أحاديث : حديث النعمان بن بشير ، «الحلال بين والحرام بين ، وحديث عمر «إنما الأعمال بالنيات ، «وحديث أبى هريرة «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» ، وحديث «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه «فكل حديث من هذه الأربعة ربع العلم» (١) .

ثانيا : سبب الحديث :

للحديث سبب معلوم فى السيرة النبوية ، وذلك أن المسلمين حين أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة من مكة إلى المدينة ، إمتثل لهذا الأذن المسلمون المخلصون ، وقام معهم بأداء العمل أناس لا يبتغون وجه الله ، فقد كان هناك رجل مدله القلب بأمرأة مسلمة ، وقد أزمعت على الهجرة تنفيذا لتعليمات الرسول فهاجر هذا الرجل تبعاً لمحبوبته ، ولم يكن خالص النية لله سبحانه وتعالى ، ولم يبتغ بهجرته رضاء .

ولربما حدث نقاش بين المسلمين حول موقف ذلك الرجل ، أيعتبر مهاجرا شأنه شأن غيره مادام قد أدى ظاهرا ما أداه غيره ؟ .. إذ لا يستطيع أحد أن ينكر عليه أنه إنتقل من مكة إلى المدينة ، وأنه تجشم عناء السفر ، ووعثاء الطريق ، ولكن الدافع إلى ذلك لم يكن إبتغاء مرضاة الله .

من هنا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلى المسألة ، ويبين

---

١ – جامع العلوم والحكم ص ١٣ ج ١ لأبن رجب الحنبلى. دار الكتب الجديد القاهرة – ١٩٧٠م

الحكم فيها وفى غيرها مما يمكن أن يندرج تحت ظروفها ، وتجوز عليه هـذه الملابسات فأطلق الحكم القاطع «إنما الأعمال بالنيات» .

عندئذ إستطاع الناس أن ينقوا عنه صفة المهاجر ، ويطلقوا عليه «مهاجر أم قيس» نسبة إلى المرأة التى هاجر وراءها .

وهنا يعن سؤال : هل الحديث يقتصر على تلك الواقعة ؟ .

كلا ، إنما ينطبق على كل ما يشاكل هذا الموقف ، ويتفق مع حيثياته ، فالعبرة بعموم اللفظ ، وليست بخصوص السبب ، .

ولو أننا قصرنا كل أمر على ما ورد فيه لضيقنا ما اتسع ، ولتعسر علينا ما تيسر من الفقه .

ثالثا : المعانى العامة :

إعتمد الحديث على جمل قصيرة ، تعتمد على (إنما) و (التكرار والتفسير فأما (إنما) فهى تفيد الحصر ، حصر الذى يليها على الأخير ، فالأعمال محصورة على النيات وأما (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ... الخ) فتكرار وتفسير لما سبق .

وعلى هذا فالأعمال متوقفة على النية المصاحبة لها . .

وهنا لابد من طرح عدة أسئلة :

١ — هل الأعمال فقط هى التى يكون مدار الحكم فيها على النية ؟ .. أم تدخل الأقوال أيضاً ؟ ...

٢ — هل الألف واللام فى (الأعمال) تطلق على أعمال معينة (العهد(أى الأعمال الشرعية .. أم أل للجنس فتشمل كل ما يصدر عن الأنسان من أعمال ومعنى هذا هل النية هى التى تتحكم فى العمل الدينى مثل الصلاة والحج أم تتعداه إلى الأكل والشرب والكلام ؟ ...

وعندنا أن الأعمال تشمل كل ما يصدر عن الأنسان ، وإنما خص الفعل لشموله وشهرته ، لأن القول فعل أيضا ، وهنا نأتى إلى أمر تعبيرى نحب أن نبنيه (إنما الأعمال بالنيات) ويتوقف هذا الأمر على فهم الباء (بالنيات) .

فكأنه قال الأعمال مقدرة بنياتها ، فالحكم الصادر على عمل مرتبط بالنية المصاحبة لـــه وكأن النية هى التى تحرك العمل بين مناطق القبول والرفض ، فالعمل بذاته غير معتبر ، فقد يؤدى الأنسان عملا ولا يثاب عليه لأنه غـير مصاحب لنية تخرج من نطاق إلى نطاق .

فمثلا : بعضنا قد يقوم بغسل أعضاء الوضوء عقب عمل معين ، أو يغمر جسمه بالمـاء ولكنه لا يكون متوضأ أو مغتسلا إلا إذاصاحبته نيةالوضوء والغسل ، فحظ الأنسان من عمله مرتبط بالنية فيه .

أو تكون الأعمال بالنية ، فبالباء للعوض أو المقابلة ، تقول مثلا : أخذته بكذا ، كان ثمنه كذا ، وكذلك الأعمال يحكم عليها ، وبقدر ثوابها أو عقابها على النية المصاحبة لهـا .

وعلى هذا فرسوم الأعمال وظواهرها ليست بذات موضوع ،ولايترتب عليها أثر من ثواب أو عقاب ، وهذا الحكم العميق من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه النظر به إلى حسن النية ، وجعل الأنسان أن يرتبط بالباطن من الأمر ، ولا يتعلق بالظاهر منه .

وعلى هذا فقد يؤدى كثير من الناس أعمالا ظاهرا صلاحها ، ولكنهم لا يثابون عليها لأن النية ليست حسنة .

وربما أتى الأنسان أمراواضحافساده مثل بتر عضومن إنسان،أوضربه ،

ولكنه يثاب عليه لأنه يبتغى بعماه إصلاحا ، ونيته متجهة إلى الصالح العام ، وإن جاءت فى صورة مخالفة لعمل الخير مثلا .

وهذا الأمر يقطع الطريق على المنافقين والمرائين ، والذين يبتغون بأعمالهم وجاهة أو مأربا ، أو بعدا عند الناس .

وإذا كان العمل لابد أن تصاحبه نية ، فهل النية لا تكون إلا إذا تلفظنا بها وهل لها صيغة معينة ؟ ...

الواقع أن النية ليست كلاما على هيئة معينة فقط ، وإنما هى إنعقاد العزم على فعلى شيء ، فهذا الأستحضار الذى يسبق القيام بالعمل أو يصاحبه هو ما نطلق عليه اسم النية .

وعلى هذا فلا يلزم أن يقول الأنسان حينما يتوجه إلى الصلاة ألفاظا معينة ، وبطريقة معينة ، فالله أعلم بالنيات ، وليس فى حاجة إلى الجهر والإعلان بها .

وإذا كان الأمر كذلك فليس لك من محصول عملك إلا ما عقدت العزم عليه ، وهذه نظرة إسلامية عميقة ، فالأمور ليست بما بدا منها ، ولكنها بما تحمل من نوايا وإتجاهات باطنية ، فقد تأتى الأمر الظاهر الصلاح ولا تثاب عليه وقد تفعل ما ظاهره سيء فتثاب عليه .

ولو أننا قسنا كل تصرفاتنا بهذا المقياس (لكل امرىء ما نوى) لأستقامت أمورنا فالطبيب الذى يعالج امرأة يثاب أو يعاقب على نيته . فإذا كان يضع بيده للذة عوقب وإذا كان يضعها ليعرف موطن الداء ويقف على مكان البلاء أثيب وأجر ، وليس فى مكنة المرء أن يعرف كنه العمل ، ولكن النية هى التى تحدد مساره ، وتحكم عليه .

ومن الألفاظ التى تحتاج إلى وقفة فى الحديث الهجرة ، فهل المقصود بها

الأنتقال من مكة إلى المدينة (الهجرة المعهودة) ؟ .. أم أنها ترك ما نهى الله عنه والخروج من ذل المعصية إلى عز الطاعة ؟ ..

ولا بأس عندنا من إرادة المعنيين ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يضرب مثلا بهذا الرجل وما فعله ، ونحن نقيس عليه كل إنسان يعمل ماظاهره الصلاح وهو لا يبتغي وجه الله ، فلا يجب أن نخدع بظاهر الأفعال ، فالظاهر وحده ليس يكفى ، وإنما لابد من مصاحبته لنية طيبة .

وأنا أقصد الهجرة على معناها المحدد فى الحديث ، فبعد فتح مكة لا توجد هجرة ، ولا إنتقال من مكان إلى مكان ، فتلك فرية لجأ إليها الخوارج ، ويدعيها من يعتنقون مذهبهم فى أيامنا وهى فكرة خاطئة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنما ساق هذا القول للتمثيل ، وللشاهد الحاضر ، والأمر الواقع آنــذاك ...

ومن الأمور التى تجب مراعاتها إطلاق الأعمال بنوعيها الإيجابية والسلبية ، فالقيام بالصلاة عمل إيجابى ، تراعى فيه نية المصلى ، والإمتناع عن شرب الخمر فعل سلبي تراعى فيه نية الكف ، فقد يمتنع الأنسان عن شرب الخمر لمرض أو غير ذلك وقد يمتنع إمتثالا لأمر الله وطاعة لنهيه ، فالأنسان قد إمتنع فى كل ، ولكن الذى يحدد مسار الإمتناع إنما هى النية .

والحديث يعطى لكل عمل جزاءه ، ولكل فعل ما يترتب عليه ، فالعمل المبتغى وجه الله نثاب عليه ، والعمل المنظور فيه إلى الدنيا قد تنال به الدنيا ، أو يحصل الأنسان من عمله على ما يريده من جاه أو مال أو علم .

فالكافر واللاهى إذا توفر على علم معين أو عمل خاص نبغ فيه وحقق ما يبغى ، ولكنه لا يثاب على كل هذا ، لأن التكليف مرتبط بالإيمان والبلوغ

والعقل ، فمتى إختل شرط من ذلك سقط ما يترتب عليه ، ومعنى هذا أن الأسلام لا يغفل النتائج الإيجابية أو السلبية المترتبة على العمل ، ولكنه يعول فى الجزاء الدينى على النية المصاحبة للعمل .

وهذا الحديث يربط العمل بالغاية التى إرتبط بها ، ولا يعلق أهمية على الحدث فى ذاته ، فالمسلم يجب أن يرتبط بربه فى كل أعماله ، وينشد رضا الله فى حركاته وسكناته ولا يعتمد على العمل وحده ، والأسلام بذلك يحرر المسلم من القيود الدنيوية ، فلا شهوة تغل من فعله ولا رياء يقيده ، وتحرير إرادة المسلم من الأرتباط الأرضى والتحليق به فى سماء العبودية لله ، يسموبه ،ويرفع من قدره .

والأسلام بذلك يحدث ثورة فى السلوك فهو لا ينخدع بالأفعال ومظاهرها ورسومها ولكنه يهتم بأهدافها وغاياتها ، فهو لا يقنع بالواقع المشاهد ، وإنما يهتم بسمو الهدف ، ونبل الغاية . فطالب العلم يجب أن يبتغى بداية وجه الله من جلب مصلحة للمجتمع ودفع مضرة عنه ، ولا يقصر طلب العلم على إرادة النجاح والكسب المادى فأنه قد يحقق كل ذلك ويظل عدو الله ،ضارا بمجتمعه ، مفسدا فى الأرض ، أما إذا إتجهت نيته للخير وقصد وجه الله تحولت كل أفعاله إلى حركة إيجابية فى تقدم أمته ، ولبنة قوية فى بناء مجتمعه فنحن قوم لا يخدعنا ظاهر الأعمال ، فليست أحكامنا تتعلق بما بدا منها ، ولا الأعمال التى نقوم بها ، وإنما الأعمال بالنيات ...

باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

باب حلاوة الأيمـان(١)

«حدثنا آدم بن أبي إياس قال : شعبة عن عبد الله بن أبي السفر وإسماعيل عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» .

ولنا فى هذه الأحاديث عدة نقاط نتحدث عنها فى إيجاز .

أولا . الرواة —

آدم بن أبي إياس توفى عام ٢٢٦ فى عسقلان وهو خراسانى الأصل ، وإن نشأ فى بغداد أوخذ عن علمائها ثم أخذ عن علماء الكوفة والبصرة والحجاز ومصر ، وكان وراقا ، وهو ثقة قال عنه أبو حاتم «ثقة مأمون متعبد من خيار عباد الله .

أما شعبة بن الحجاج فهو ذو قدم راسخة فى الحديث ويكفى أن سفيان الثورى قال : شعبة أمير المؤمنين فى الحديث .. وقد أجمع علماء الجـرح ، والتعديل على توثيقه وتعديله ، وأتفقوا على إمامته ، توفى بالبصرة عام ١٦٠هـ

والراوى الثالث هو عبد الله بن أبي السفر وهو وإن لم يكن فى منزلة بقية رواة الحديث ولكنه لم يأت ما يقدح فيه ، وقد روى عنه جماعة من الثقاة ، وتوفى فى حكم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حوالى سنة ١٣٠ هـ .

أما إسماعيل بن أبي خالد فقد إتصل بجمع من الصحابة وسمع منهم وأخذ

---

(١) صحيح البخارى ح ١ ص ٩

عنهم ، وروى لهم وكذلك روى لجماعة من التابعين ، وهو عالم ثقة روى عنه سفيان الثورى ، وكان دقيق العلم حسن الرأى . جيد الرواية .

ومن هنا لقب بالميزان لما يمتاز به من حسن تقدير ، ونأى عن الهوى . وتوفى بالكوفة عام ١٤٥ هـ .

أما الراوى الخامس فهو العالم الثبت عامر بن شراحبيل المشهور بالشعبي وهو تابعى — كوفى — أدرك خلقا كثيرا من الصحابة ، وقد إعترف بأنه ألتقى بخمسمائة صحابى ، وروى عنه جماعة من التابعين ، ولد فى خلافة عثمان بن عفان وتولى قضاء الكوفة ، ولم تعرف سنة وفاته ، وإن كان من المؤكد أنه توفى بعد المائة الأولى من الأسلام ، وينحصر الخلاف حول ما بعد المائة ، وكان يمتاز بخفة الظل ، والروح المرحة ، والمزاح .

والراوى السادس — وهو المصدر الثانى الناقل للحديث فهو عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو أحد العبادلة الأربعة الذين إشتهروا برواية الحديث وهم . عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبدالله بن عمرو راوى حديثنا هذا . وإن إمتاز عبد الله بعدة أمور . :

(١) أنه كان يكتب .

(٢) كان يكتب الحديث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو الوحيد الذى لم يكف حين نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن كتابة شىء غير القرآن ، وأمر بمحو ما عداه . بل ظل يكتب ويقيد .

(٣) له أقدم أثر فى الحديث وهى صحيفته التى كتبها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى الصادقة ، وهى تحوى عدة أحاديث سجلت فى زمن قائلها ، وسبقت كل ما عداها ...

(٤) أسلم قبل أبيه وكان ذا شخصية قوية ، وفهم ثاقب وبصر بما يروى

فلم يرو عنه غير سبعمائة حديث ، وتفوق عليه أبو هريرة فى عدد الأحاديث المروية عنه ؛ إختلف فى زمن وفاته ومكانه . فقبل سنة ثلاث أو خمس أو سبع وستين ، وقبل إثنتين وسبعين ، وقيل توفى بمصر وقبل بالطائف .

الحديث إنفرد بروايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو وإنفرد به الشعبى عن عبد الله بن عمرو . فهو إلى هنا حديث آحاد . ثم رواه إثنان عن الشعبى هما عبد الله بن أبى السفر ، وإسماعيل بن أبى خالد . وإنفرد بالرواية عنهما معا شعبة بن الحجاج . فعاد الحديث لرواية الآحاد وإنفرد به عن شعبة آدم بن أبى إياس .

ومن الغريب أن الأمام البخارى قد إنفرد بهذا المتن . فهو الكتاب الوحيد الذى رواه كما نقلنا ، وإقتصر الإمام مسلم فى صحيحه على الجملة الأولى فقط «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» . وزاد الحاكم فى المستدرك «والمؤمن من أمنه الناس» ، وإتفق أبو داود والنسائى على لفظ البخارى إلا أن لفظ النسائى «والمهاجر من هجر ما حرم الله عليه» ..

لم يرو البخارى فى هذا الباب غير هذا الحديث . وعلى ذلك فهذا حديث واحد فى موضوع خطير جد خطير ، رواه صحابى واحد ، فلو أننا أغفلنا أحاديث الآحاد لفاتنا خير كثير ، وحرمنا من أحاديث ذات دلالة وإيحاء

ثانياً :

تعرض هذا الحديث لموضوع يتعلق بالسلوك بين المسلمين . ولربما نما إلى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أدرك . أن من المسلمين من يعتمد على تأدية ما إفترضه الله عليه ويطلق من لسانه ويده فى المسلمين فقال هذا الحديث موجها ومرشدا .

والحديث يمس ناحية ذات حساسية فى علاقات الناس . إذ كثيرا مانرى المسلم حسن الصلاة ، حسن الذكر ، ولكنه يخوض فى أعراض الناس ويؤذى المسلمين بما يعرف ، أو يبهتهم بما لا يعرف كاشفا عن عوراتهم ، فاضحا لما ستره الله من أحوالهم ، أو ينال المسلمين بأذى من يده فيبطش بهم ، وينهال على الضعفاء ضربا وتنكيلا . فهذا السلوك مدان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرفوض من صاحب الشريعة ، ويختلف مع المفهوم العام لمقاصد الشرع .

إذ المسلم وهو الذى تخطى مرحلة الإيمان . لأن الإيمان هو التصديق القلبي والأسلام هو التنفيذ العملي لما أعتقده الشخص . وهو - المسلم - مطالب بأمرين .

(١) عقيدة ذات مواصفات خاصة .

(٢) سلوك يعبر عن تلك العقيدة .

ولما كان الأسلام عقيدة وشريعة فقد حرص كل الحرص على مكارم الأخلاق واحتفى بما يرسى قواعد الأمن فى المجتمع ، ويحقق السلام بين الناس فالمجتمع الأنسانى كما هو فى حاجة ماسة إلى التقدم العلمى والتفوق التكنولوجى كذلك هو فى حاجة شديدة إلى التآلف واستتباب الأمور ليتسنى للمجتمع تأدية دوره فى الحياة ، وامتلاك ناصية التفوق .

والحياة بما حوت من صراع وغلبة ودفع وطموح داعية إلى التدابر ، والتنافر ، ودافعة إلى التناحر والتنابز ، ومن هنا وجه الأسلام نظر إتباعه إلى خطورة ما تدعو إليه الحياة ، وحث على السيطرة على وسائل الإيذاء المألوفة لدى العرف والظاهرة فى كل مجتمع . اللسان واليد . فنهى عن إتخاذهما وسيلة للإيذاء .

ومن المألوف أن الأنسان لا يلقى بالا إلى ما يصدر عنه حيال الناس فهو مهتم بأن يرضى ربه زاعما أنه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام قد نال ما يبغى ، وظفر بما يحب ، فلا يهتم بسلوكه ، ولا يعتنى بمعاملة الناس مادام قد اهتم بصلاته واعتنى بتأدية الرسول المفروضة .

وتلك داهية نآد ، وإغترار يفضى إلى الهلاك ، فما شرع الدين إلا لمصلحة العباد ، فهو يدرأ عنهم البلاء ويجلب لهم الهناء . ويجب على المسلم أن يتبصر طرق السلوك فيحرص على تعبيدها وإصلاحها ، ويتعهد إخوانه فلا يصدر منه ما يسىء ، ولا يروى عنه ما يؤذى .

ونحن نلاحظ أن الذين يؤدون العبادات ويحرصون على الطاعات غير مدركين — إلا القليل — أثر الخلق الحسن فى المجتمع . فتندر بينهم النادرة ، وتقل الفكاهة ، ولا يعرف عنهم بشاشة الوجه ولا طلاقة الأسارير ، ولاسخاء اليد ، وإنما الألسنة الحداد ، والحناجر القوية فى الفتنة ، والشفاه المتلمظة إلى التنابز ، واللدد فى الخصومة والفجور فيها ، . وسرعة اليد إلى البطش . وإظهار البراعة فى الإيذاء ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا ، وإنما كان باسم الوجه مطمئن الأسارير ، تمتد يده بالرحمة ، وتدفع بالتى هى أحسن ؛ ومتى جمع المجتمع المسلم بين حسن الأداء ، وحسن الخلق فقد بلغ الغاية وحقق كمال الأسلام .

ومن هنا يأتى التعبير المعجز من الرسول عليه الصلاة والسلام . «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» . فقد عرف طرفى الجملة أى المبتدأ — المسلم والخبر — من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

وليس معنى هذا أن من لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فهو كافر . إذ تعريف الطرفين فى الجملة لايدل على الحصر ، وإنما ينحو بالقول منحى الكمال

والفضل . فالمسلم الحق . أو الكامل . أو الذى يستحق لفظ المسلم الحقيقى هو من سلم المسلمون من لسانه ويده . وهذا يتفق مع قولنا الشاعر المتنبى ، والكاتب الرافعى ، والموسيقى سيد درويش ، فليس معنى ذلك أن ما سوى شـوقى كحافظ وشوقى وأبن الرومى وبشار ليسوا بشعراء . وكذلك ما سوى الرافعى كالمنفلوطى والعقاد وطه حسين ليسوا بكتاب . وما سوى سيد درويش إسحاق الموصلى وداود حسنى وزكريا أحمد ليسوا بموسيقيين ، وإنما تعنى الجملـة عند قائلها أن الأنسان الكامل التى بستأهل هذه الصفة عن إستحقاق وجدارة هو فلان .

وعلى هذا فلا يجوز أن يحمل من لا يفقه كلام العرب الحديث على غير ما يرمى إليه فيزعم — من عند نفسه — أن من يطلق لسانه ويده فى المسلمين فهو كافر . فذلك فهم قاصر ، وأفق ضيق أتى به عدم إدراك دلالات التراكيب ومرامى النظم فى الكلام العربى .

ومن البلاء الذى حاق بالمسلمين ذلك الفهم المحدود الذى يقف بالأمور عند حدود الرسوم ، والدلالة الأولية للألفاظ دون إستيعاب أو فقه لعمـق الدلالات ، ووحى الإشارات .

ومن البين أن للأنسان جوارح كثيرة . فلماذا خص الحديث جارحتين فقط هما — اللسان . واليد . ؟ .

وهل معنى هذا أنه يباح إيذاء المسلم بالرجل أو العين مثلا ؟ . لا ريب أن إيذاء المسلم محظور على أية حال وبأية صورة . وذكر الجارحتين — اللسان واليد لا يحدد النهى فيهما ، وإنما هما مجرد مثالين . ويقاس عليهما كل ما من شأنه أن يكون مصدر أذى أو منشأ ضرر .

وإنما ذكرهما لأمرين عندنا .

اولا : أنهما أظهر الجوارح إيذاء وأكثرهما إستخداما . وإيذاؤهما ظاهر جــلى .

ثانيا : أن ذلك جاء جريا على العادة المتبعة ، والعرف الذى كان متفشيا عند العرب . من إطلاق اللسان ، واليد .

وليس معنى ما تقدم إباحة ما يصدر عن سواهما ، أو القض من ضرره ..

ومن العجيب أن الحديث قدم اللسان على اليد . لأسباب منها .

(١) أن إيذاء اللسان أشد وأنكى . فكل جرح يلتئم ويرجى برؤه إلا جرح اللسان . فالكلمة التى يطلقها المسلم فى أخيه قد تحفظ وتردد على الألسنة وتبقى ما بقى راوية . وقد يمتد أثرها فيصل إلى الخلف ولا يتوقف على من قبل فيه . وكذلك الآثار المترتبة عن الأذى من غير اللسان قصيرة المدى ضعيفة الأثر ، سريعة الزوال .

أما ألم ما ينشأ عن اللسان فيتجدد ألمه ما تجدد القول ، ومن هنا فقد أدرك الشاعر الفرق الدقيق بين ما ينشأ عن اللسان من أذى وما ينشأ عن غيره بقوله

جراحات السنان لها إلتئـام ولا يلتـأم ما جرح اللسان .

ولما كان الأنسان مفطورا على الضعف ؛ فيه مثالب ، وليس فى مكنته أن يتجرد من الرزائل ، ومن هنا فمن طلب عيبا وجده ، ومن إبتغى مثلبة عثر عليها ، فإذا ما يسرنا تناول أعراض الناس شاعت الرذيلة ، ومن هنا شدد الأسلام النكير على من يؤذون الناس بلسانهم سواء أكان عن طريق القذف ، أو التشهير أو كشف العورات أو التعبير بما فى المرء من عيب خلقى أو خلقى ، وفى القرآن الكريم «ويل لكل همزة لمزة» — وأيضاً «يا أيها الـذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء

عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب» كما في سورة الحجرات ...

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين ظن أننا لا نؤاخذ بما نقول . فقال له «ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» .

ولو ترك الحبل على الغارب لمن يشاء لعمت الفوضى ، وركب الناس الشطط ، إذ لا يعدم المرء أن يقف على عورة لأخيه مهما حاول أن يسترها أو يزعم كتمانها ، ولقد أصاب زهير بن أبي سلمى شاكلة الصواب حين قال.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة . وإن خالها تخفى على الناس تعلم.

ومن هنا وجب على المسلم أن يكف عن ذكر عيوب أخيه ، أو يلوك سيرته حتى لا تتفشى الضغائن ، ويغدو المجتمع هدفا للقيل والقال ، وتشيع بين الناس عوامل الفرقة فينصدع البناء الإجتماعي ، ويتدهور الترابط العام إذ كل إنسان مزود بلسان ومعرفة ، وعنده القدرة على أن يطلق لسانه كما تطلق لسانك . فكفك عن ذكر أخيك هي حفظ لك ، وصيانة لعرضك وإلا لو أبحنا ذلك لما بقيت لامرىء حرمة ، ولا متهنت الحرمات ؛ ورحم الله من قال :

لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن.

فالإسلام بذلك يحمي المجتمع من داء وبيل ، وشر مستطير ، وأمر لو ترك لأتى على كل شيء . ولم يترك أديما صحيحا . ولا عرضا مصونا .

(٢) إن إيذاء اللسان أيسر مؤنة ، وأقل تكلفة وعنتا على المؤذي من إستخدام اليد . إذ اللسان لا يكلفك سوى تحريكه ، والتحدث بما تعلم أولا

تعلم . فيستطيعه الضعيف والقوى ، والغنى والفقير ، والعاقل والجاهل . ثم إنه عذب الوقع على آذان السامعين . وحلو الأعادة على ألسنة الذاكرين وهو — فوق كل ذلك — لا يجشم القائل مشقة ، ولا يكلفه حرجا .

أما أذى اليد فيحتاج إلى قوة وبأس . وهما غير متوفرين فى كثير من الناس ، ثم إن المؤذى ربما تعرض — وهو يضرب — لرد فعل فيناله ولو أذى لا يؤبه به ، ومن هنا كان تقديم اللسان على اليد أمرا معقولا .

وهل معنى ذلك أنه يجوز للمسلم أن يتعدى على غير المسلمين باللسان واليد

الواقع أنه لا يجوز . وأنما نبه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى كف الأذى عن المسلمين . لأنهم أولى بالرعاية — وأحق بالحفظ ، وثم إن المرء إذا تعود الحديث الحسن مع معاشريه من المسلمين وكف الأذى عن أبناء مجتمعه أصبح ذلك ديدنه ، وغدت تلك طبيعته وخلقه الذى يتخلق به ولا ينفك عنه فيسرى هذا الخلق الرفيع إلى غير المسلمين .

إذ المفروض أن الأنسان يبذل خيره للأقرب فالأقرب وهكذا . مثل قوله عليه الصلاة والسلام . «خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلى» .

وإيذاء اللسان واليد له صور كثيرة وأنماط ، مختلفة ، وأساليب متباينة ، وهى مهما تعددت مرفوضة ، ولا يحل شىء منها . فكف اللسان عن الأذى يدفع إلى حسن الجوار ، وكرم المعاشرة ، وحفظ أسرار الناس ، وستر عوراتهم ، وإماتة ما يخجل الأنسان من ذكره ، وفى كف إيذاء اليد إفشاء الأمن . ودفع الخوف ، وحماية الضعيف ، وردع القوى .

ولكن هل معنى هذا أنه لا يجوز أن نقيم حدا ، أو تعزيزا على مسلم . ؟ . إذ فيه إيذاء له ، وضرر يلحق به . ؟

لا ريب أن ذلك غير داخل فى عموم مدلول الحديث ، لأن ذلك ليس إيذاء ، ولا دفعا للسلامة ، وإنما هو ضرب من الأصلاح ، وسبيل من سبل كف الأذى .

وعلى هذا يحمل المنع على أن توقع أو توجه إلى أخيك المسلم أذى لا يستحقه أو ضررا فوق ما يستحقه لغير ما مصلحة أو هدف عام أو خاص .

أما إذا كان الأذى عن ذنب أو عقوبة ، أو لغرض تربوى أو أمنى أو أمر تفرضه الضرورة ذات المصلحة فلا بأس به .

«والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» .

الهجرة معلومة . وهى الأنتقال من مكان إلى مكان لغرض ما .

وقد حدثت فى بداية الدعوة الأسلامية هجرتان .

(١) هجرة إلى الحبشة . ولم يهاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى هجرة خاصة .

(٢) هجرة إلى يثرب — المدينة — وإليها هاجر الرسول وجل المسلمين فهى هجرة عامة .

ولقد ترتب على الهجرة مواقف ومناقب . ولربما ظن بعض الناس أن الهجرة بما كان فيها من صعوبات وتضحيات تجعل المرء بمنأى عن المؤاخذة

ولما كانت الهجرة فى سبيل الله من الأمور المحببة لدى المسلمين ، وغاية دونها ترك المال والولد لما وراء ذلك من الجزاء والثواب إبتغى بعض المسلمين أن تكون لهم هجرة ، وتمنى لفيف منهم لو أنهم كانوا من المهاجرين .

ولكى يفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمل فى الثواب أمام الذين يبتغون الوسيلة لله ورسوله . ذكر هذا القول . فجعل الهجرة أمرا مباحا يستطيعه من أراد من غير أن يرجع بالتاريخ أو يدع ماله أو ولده .

وهذا رفع للحرج ، ودفع للمشقة ، وتوسعة لمن أراد أن ينال من فضل الله وينأى عن سخطه .

وليست الهجرة المكانية سوى البعد عن مصدر الأذى ، والفرار عن أسر القوة ، وجبروت الطاغوت ، وفى هجر المحارم دفع للأذى ، وفرار من أسر الشهوة ، وتحطيم لتحكيم النزغات .

ففى الهجرة فرار بالجسد من مكان إلى مكان وفى هجرة المحارم فرار بالجسد من ضيق إلى سعة ، ومن شدة إلى فرج ، ومن عبودية إلى حرية ، حرية الطاعة ، والأستقامة والأنتصار على سلطان الشهوة ، وإغلال اللذة .

ولما كانت النفس تجنح صوب ما تنهى عنه ، وتسعى إلى ما تحرم منه ، وتتوق إلى ما ليس لها ، فهى بطبيعتها تشتهى مالا عندها وتمل من المتاح الراهن فكان فى عصيانها ، ودفعها مشقة كبيرة وعنت دونه عنت الرحلة ، وترك المال ، ومن هنا جازت المقارنة وحسنت المطابقة .

ففى الهجرة المعلومة يدع الأنسان أحبابه ، ويترك أمواله ؛ ويعرض بدنه ونفسه لما يكره من إرهاق ومشقة ، وفى هجر ما نهى الله عنه يدع الأنسان ما يحب ، ويترك ما يشتهى ويرغب ، ويعرض بدنه ونفسه لانفعالات شتى ، وصعوبات جسيمة فيها معاناة وإرهاق .

وفى الهجرة المعلومة المشقات متناهية ، والصعوبات — وإن كثرت — محدودة ، أما فى الهجرة عما نهى الله عنه فالمشقات لا تتناهى ، والصعوبات لا حد لها ، والإرهاق متواصل ، والطريق صعبة شاقة .

ولقد يتحمل المرء التعب فترة ليستريح فترات . فالمجاهدة فى الهجرة المعلومة معلومة محدودة ، والمجاهدة فى هجرة ما نهى الله غير معلومة وغير محدودة .

وفى الهجرة المعلومة — وهى الأنتقال من مكان إلى مكان — قد لا يكون الدافع وجه الله . كما حدث فى مهاجر أم قيس . والذى من أجله قال صلى الله عليه وسلم حديث إنما الأعمال بالنيات .

أما هجرة ما نهى الله عنه فلا رياء فيها ، ولا نفاق ، وإنما هى خالصة لوجه الله . ولا يترتب عليها جاه دنيوى . أو لقب دينى ، أو تجمع حزبى أو قبلى غالبا.

وليس هناك من وسيلة فى تجنب ما حرم الله إلا بالهجرة منه ، وذلك يكون بالأنتقال والأبتعاد عن تأثير الحرام ، وسلطان المنهى عنه ، وإذا كانت الهجرة المكانية تبعد المسافة بين الأنسان وما يكره فكذلك فى هجرة ما نهى الله عنه يجب أن يجعل المرء بينه وبين ما نهى عنه مسافة نفسية ، وثقافية ، ووجدانية ، حتى يكون بمنأى من الشر ، ومنجاة من الهلاك .

ولو أننا نحن المسلمين — أخذنا أنفسنا بهذا الأدب الرفيع عودنا اللسان أن ينطق بما يبهج لا بما يحزن ، وبما ينفع لا بما يضر وبما يسر لا بما يسىء . ولم نطلقه حرا يلوك أعراض الناس . وإن كان حقا ، فليس كل ما يعرف يقال . لأصابنا خير عميم ، وغدونا على خلق كريم .

ولكنا للأسف نختلق الكذب ، ونصنع البهتان ، وندعى القول إفكا وزورا . زاعمين أن تلك براعة ومقدرة ، وأن تشويه الناس محمدة، وتعريتهم مكرمة .

ومن إيذاء اللسان رفع الصوت فى غير ما موجب ، والكلام بوجه لا يليق .. (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) .. كما فى سورة لقمان .

ومن السائد الآن أطلاق اللسان فى كل شىء ، ورمى الناس بكل موبقة دون ورع أو خشية ، وليس هذا من خلق الأسلام .

أوليس من العار أن تتخلق الدول الأوروبية التى لا تعرف الأسلام بما يطالبنا به ديننا ، وهم يزعمون أن هذا خلق المدنية والحضارة ، ونحن بما نأتى من أقوال خارجة ، وألفاظ نابية ، ولغة مكشوفة صريحة نكون قد تهاونا فى حق ديننا ومجتمعنا . فلا بأقوال الرسول إئتمرنا ولا بأفعال الحضارة إقتدينا ..

فما بالنا وهذه أقوال نبينا عليه الصلاة والسلام لا تنطلق ألسنتنا إلا بما يندى له الجبين ، ولا يشب صغيرنا إلا على القذف ، ورمى المحصنات ولا يشعر الرجل برجولته إلا إذا سب أو لعن أو قذف ، وناهيك به من خلق يذهب بالحياء ويمحق الشرف .

حدثنا محمد بن كثير قال : أخبرنا سفيان عن ابن أبي خالد ، عن قيس ابن أبي حازم عن أبي مسعود الأنصرى قال «قال رجل يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان : فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى موعظة أشد غضبا من يومئذ . فقال : أيها الناس . إنكم منفرون . فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» .

أولا : فى سند هذا الحديث لفظ حدث ، وأخبر — وهذا تنوع فى طرق الاتى .

ثانيا : محمد بن كثير ت ٢٢٣ هـ ، وقد إختلف فيه فمن العلماء من وثقه ومنهم من نهى عن الكتابة عنه وأخرج له الإمام مسلم حديثا واحدا فى الرؤيا

فأما سفيان الثورى وإسماعيل بن أبي خالد فمعلومان . وقد سبق الكلام عنهما مختصرا .

وأما قيس بن أبي حازم فقد أدرك الجاهلية والأسلام ، وأقام فى الكوفة ولم يلتق بالنبي عليه الصلاة والسلام لوفاته قبل أن يصل قيس إليه .

وروى عن جماعة من الصحابة لبس لهم راو سواه . توفى عام ٨٤ هـ أو ٩٨ هـ والراوى الخامس وهو الناقل الأصلى للحديث هو أبو مسعود عقبة بن عمر بن ثعلبة خزرجى — شهد بدرا ، وكان أصغر من شهد بيعة العقبة مع انسبعين من قومه فى بداية الدعوة الأسلامية ، روى عن رسول الله ١٠٢ حديثا توفى ما بين عامى ٣١ ، ٤١ هـ .

ثانيا :

يبدأ هذا الحديث بشكوى تقدم بها صحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . يحدد فيها ما يفعله بعض الأئمة من تطويل فى الصلاة . فانتاب الرسول غضب شديد ، وبدا عليه الأنفعال الحاد ، وجمع الناس ثم وجه الخطاب

إليهم جميعا . فى صورة نصيحة عامة تحمل فى طياتها النهى عن تلك الصورة المشكو منها .

فمن تصدر قوما فى صلاة فعليه أن يرحمهم ، إذ يجب عليه أن يجنح نحو التخفيف ، فقد يكون فى المأمومين المريض والضعيف ، وصاحب الحاجة .

وهنا تلح عدة مسائل لابد من مناقشتها :

أولا :

التعميم فى توجيه اللوم . وهذا خلق عظيم ، وأدب جم علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلا يجب أن نعلن على الملأ توجيه اللوم إلى من أتى شيئا يدعو إلى لومه ، بل تجب المحافظة عليه ، وحفظ وقاره وحماية هيبته ، وهذا يجعل الموعظة أكثر تقبلا ، وتؤتى ثمارها فى غير ما حساسية ، إذ التشهير قد يدفع إلى اللدد ، أو التمادى ، أو الإصرار فضلا عن جرح الكبرياء ، وهدم الكيان .

فالسائل (الشاكى) . لم يعلن عنه حتى لا يكون عرضة لقيل أو قال . ، والذى طول فى صلاته لم يعن به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لايعالج شخصا معينا ، وإنما يحارب ظاهرة ، إن وجدت فى كلان اليوم فستوجد فى إنسان غيره ، فمحاربة الأشخاص لا تجدى ، وإنما قطع وابر الظاهرة هو المفيد ؛ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يضع مبدأ عاما غير مرتبط بأشخاص ، وغير موقوف على أناس بأعيانهم ، وإنما هو رهن بواقعة ، ومتصل بموقف .

ثانيا — المبالغة فى العبادة :

قد يظن بعض الناس أن المبالغة فى العبادة مستحسنة عند الشارع . وأن الإفراط فيها أمر يحمد فاعله ، ويثنى على آتيه .

ولما كان الدين الأسلامى دين الفطرة ، الذى يتساوق مع النفوس ، وما جلبت عليه ، ودين الوسط لا إفراط فيه ولا تفريط لا فى عقيدة ولا عبادة فقد حارب الإفراط فى كل مظاهره ، وذم الغلو أنى كان ، فلربما كانت المبالغة دافعة بعد ذلك إلى الملل ، وسببا إلى الإنصراف ، فالنفس البشرية تقبل على الأمر اليسير ، وتنفر من العسير ، وتحب السهل وتكره الصعب . ومن هنا فقد حرص الأسلام على التخفيف على أتباعه ، والتيسير على معتنقيه قال تعالى (ما جعل عليكم فى الدين من حرج» . ، وقال «يريد الله ليخفف عنكم وخلق الأنسان ضعيفا» . وهذا المعنى يؤكده رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نصح أحد أتباعه قائلا : إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى» . ، ويقول «إن الله لا يمل حتى تملوا» فكل هذه الأقوال تحكم بالتيسير ، وتقضى بالتخفيف . فالعبادة لا تقاس عند الله بطولها والمبالغة فى تأديتها ، وإنما تقاس بصدقها ، وما صاحبها من إخلاص ورافقها من صدق ...

ولما كانت طبائع الناس مختلفة ، وحاجاتهم متباينة فلا يجوز أن يحكم عليهم بحكم واحد ، ولا أن يحملوا جميعا على أمر قد يظلم بعضهم ، ويصيب منهم من يصيب بالحرج والمشقة . وكيف يغفل قوم عن هذا المفهوم وهو منطق القرآن ، وروح الشريعة السمحة ، قال تعالى «فأتقوا الله ما إستطعتم» . فكل منا يتقى الله ويعبده على قدر إمكاناته الروحية والوجدانية . فإذا ما كان فى الناس من يرغب فى إطالة لقائه مع ربه فليكن منفردا ، أو فى بيته ، أو مع قوم اتفقوا فى المشرب والأتجاه وقد أمن أنلا يلج عليهم من ليس منهم ؛ حينئذ فلا بأس من الإطالة ، ولا غضاضة فى التمهل مادام ذلك لا يجر أذى ، ولا يدفع إلى ما يسىء مسلما . فإن الأذى المترتب على التطويل قد يخرج

بالمرء عن سواء السبيل ، ويبتعد به عن الله وهو فى حضرته ، ويبغض إليه الصلاة وهى مناجاته مع مولاه ، فتغدوا ثقيلة بعد أن كانت خفيفة ، مضنية بعد أن كانت مريحة ، مأساة بعد أن كانت سلواه ونجواه .

ولعل فى هذا يكمن سر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنكم منفرون» فأنظر كيف يصل التطويل بالمرء من الإقبال إلى الأدبار ، ومن الحب إلى البغض .

... ومن المعلوم أن التكاليف — وما فيها من شقة — ثقيلة على النفس وهذا يجعل المشرع حريصا على التيسير ، وقبول الأعذار ، وأخذ العفو منهم .

فإذا ما أضفنا إلى التكليف الملل فقد بغضنا الناس فى الفرائض ، ونفرناه من الصالحات ، وجعلنا الصلاة وهى سبحات ربانية يصعد فيها المسلم بالشوق إلى ملكوت الله ، يناجى ربه ، ويبثه لواعج نفسه نجعل نحن بهذا التنطع تلك الصلاة عملا مرهقا ، وأمرا إذا لايقبل عليه المرء إلا بعد مكايدة ودفع للعنت فالذين يطيلون فى صلاتهم عن حد الأعتدال يرهقون الناس ، ويسيئون إلى الدين ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وليس معنى هذا أن الأنسان لا يطمئن فى صلاته ، ولا يعقل ما يقرأ فذلك يخرج بالصلاة عن حدود الوقار والحشمة إلى حد التهريج والفكاهة . فالذي يطيل إطالة تخرج عن حد الأعتدال مسرف منفر ، والذى يتعجل تعجل القالى النافر مستهتر مستهزىء ، فعلينا أن نتوسط ، وأن نقيم الصلاة فى وقار ، ونؤدى أركانها فى إستواء ووفاء .

وقد أبصرنا بيننا شبيبة يطيلون فى الصلاة إطالة كبيرة ، وهم يعتقدون أن هذا العمل يقربهم إلى الله غير مدركين أنهم أضاعوا وقتا ، وفوتوا على الناس مصالح ، وشقوا على المريض والضعيف ...

ولقد صليت مرة صلاة الظهر فى عام ١٩٨١ م فى مسجد الكلية بالشاطبى بمدينة الاسكندرية . وقد بقى على ميعاد المحاضرة ربع ساعة . وكنت أظن أن هذا القدر يكفى لصلاة الظهر ، فإذا بالأخ الإمام يصلى فى ساعة ، فضيع على الطلبة محاضرتهم . ومصالحهم ، وأوقاتهم ، ولقد سألت كثيرا ممن أعرف ماذا كنت تقول فى هذا الوقت ، فقيل لى كنت أعيش مع نفسى فى البيت أو الشارع ، ولقد خرج كثير من الناس عن صلاتهم ، وضاقوا ذرعا بما يفعل هذا الأخ الفاضل ، ولما حدثته فى ذلك ما كان منه إلا أن قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بطوال السور . فقلت له . وكان يصلى بقصار السور . فلم أخذت التشديد ولست منفردا أو منعزلا . ؟ . قال . إذا كنتم فى الصلاة تضايقتم من ساعة وإذا كنتم فى مباراة للكرة لم تشعروا بالوقت فقلت له وهل يطيل الحكم وقت المباراة كما يريد أم هو محكوم بقانون . ! وترصدت الناس بعد ذلك فوجدت كثيرا من الناس إذا رأوا أمامهم سيكون من تلك الجماعة التى تطيل إنفضوا وإنصرفوا عن الصلاة ، وخرجوا من المسجد مسرعين .

والأسلام دين التوسط فى كل شىء . فلا يطالب أحد أتباعه بمغالاة فى منكح أو مشرب أو عبادة أو إعتقاد ، بل إن الثابت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يئد كل تطلع إلى المبالغة ، ويحارب كل جنوح للغلو ، (فابن مظعون) حين هم ورهط معه بإعتزال النساء ، وقيام الليل ، وصيام النهار نهاه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقدم لقوله بمقدمة بليغة تكشف عن طبيعة المتكلم . «أنا أتقاكم لله وأخشاكم له لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام وآتى النساء ، وتلك سنتى ، ومن رغب عن سنتى فليس منى» .

وهذا يدمغ السلوك الداعى إلى المبالغة ، ولربما توهم الواهمون أنه نشأ

عن شدة تقوى ، وفضل من ورع ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقدم بين يدى قوله مخبرا أنه أتقى الناس لله ، وهذا أمر لا مرية فيه . وهذه التقوى لا تدفعه للمبالغة ، ولا تحثه على الإطالة .

وليس للأطالة حد ، ولا للتوسط حد ، ولكن الظرف هو الذى يفسر التطويل فإذا كان المرء يصلى جماعة فى مسجد السكة الحديد فى محطة ما ، فعليه التخفيف حتى لا يفوت إنسانا قطار ، أو يعرضه لأذى ، وإذا كان فى مسجد فى مكان مستقر آمن فلا بأس من قراءة سورة قصيرة بترتيل فيه أناة وفهم . وإطمئنان فى الركوع والقيام منه ، والسجود ، والجلوس بين السجدتين . أما إذا صلى المرء منفردا — فهو يعلم ظروف نفسه — فلا ضير عليه أن يطيل ، ولا بأس من أن يقرأ بما يشاء من كتاب الله .

أما إذا كان فى جماعة فقد إختلف الأمر ، فلم تعد الصلاة قاصرة على الإمام وثلة خلفه ، وإنما هى مقامة لجماعة المسلمين ، ولهم أعذار وأحوال ، فلابد من مراعاة أمور الناس ، فالأمام يرعى مصالح من خلفه ، وإذا كان من أدب النبوة أن الضعيف أمير الركب ، فلا يصح أن نحمل الضعيف على قوة القادر ، ولا نجعل صاحب الحاجة مثل المقيم المستقر . وعلى هذا فليس من العجب أن يكون من الأثر «سيروا بسير أضعفكم» . وهذا أمر يتحتم أن يتخلل حياتنا عامة فى الحل والترحال والظعن والإقامة ؛ والفكر والوجدان .

ومن اللافت للنظر أن الشاكى تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول فلان) . ولربما تبادر إلى الذهن أن هذا كلام متناقض ، إذ الظاهر من اللفظ أنه يشكو عدم قدرته على إدراك الصلاة وهذا يقتضى أن الأمام يسرع فى صلاته ، ولا يتأنى ، فلما ذكر السبب ،

وكشف عن العلة ، قال «مما يطول» والتطويل من شأنه أن يطيل أمد الوقت فتستغرق وقتا أكثر فكيف لا يدركها . ؟ .

هنا وقع العلماء فى التأويل والتخريج ، معتمدين على دلالة الفعل (كاد) وكونه من أفعال المقاربة ، ثم نفيه بعد ذلك . (لا أكاد .) . وطلب بعضهم المعنى فى الروايات الأخرى للحديث مثل (لأتأخر عن الصلاة) . أو (إنى لأدع الصلاة) . ، والروايات تفسر بعضها بعضا ، ومعنى هذا . (أنى أتأخر عن الصلاة مع الجماعة ، ولا أكاد أدركها لأجل تطويل فلان) . على حد تعبير العينى فى عمدة القارى . ج ٢ ص ٦٠ ، وقد أهتم العلماء بتفسير الإدراك بمعنى حضور الصلاة ، ولعل الشاكى كان يرمى إلى عدم إدركه الصلاة أى أنه لا يدرك ما يقول ، ولا يعى معنى ما يقرأ لأنه يخرج عن صلاته ، ويطوف حول مشاكله وهمومه نتيجة للتطويل . فهو يستطيع التركيز ، وإستحضار قيمة الصلاة هذا الوقت الممتد . إذ ينصرف ذهنه ، ويتشتت فكره ، ويجوس خلال ذاته فهو غير مدرك للصلاة وإن كان فى الصلاة ، غير واع بها وإن أقامها .

وهذا يفسر لنا سر هذا الغضب الشديد الذى إنتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . «فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موعظة أشد غضبا من يومئذ» . وكيف لا يغضب وهو يسمع أن بعض المسلمين يكادون ينفرون من الصلاة التى هى عماد الدين ، على أيدى طائفة من الذين يتصدرون المجالس ويؤمون الناس ، فالكارثة تقع من عمل يظن أنه قربى إلى الله . ، ومن هنا فلابد من وضع حد لهذا الأمر ، حتى لا يتمادوا فى عملهم ، ويتخذوا من صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلا على إستحبابه لما يقومون به .

ولأن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدرك الخطر المحدق بالمسلمين من

جراء هذا الحدث الذى طرأ فقد تشدد فى القول ، وبدا عليه أثر الغضب الشديد . فهذا أمر طبيعى فرد الفعل الذى ظهر على رسول الله يتفق مع الخطر الداهم الذى يعن من شكوى ذلك المسلم الذى لا يكاد يدرك الصلاة .

ومن العجب أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتوجه باللوم للذى شكا من ذلك التطويل ، ولم يتهمه بأنه لا يحب طول المكث مع الله ، وأنه منصرف عن الله ، ضائق الصدر بإمتداد الوقت ، لأنه يعرف طبيعة البشر ، ويدرك مدى العبث فى حمل النفس على ما تأبى ، ثم لأن الدين بما فيه من سماحة يقتضى رفع الأضر عن المسلم ، ودفع المشقة ، ولذا فقد أتفقت الشكوى مع مفاهيم الأسلام ، وتعارض التطويل مع الأثر الخلقى والنفسى للصلاة ، فهى وسيلة لجذب المسلم إلى حظيرة المناجاة ؛ ودفع به فى سبيل الله ، ولكنها بالتطويل غدت أداة تنفير ، وسببا إلى الأنفصام ، والبعد عن الله ، . وهذا مكمن الخطر . ، ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة والسلام «أيها الناس إنكم منفرون فهذا تعميم شامل لكل من يحدث هذا الصنيع ، ويأتى هذا الأمر . ثم إنه قطع بالحكم ، وفصل القول «إنكم منفرون ..» . وقد صدر الجملة بأداة التوكيد «إن» . والتنفير يخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأليف والجمع .

ثم أخذ الرسول يبين الأسباب الدافعة إلى طلب التخفيف ، وليس ذلك غريبا ، فهو رسول مرب ، لابد أن يقرن الأمر أو النهى ببيان الأسباب ليكون بمثابة وسيلة إيضاح ، فيكون الرسول بذلك قد بلغ أحسن البلاغ ، ويكون الذى يتلقى التوجيه قد وقف على الأسباب فتقبل النصيحة راضيا ، ويقتنع بما يسمع .

وفى هذا توجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم لكل ولى أمر ، وصاحب دعوة وفكر ، أن يقرن ما يقول بالأسباب ، ويشفع ما يأمر به بما تضمنه من علل ودوافع ، حتى يتسنى للذى يتلقى الأمر أن يقف على أسرار ما ينهى عنه ويدرك أبعاد ما هو مقدم عليه .

ولو لم يتبع الرسول أمره بالتخفيف بأسباب ذلك التخفيف لكان من الممكن أن يسأله أحد الناس ، ولماذا نخفف ؟ . أو ما علة ذلك . ؟ .

وعلى هذا يكون الرسول بما أوتى من معرفة بطبائع الناس ، وبما فيه من حرص على تثبيت إيمان المؤمنين قد قطع الطريق أمام السائلين . وأراح الحائرين .

وقد ورد القول على صورة جملة الشرط . «فمن صلى بالناس فليخفف» فانظر إلى دلالة من . التى تعم كل من تصدر لهذا الحدث وانتدب له ، بصرف النظر عن مكانته وعلمه وخلقه ووجدانه ، فالذى يصلى بالناس إماما فعليه مراعاة ظروفهم ، ومراقبة أحوالهم . وقد قام الجار والمجرور «بالناس» بدور كبير فى تجلية المعنى فالتخفيف ليس مرتبطا بمطلق إقامة الصلاة ولكنه مرتبط بالصلاة بالناس ، أما الذى يصلى منفردا ، أو مع جماعة متحدةالمشارب والمآرب ، ومعلوم ظروفها ، فقد سكت الحديث عنها ، ومعنى هذا أنه لا بأس من التطويل حينئذ . ثم يأتى جواب الشرط حاسما فى الدلالة وقاطعا فى تبين الفرض «فليخفف» . والتخفيف إزالة العبء . وهو يستعمل أكثر ما يستعمل فى الأثقال . ويستخدم أيضا فى المعنويات وغيرها . فالتخفيف على هذا عام يشمل تيسير القراءة فلا يجنح المرء إلى طوال السور والتخفيف فى القيام والسجود وغيرهما فلا يبالغ فى أية حركة يؤديها ولا يطيل فى عمل يأتيه .

وكل شىء ميسر فهو محبب إلى النفس عادة ، وإذا كان التطويل فيه

شبهة الملل ، ومظنة النفور فقد باء فاعله بالخسران ، لأنه يبعد المؤمنين بذلك الصنيع عن الله .

وليس معنى ذلك أن الأمام يبالغ فى التخفيف عملا بظاهر نص الحديث «فليخفف فقد قلنا إن التخفيف أو التطويل مرتبط بالعادة ، ومقترن بالعرف وخير الأمور الوسط ، فمادام المسلم يقيم الصلاة ويؤدى أركانها وشروطها فى اعتدال فقد أصاب شاكلة الصواب ، وبلغ من الفعل مبتغاه ، وكل تجاوز خلل سواء أكان بالإفراط أو التفريط ، .

وإنما قلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شفع الأمر بالأسباب الموجبة له لدلالة الفاء فى قوله «فإن فيهم المريض ، والضعيف ، وذا الحاجة». فالفاء تحتمل التفسير والتعليل ، والتبرير .

وقد اختلف المفسرون فى دلالة «المريض والضعيف» . فمن المعلوم أن المرض ضد الصحة ، فهو خلل فى الجسد أو النفس يجعل الجسم عاجزا عن القيام بوظائفه على الوجه الأكمل ، والمريض قد ينتابه الألم وهو فى الصلاة ، أو يعتريه مكروه فهو إن لم يكن مشغولا بألمه فهو فى ترقب الألم ، وتوقع حدوثه ، وهذا لا يجعله مستقر المزاج ، ولا متزن الوجدان ، ولذا فمن الحكمة ألا نثقل عليه بإطالة أمد الصلاة وزيادة ما تستغرق من وقت حتى نضمن أن يعى ما يفعل ، ويعيش ما يأتى من أقوال وإبتهالات ، ولقد جاءت الأسباب عامة «المريض ، الضعيف وذا الحاجة» . فالمرض غير مقيد بالمقعد أو المؤلم أو المستديم ، أو الشديد ، ولكن كل ما يطلق عليه اسم مرض ولو كان يسيرا ، وفى هذا تخفيف وتيسير . وهذا الاسم «المريض» يشمل المرض الظاهر والباطن .

ولا يقال إن المرض قد يكون خفيفا فلا بأس من التطويل ، إذ الأسلام

يحرص على سلامة أتباعه ، ودفع الأذى عنهم ، ومن المعروف أن دفع الأذى مقدم على جلب المصلحة ، وفى التخفيف عن المريض وغيره دفع للأذى وجلب للمصلحة .

أما الضعيف فهو من لم يستطع أن يطيل الصلاة إلا بمشقة ولو لم يكن به مرض ظاهر أو باطن ، فيعتريه بالتطويل إرهاق ، ويناله شيء من النصب ويصيبه طائف من المشقة . فاقتضى رفع الحرج عنه أن يخفف له فى الصلاة

«ذا الحاجة» . صاحب الحاجة ، أى من كان مهتما بأمر من الأمور ، فهو مشغول البال بذلك الأمر ، قلق على مصيره ، مترقب لما يصير إليه ، ومثل هذا الرجل صاحب الحاجة لا يمكن أن يكون مستقر البال ، أو هادىءالنفس وعلى هذا فأوقات هدوئه قليلة ؛ فيجب على الأمام أن يغتنم هذا الوقت الذى يصلى فيه ، ولا يطيل عليه حتى لا يخرج من الصلاة وهو فيها ، وينصرف عن الله وهو بين يديه ، فنكون قد ساعدنا الشيطان عليه ، ومكنا له من إقتناصه والتحليق به فى متاهات الغفلة ، وغشاوة الظلمة .

ونلاحظ — بعد ذلك — مايلى —

أولا : أن الحديث لم يقل «فمن صلى بالناس فلا يطول . وهو الأمر المشكو منه . إذ منطق الأمور يقتضى أن ينهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه مادام غير متفق مع مرامى الأسلام ، ولو قال الرسول ذلك أى فلا يطول» . لتأول بعض الناس فقالوا لا يطول التطويل الممل ، أو المنهى عنه ، ولكن التعبير جاء صراحة يحمل الأمر بالتخفيف حتى لا يدع شبهة لمن فى قلبه مرض ولا حذلقة لمن طبع الله على قلبه .

ثانيا : أن الدين الأسلامى دين واقعى يعترف بما يعترى الناس من خلل وعطب وقلق . وهو لا يشرع الشيء ويطلب تنفيذه على أية حال غير مبال

بحالة المؤمن ، ولا مهتم بأمر التابع له ، ولكنه يشرع الأمر أولا لمصلحةالمسلم ثم إذا وجد التكليف يتعارض ولو أدنى معارضة مع مصلحة المسلم أو يجلب له شيئا من حرج خفف منه ، ويسر فيه .

ولو تأملنا أحوال الناس لألفيناهم لا يخلون من مرض أو ضعف أوإنشغال بال ،فمن منا ليس بصاحب حاجةلا تستبد بعقله ، ولاتستأثر بتفكيره ولاتبقى لغيرها مكانا ، وعلى هذا فالتخفيف هو الأصل ، وهو المقصود فى كل التكاليف .

وإذا كان فى الناس من حفظه الله من المرض ، ومنحه العافية ، وقضى له حاجته فلا يجب أن يحمل الضعيف على القوى ، ولا السقيم على المعافى ، وإنما الأسلام يخفف ليحمل القوى على قدر قوة الضعيف ، لا فضل قوة القوى فالتخفيف لا يضر القوى ، ولا يسىء إلى السليم ولكنه يرى الضعيف ويراعى حالة المريض ، ولا يضل فيه صاحب الحاجة .

وفى هذا رحمه بالناس ، وشفقة لا تصل إليها شفقة المشرعين الـذين لا يراعون الفوارق الطبيعية بين الناس ، ولا يميزون بين القوى والضعيف ، ولذا أبصرنا العصيان المتفشى ، والخروج على الحدود فى القوانين الوصفية ، أما فى التشريع الأسلامى ، فالرحمة ، والتخفيف والتيسير ، ومراعاة الظروف من خصائص ذلك التشريع .

وعلى هذا فالأسلام ينفر من كل تشدد ، ويشجب كل مبالغة فى عبادة أو عقيدة ، وهو لا يقيس العبادات بطولها وتحسينها الخارجى ، وإنما يهتم بما فى العمل من روح ، وما فى التأدية من إدراك وانفعال . فالعبرة بالأثر المترتب

على الصلاة ، فكم من صلاة طويلة ، قطعت وقتا ، وجملت فى ظاهر الأمر ولكنها لم تخلع على صاحبها الأثر المستفيا منها ، ولم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، ولم تكن — مع طولها — صلة بين العبد ومولاه ، وإنما فيها من التمثيل والنفاق والمباهاة ، ومن الفتنة والإعجاب أشباه ؛ وإن خلت من روح العبادة ومعنى المناجاة .

الحديث الرابع :

حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفى قال : حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» .

رواة الحديث —

محمد بن المثنى بصرى كانت به علة فعرف بالزمن ، وثقة الخطيب البغدادى روى عن ابن عيينة ووكيع بن الجراح ، وروى عنه أبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما توفى بالبصرة عام ٢٥٢ هـ .

عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى بصرى سمع أيوب السختيانى وروى عنه هذا الحديث وغيره ، وهو الأستاذ الأمام الشافعى أخذ عنه وروى له وكذلك سمع منه الأمام أحمد بن حنبل وابن معين وابن المدينى توفى عام ١٩٤ هـ .

أيوب السختيانى سمع من الحسن وابن سيرين وأبى عثمان النهدى ومجاهد ، وروى عنه عمرو بن دينار ، وقتادة والأعمش . ومالك . وأبو حنيفة الأمام توفى بالبصرة عام ١٣١ هـ .

أبو قلابة عبد الله بن زيد بصرى ، سمع ثابت بن قيس ، وأنس بن مالك وغيرهما من الصحابة ، وروى عن خلق كثير . توفى با شام عام ١٠٤ هـ .

أنس بن مالك بن النضر خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم خدمه عشر سنين وهو أنصارى روى عن رسول الله ٢٢٨٦ حديثا ، له فى البخارى ٨٣ حديثا

وفى مسلم ٩١ حديثا وأتفقا على ١٦٣ حديثا. من أطول الصحابة عمرا وأكثرهم ولدا ورزقا ، فقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة فى المال والولد وإطالة العمر ، ، وغفران الذنب ، وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة

ويتضح مما تقدم أن الرواة جميعا بصريون أى من أهل البصرة .

يتضمن الحديث معنى جليلا ، وغرضا نبيلا إذ يتحدث عن الأثر الذى يشعر به المسلم حين يكون صادق الإيمان ، وما يشعر به من لذة دونها كل لذات الحياة وقد قطع الحديث بأن للإيمان حلاوة ، ولكن لا يدركها ويقف عليها إلا من توفرت فيه عدة شروط . فمتى وجدت هذه الأمور فى امرىء شعر بلذة تجتاح كيانه ، وشعر بأريحية ذات مذاق خاص .

أما من هذه الأمور فلن يذوق للإيمان لذة ، ولن يشهد له جمالا ، ولن يشعر فيه بحلاوة ، وإن أدى الشعائر ، وأقام الحدود .

ولاشك فى أن لكل شىء عاقبة ، ولكل أمر مذاقا ، وإذا كانت المطعومات والمشمومات تتفاوت تبعاً للأثر المتخلف عنها ، والنتيجة المترتبة عليها فلا غروأن تصحب الإيمان لذة ، وتعقبه حلاوة ، ويشعر المؤمن بطعم خاص يحرم منه من نأى عن حدود هذا الحديث . فنحن — على هذا — أمام حديث يكشف عن سر من أسرار الإيمان ، ويكاشف المسلم بأمر أن فعله وجد أثره حاضرا مشاهدا .

و لمد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمورا متى توفرت عند المسلم شعر بطعم خاص لإيمانه ، وأدرك حسن ما يعتقد ، وحلاوة ما يؤمن به .

والحلاوة مصدر حلا الشيء يحلو . إذا ذهبت مرارته وغدا لذيذ الطعم ، وإذا كانت الحلاوة أظهر ما تكون فى المطعومات والمشروبات فهى — أيضا توجد فى كل ما هو حسى ، وذوقى . فى الحديقة حلاوة ، وفى المرأةالجميلة حلاوة ، وفى الصوت الرخيم حلاوة ، وفى الحب حلاوة ، وفى الكرة مرارة وفى الكرم حلاوة ، وفى البخل مرارة ، وفى الإيمان حلاوة ، وفى الكفر و العناد مرارة .

«وثلاث» نكرة . وهى مبتدأ ، على الأرجح ، والتنوين فيها عوض عن المحذوف فالتقدير ثلاث خصال مثلا ، أو نعت لمبتدأ محذوف ، وقامت النكرة مقامه . وأنا أميل إلى أن جملة الشرط (من كن فيه) . وصف لثلاث ، وهى تزيل إبهام التنكير الذى بها ، وتقربها من المعرفة ، فهى (ثلاث على هذا مبتدأ . وطريقة النطق الناقلة للمعنى تعزز هذا . فيقرأ (ثلاث من كن فيه . ثم سكته لطيفة ويأتى بالخبر — وجد حلاوة الإيمان) أو الجملة التى بعدها . ولا داعى للتقدير والتأويل .

«كن فيه» . أى توفرت عنده ، واستقرت فى ضميره واعتقاده ، وغدا مستقرا لها ، فقد حلت فيه ، وأصبحت جزءا من كيانه ، ولحمة من ذاته ، وعلى هذا فحلاوة الإيمان لا يشعر بها المرء متى كانت هذه الأمور عارضة لا ثبات لها ، أو إذا لم تتحقق كلها . بأن تحقق شىء منها فقط أو شيئان .

وعلى هذا فلابد من أمرين :

١ — ثبات هذه الخصال ودوامها .

٢ — عدم تجزئتها .

وهذه الأمور الموجدة لحلاوة الإيمان هي كما نطق الحديث .

أولا : «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» . ، والضمير فى — إليه — يعود إلى (من) السابقة . أى الشخص الحاوى لتلك الخصال .

وهذه الجملة حوت أصولا كثيرة من أصول الأعتقاد ، ودلت على أسس هامة من أسس الديانة ، فالأنسان — بحكم ما فطر عليه وجبل — يحب ويكره ويقبل ويدبر ، فإذا أحب رضى وأقبل وأستسلم ، وإذا ما كره سخط وتولى وعصى .

وللحب أسباب وله آثار . وسواء أكانت أسباب الحب نفعية أو ذوقية ، أو جمالية ، فالله سبحانه وتعالى أحق بالحب لذاته ، ولآثاره ومننه ونعمه التى لا تحصى ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تمثل فيه أسباب الحب ظاهره وباطنه . وعلى المؤمن أن يبرهن على صدق دعوى المحبة ، فالمؤمن المحب لله ، لا يشرك به شركا ظاهرا أو خفيا ، ولا ينأى عن تعاليم الله ، فيأتمر بأوامره ، وينتهى عما نهى عنه ، فالمحب يطيع حبيبة ، ويذعن له فإذا ما بدا على المحب أنه يعصى محبوبه ، وينصرف عنه ، فحاله يكذب ما يدعى .

تعصى الإلــه ، وأنت تزعم حبه ... هـذا العمرى فى القياس شنيــع
لـو كنت تحسن حبـه لأطعتــه ... إن المحب لمــن يحب مطيــع .

والمحب يرضى عن المحبوب فى كل ما يأتى به ، وكذلك المحب يجب ن يرضى عن الله ، فيفرح بالضراء فرحه بالسراء ، ولا يقنط بالبلوى ، ويضيق ذرعا بالكارثة . «قل كل من عند الله» . ولا يستقل منحة من الله وإن قلت فى نظره . «فقليل ممن تحب كثير» .

وكما يتعلق المحب بالمحبوب فكرا وعاطفة يجب أن يتعلق المسلم بالله فكرا وعاطفة فالمحب دائم التذكر لمن يهواه ، لا يغيب عن باله طرفة عين . ولله در الشاعر الذى قال فى محبوبته .

ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب على ذنوب

لأنه دائم الذكر لها ، فأولى بالمؤمن أن يكون مع الله سلوكا ، وعقيدة ووجدانا ، فالجمال فى الله ، والنفع من الله ، ودفع الأذى بقوته ، فهو الجمال الأزلى ، والخير الدائم والحنان الذى لا ينفد .

وعلى هذا فمن الخطل أن يستعين المؤمن بغير الله ، أو يتعلق بسواه ، فما نراه من أفعال وأقوال عند الأضرحة ، ومساجد الأولياء ينافى — إلى حد كبير حب الله . بل إنه ينافى الإيمان فى بعض الأحيان .

وحب الله كذلك يظهر آثاره فى أتباع ما أنزل الله وما أرسل . ومن هنا إقترن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحب الله . فالمؤمن يقبل على ما شرع رسول الله بحب فلا يزور عن سنة صحيحه ، ولا ينفض من حول مبدأ من مبادئه عليه الصلاة والسلام .

وليس معنى الحب أن يقصره المرء على إظهار الولع ، وإبداء الوله ، فيبدو المؤمن زائغ النظرة ، مسلوب اللب ، تاركا أمور دنياه لغيره ، زاعما أنه مجذوب فى حب الله ، فذلك حب من به خبل ، والمرء الذى يكون على هذه الصورة لا ترضى عنه امرأة يحبها . فكيف يرضى الله ورسوله عن هذا النمط من الحب ؟ .

حب الله ورسوله قمة الوعى ، ونهاية الإدراك ، حتى يتسنى للمحب أن

يحفظ حمى من يحبه ، ويحرس شريعته ، ويدافع عن قيمها وحدودها .

فالحب الحقيقى عندنا هو الحب الإيجابى الخلاق الذى يدع المؤمن كيسا فطنا ، يعى عالمه وما يموج به ، ويعرف نفسه وأسرارها ، ويقف على مجتمعه ومشاكله ، ويكون عامل بناء . لا أداة هدم ، وأساس وجود ، لا أساس فناء . فحب الله يوجد الرشد ، لا الغفلة ، ويمكن للمحب فى الأرض ، لا أن يطرده منها ، .

وحب الله ورسوله — أيضا — يتضمن أن لا نؤمن بأقوال خالفت ما جاءت به الشريعة ، وإن كانت هذه الأقوال منمقة محسنة ، ومهما علا قدر قائلها ، وسمق فى دنيا الناس .

ومن الحب أن يجاهد المحب فى سبيل رفعة دينه ، وإظهاره ، وتطهيره مما علق به من شوائب الغفلة ، وعماية الجهل ، وما ران عليه من مفاهيم متخلفة وتقاليد ليست منه فى شىء .

ولما كان المحب يغار على محبوبه فيجب على المؤمن أن يغار على دينه ، فلا يرى الحرمات تنتهك فيغض الطرف ، ولا يرى المؤمنين فى غيهم يعمهون ويلتزم الصمت ، ويبصر الدول غير المسلمة فى تقدم وحضارة فلا يحاول أن يأخذ بأسباب التقدم وعوامل الحضارة ، ...

«مما سواهما» وقد عدل الحديث عن (من) إلى ما . إذ ما أعم من من وأشمل إذ تطلق على غير العقلاء والعقلاء . فكل شىء غير الله ورسوله لاتصل فى محبته إلى مقدارهما . وما أحسن تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحب) باسم التفضيل الذى يدل على أن الأنسان لا يمكن أن يقصر نفسه على حب واحد ، بل لابد له — تبعا لفطرته — أن يحب ما يهوى ويعشق من جمال

امرأة فاتنة ، أو إغراء مال يقضى به مآربه ، أو عاطفة بنوه أو أبوه تملأ وجدانه وتنعش ذاته ، فلا ضير على المؤمن أن يحب ويهوى على أن لايتعارض حب من تحب وما تحب مع حب الله ورسوله ، فإذا ما تعارضا غلب حب الله ورسوله . فلو أمرك أبوك بالمعصية عصيته ، ولو أمرت ابنك بالطاعة فأبى نهرته ، ولو غرتك زوجك بفاحشة أو مكروه أدبتها .

ومعنى هذا أن الأسلام لا يغل ويقيد ملكات الناس ، ولا يميت مشاعرهم فإنه يعترف بها ويقدرها ، ولكنه يضعها فى موضعها الصحيح . وإلا لم يبق إيمان على ظهر الأرض ، لئن دواعى المحبة لما سوى الله من شأنها أن تحارب الله ورسوله فإذا ما أسلم لها المرء قيادة فقد خسر الدنيا والآخرة . وغدا عبدا لما يحب . .

فعلى المؤمن أن يحب الله سبحانه لذاته ، ويحبه فى ما شرع ، ويحبه لنعمه وآياته . ويحبه لأنه الحب ، ومصدره .

ويحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأنه المبلغ عن الله . الصادق القول الكامل الخلق ، فلا يعصر له أمرا ، ولا يرد له سنة صحيحة ، ولا يقدم بين يدى الله ورسوله .

فحب الله ورسوله فى نظرى يتلخص فى إخلاص العقيدة ، والأمتثال للشرع فى رغبة وإقبال .

الثانى :— وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

للحب أسباب ودوافع . قد تتضارب ، وقد تتوافق ، وهذه الدوافع والأسباب منها ما يمدح ومنها ما يذم . والأنسان — مادام مرتبطا بذاته ويعيش فى الحياة الدنيا — يتعلق بما يظنه نافعا له ، ومريحا لنفسه ، وجالبا له الخير ، ودافعا عنه البلاء والشر .

وهذه العوامل عارضة غير ثابتة ، فالذى يعجبك اليوم قد تنفر منه غدا ، والذى فيه النفع قد يضر ، والمحبوب نفسه يعتريه التغيير والتقلب ، فليس من اللازم أن يظل محبا لك ، فقد تغيره الأيام فيتقلب قلبه ، وينسى ما كان منك وتلك فطرة الأنسان التى فطر عليها ، وطبيعة الأشياء التى يتعامل بها .

ثم إن الأشياء تقاس بغاياتها ، فمن كانت غاية قضاء وطر فترت محبته حين يناله ، ومن ابتغى النفع وانتفع وهى حبه وخبا بريق محبوبه ، فالحب إذا ارتبط بغايات مألوفة معتادة صار قصير العمر ، سريع الزوال ، وهذا أمر مشاهد ومألوف .

أما إذا ارتبط بالله سبحانه وتعالى وهو الحى الدائم ظل الحب حيا دائما ، واحتفظ بحرارته وعطائه . فأرتباط الحب بالله غاية يطيل أمد الحب وإرتباطه بالله غرضا يجعل المرء يتغاضى عن المكاره التى تصادقه فى حبه لأخيه ، لأنه لا ينشد رضا المحبوب ، وإنما رضى الله تبارك وتعالى .

ومن المعروف أن الأنسان إذا أحب شيئا بذل فى سبيله ، وضحى من أجله إبتغاء نفع ، أو قضاء حاجة ، أو إرضاء لعاطفة مشبوبة ، وهو — المحب يراقب عن كثب ما يعود إليه من هذا الحب وأعبائه وتكاليفه المادية والمعنوية وفى هذا خطر الحب لأنه يرنو إلى ناحية لا دوام فيها ، ولا إستقرار ، فينشأ نتيجة لذلك — الصراع ويدب الخلاف بين المتحابين ، وأشد ما تكون العداوة حين تقع بين حبيبين ، وتحدث الخصومة . وخصومة الأحباب أعنف ما فى الخصومة على حد تعبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى أوراق الورد . ، ويغدو الحب فتنة ، والود حقدا ، والعاطفة كارثة ، وما ذلك إلا لأنه إرتبط بمقومات أرضية ، وتعلق بأسباب مؤقتة مرهونة بأغراض عرضة للزوال ، والنفاد .

فى إرتباط الحب بالله سبحانه صيانة للحب ، وحفظ له ، وإستقرار لأسبابه ، وإستدامة لآثاره ، ووقاية للمتحابين ، وتسام فى النظرة ، وإرتفاع فى التعامل ، ورقى فى الإدراك ، وسماحة فى التعامل ، وزهد فى التناول.

ومن عجائب التراكيب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأن يحب المرء . لا يحبه إلا لله .) فقد أعترف فى صدر القول بالحب ، بل جعله أمرا مقررا . ، وليس (المرء) قاصرا على الرجل ، بل إنه يشمل المرأة أيضا ، ، كيف لا يشملها والحب حين يطلق ينصرف إلى حب المرأة عادة . ثم عدل الحديث فى هذه الجملة من مسار الحب (. لا يحبه إلا لله .) ، وفى هذا إعتراف ضمنى بالحب الذى يقع بين الناس ، وهو فى هذا يتسق مع طبيعة البشر ، فمن المعروف أن الجمال يعجب الأنسان ، ويكون لهمن التأثير ماله ، وهو من الأسباب الأساسية فى الحب ، ومن الدوافع الموجدة له ، ولكن هذا الجمال أولا نسبى فما تراه جميلا قد يراه سواك غير جميل . أو غير فائق الحسن أو لا يستحق عناء الحب ، وكلف العشق .

ثم إن الجمال مؤقت لأنه مرتبط بسن معينة وبحالة صحية ، فنضارة الشباب تذبل عند تقدم العمر ، وحمرة الخدود قد تطفىء لميكروب صغير يدخل فى جسم الحسناء فيذوى الجمال ، ويتهاوى الحسن ، وبالتالى ينهار الحب . فلا تكون له استمرارية لإرتباطه بأمر مؤقت ، وعارض .

وكذلك لو أحب المرء إنسانا لما له ، وكلف به لغناه ، فالمال عرض زائل وعارية مستردة ، وواهية قد يأخذه ما بين عشية وضحاها . فكم من غنى ستر المال عيبه ، وغطى على نقائصه زال عنه ماله ، فبدا ما خفى عنه ، وإنكشف ما كان مستورا ، وغدت حسناته عيوبا . إلى غير ذلك من الأسباب الدافعة إلى الحب ، والمؤلفة بين القلوب .

ولعل فى هذا يكمن بعض سر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «. تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» . فالأغراض الثلاثة ما عدا الدين عرضة للزوال والمحو . أما الدين فثابت قـائم .

ومتى أحب كل إنسان أخاه إبتغاء مرضاة الله أمن المجتمع من كوارث النزاع وحمق الصراع ، وتغلبت نوازع الخير على نزغات الشر ، وهـذا يوجد فى المجتمع نوعا من الاستقرار العام ، والطمأنينة التى تكف من غلواء المغالى وشراسة الشرس ، واندفاع المندفع ، فلا يندم أحد على خير قدمه ولا يأسف على محمدة فعلها ، ولا يجزع حين يبصر تغيرا ، أو يرى تغلبا فى العاطفة والمعاملة ؛ «لأنه فوق كل هذه الحوادث فهو لم يبتغ من وراء حبه نفعا عاجلا ، ولم يقصد إلى رد للجميل على صورة معينة إذ كانت وجهته فى كل ما قدم وجه الله . وغايته فى تضحياته ابتغاء مرضات الله . فلا يهمه — بعد ذلك . أحسن من أحبه أو أساء ؟ شكر له صنيعه أم كفره ؟! . نال منه حظا من تقدير أم نصيبا من جحود . فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال واضمحل .

فالحب لله إرتفاع بعاطفة المؤمن ، وسمو بإنفعالاته ، ورقى بمشاعره نحو الخير العام . والنفع الدائم ، ليظل المؤمن مصدرا للعطاء ، ومنبعا للحنان ، ورافدا من روافد الخير ، وسببا من أسباب السعادة .

والحب لله يجعل المحب يستقل كل ما يبذل فى سبيل محبوبه ، ويعـد ما ينفعه من مال أو جاه أو نفع شيئا ضئيلا ، لأنه لا يقارن بين عطائه وأخذ من يحبه وإنما بين عطائه وعطاء الله له ، وبذله ، وبذل الله له ، ومنحه ومنح الله

له ، ونعمته ونعمة الله عليه ، عند ذلك يدرك أنه وسيلة تبذل لوسيلة ، وأنه أداة فضله يجب أن يشكر الله على أن اختصه بهذه المنن ، وكرمه هذا التكريم

. (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله). قطع للوسائل الرخيصة ، وشجب للوسائط الدنيئة وتوجيه إيجابى لحركة المؤمن فى حياته ، إذ يجب عليه أن يتوجه بتلك العاطفة النبيلة إلى الله سبحانه وتعالى .

ولا يعقل — والدين الأسلامى دين الفطرة — أن يشجب الأسلام الحب ، أو يدينه ، أو يرفضه ، لأنه معوان على الحياة ، وميسر لعسيرها ، ومروض للنفوس ، وإنما يبتغى الأسلام من وراء ذلك التسامى عن مرتبة الحيوانية ، والأرتفاع إلى حب الخير للخير ، وغرس قيم الحب على أعتبار أنها قيمة إلاهية يجب أن توظف فى سبيل الله ، وتستثمر فى سبيل الله ، فتنشأ حركة تعاونية بين أبناء المجتمع ، يغلب عليها الحب الذى لا يشوبه مطمع وضيع ، وتسيطر على المجتمع أخلاق توهب الخير للجميع ، فيغدو فعل الخيرات عادة مستحبة ، ونيل رضا الناس عرفا عاما غير منكور ، لأنه وسيلة لرضا الله تبارك وتعالى .

فالحب لله إرتفاع بقدر الحب ، وإعظام لقدر المحبين ، ودلالة على الأثر الطيب الذى يترتب على تلك العاطفة حين توجه توجيها حسنا لصالح بنى البشر ، فما جنى الناس من شر إلا عن طريق الحب ، ولا جنوا من خير إلا عن طريق الحب .

الثالث : — (وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) .

هذه آية من آيات الإيمان . لأن الأنسان إذا آمن عن عقيدة راسخة لا عن رهبة أو رغبة وخالطت إيمانه عاطفة حب لله ورسوله وللمسلمين . فقد تعلق

عقلا وقلبا بدينه ، فلم يعد بحاجة ، إلى الخروج عن هذا الدين . فجميع ملكاته تعمل ، وتعيش ، وتلذ ، وتهنأ . فمن أين يتسنى له أن تساوره نفسه بالخروج عن هذا الدين الذى هيأ له الفرصة لكي يعيش عيشة راضية ، فى مجتمع يتمتع كل من فيه بالحب الذى يبتغى من ورائه رضا الله سبحانه وتعالى .

وعسير على الأنسان متى تحقق له إعتقاد مستقيم ، وتعامل راق رحيم ، أن يطيع — بعد ذلك — الشيطان الرجيم . وإلا كانت فطرته فاسدة ، وختم الله على ملكاته فلا يسمع غير الباطل ، ولا يرى غير المنكر ، ولا يعقل من شيء ذى قيمة .

وهذه الجملة . (أن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) جملة تصويرية ، تناسب إدراك العرب فى تلك الفترة ، وتنتظم كافة المستويات الإدراكية من بعد ومن من الناس الأسوياء يود أن يلقى به فى النار بعد أن قيض من النجاة ، وزحزح عنها .

ولما كانت النار تأتى على كل شيء ، وتنتهب ما يلقى فيها ، فكذلك الكفر يطمس ملكات الأنسان ، ويدمر وجدانه ، ويطيح بعقله ، ويزيغ بنظرته — فلا تدبر له إذا عقل ، ولا غاية له دائمة إذا أنجز ، ولا طمأنينة عنده فى ممارسته اليومية . وشئون حياته .

وفى النار إيذاء وألم وفى الكفر إيذاء وألم ، ألم القلق الذى ينتاب الكافر وألم الجحود الذى يلاقيه الكافر من مجتمعه الكافر ، وألم التنكر والبغضاء ، والحقد وكل أوضار النفس البشرية حين لا ترتبط بغاية سامية ، أو تتعلق بدين يكف من غلوائها .

وإذا كان إيذاء النار ماديا مرئيا ، فالإيذاء الذى يجده الكافر قد يكون

ماديا ، وقد يكون معنويا ، فهو أشق من عذاب النار ، وأقسى من ألم الأحراق وأمض من ألسنة اللهب .

وهذه الصورة المتخيلة للمؤمن حين يرغب عن إيمانه طامحا إلى الكفر إنما يقرب المثل وتدنى النظير ، وليست مقصودة لذاتها فقط . وإنما من ورائها الدلالات والمعانى .

وفى رأيى أن الحديث قد أحكمت صنعته الغنية أحكاما معجزا حتى يؤتى ثمرته .

فالمؤمن لا يبلغ تلك الغاية السامقة . ويصل إلى تذوق حلاوة الإيمان ، ويشعر بوجودها . إلا إذا أدرك أولا حقيقة لا حكما فى هذه الأمور التى نص عليها الحديث .

ولربما كانت من موبقات المجتمع الأسلامى فى عصرنا أننا نعرف — إن عرفنا — دلالة الكلام ، وفحوى اللفظ ، ووحي العبارة ، ولا نعيش المعنى ، ولا نحقق أمرا ، ولذا فقد غدونا نعيش فى فلسفة كلامية ، وحياة بلاغية ، ولم نجن من وراء ما نعرف غير الثرثرة والغثاء . ولو أننا رمنا تحقيق أمر ، وإيجاد معنى ، وإخراجه من حيز القول إلى الوجود لصعب علينا ذلك لما تعودناه من ألف الكلام ، وحب تشقيقه ، والوقوف عند فهمه — إن فهمنا — ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب كثرة القول ولم يوص بذلك أبدا وإنما كان يؤثر الصمت ، ويحب العمل الكثير ، ويعظ بأفعاله أضعاف ما يعظ بأقواله .

فأدراك حقائق ديننا هو بداية إدراكنا لأنفسنا ، وهو السبيل إلى إدراكنا

لغاياتنا ، وأملنا فى طرح التخلف ، ونبذ الأنهيار ، وهو الأمل فى التطور والتقدم .

فإخلاص الديانة عقيدة وشريعة من ترهات الزيف ، وخزعبلات الباطل وتطهرها مما ران عليها من شوائب الخلاف ، والسياسة ، والأغراض المدخولة والوسائل المزدولة هو بداية الطريق الصحيح نحو مسيرة مظفرة .

ولم يأت الأسلام لكى يخلص الناس من عبادة الأصنام والسجود للأوثان فحسب ففى كل عصر أصنام ، وأوثان ، وفى كل زمن ما يعبد من دون الله ، بل فى نفس الأنسان ما يجعله خارجا عن روح دينه ، فيجب أن يتحرر المؤمن شيئا فشيئا من أوثان نفسه ، وينتقد على أوهام عصره ، ويتغلب على أصنام مجتمعه من غير أن يحدث أضرارا أشد ضراوة من الرضوخ للأصنام والأوثان .

ولو أن المؤمن أخلص الحب لله ورسوله ، لأستقامت له سبل الحياة ، وأتت له الدنيا طيعة . شريطة أن يكون ذلك ديدن كل مسلم ، وسمة كل مؤمن وإلا فلن يظهر أثر حب الله ورسوله ، ولن يؤتى ثماره .

فنقطة البداية فى تكوين مجتمع مؤمن سليم . هى حب الله ورسوله .

ثم تسلمك تلك البداية إلى الحلقة الثانية . وهى حب المجتمع المؤمن بعضه لبعض ، وربطه برباط الحب الذى لا تنفصم عراه ، ولا سيما إذا كانت غايتها الله سبحانه وتعالى ، فيفعل المحب الخير غير ناظر إلى مقابل ، ويأخذ المحبوب الخير على غير خزى أو إستحياء ، ويغدوا المجتمع آمنا مطمئنا ، لأن حركته قائمة على المحبة التى هى أصل لكل خير ، وسبب لكل نعمة ، وأسس من أسس الرخاء والنماء والعطاء .

وحياة كمثل هذه الحياة المتصورة من إخضاع الأهواء والنزعات لله

ورسوله وكبح جماح النفس إبتغاء مرضات الله ، لا ريب فى أنها حياة رغيدة كلها دفء ، وحنان ، وطمأنينة ، وأمن وسعادة .

ومن هنا تأتى الحلقة الثالثة . وهى كراهة مفارقة الأنسان لتلك الجنة التى يعيش فيها . إذ من الضرورى أن يقارن المرء بين ما غدا فيه وما كان عليه ، عندئذ يتبين له أنه يعيش حياة راضية سعيدة . فكيف يربأ بنفسه عن تلك الحياة الرغدة ، ويلقى بنفسه فى أتون يتلظى ، ويعرض نفسه لآلام مبرحة ، وعذابات شتى ، فلا غرو أنه يكره ذلك .

وما عصمه من النار غير إيمانه المبنى على حبه لله ورسوله وحبه لأخوانه فهل يليق به — بعد ذلك — أن يزايل هذه النعمة ، وينصرف عن تلك الحياة إلى حيث يفقد أمنه ، وتضيع منه معالم طريقه .

ومن الأشياء الجميلة — فوق ما ذكرت — التى تعجبنى فى ذلك الأثر النبوى الكريم قوله (أن يكره أن يعود فى الكفر) . وكان المعتاد أن يقول أن يعود إلى الكفر . وتعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم بليغ غاية البلاغة فدلالة فى تعنى الأنغماس ، والإحاطة ، فالكفر يحيط بالكافر إحاطة الماء بالفريق ، والنار بالحريق فقد يذهب المرء إلى شيء ولا يلجه ، ولكن إذ ألقى فيه ولجه واستولى عليه . فالكفر يغطى من نعم الله — ويغشى بصائر الناس ، ويطمس على قلوبهم فلا تفقه وعلى مداركهم فلا تتبصر .

وإذا عاد الأنسان إلى الكفر واستولى عليه فمن العسير أن يكر راجعا إلى الإيمان لأنه يذهب بنقاء نفسه ، وصفاء فطرته ، وسمو مشاعره ، ورقى مداركه وإحساسه ، وفى المقارنة جمال التناظر ، وروعة المفارقة حتى يتبين للناس الرشد من الغى والهدى من الضلالة ، والظلمات من النور . وأمن الإيمان من فزع الحريق ووهج النار .

المراجع

القرآن الكريم .

أبو هريرة شيخ المضيرة — محمود أبو رية — دار المعارف القاهرة

أبو هريرة راوية الأسلام — د. محمد عجاج الخطيب — سلسلة أعلام العرب القاهرة

أبو هريرة — عبد الحسين شرف الدين — بيروت .

الأتقان فى علوم القرآن — السيوطى — طبعة الحلبى — القاهرة .

الأحكام فى أصول الأحكام — ابن حزم — تحقيق زكريا يوسف — القاهرة

الأحكام — الآمدى — القاهرة

أحكام القرآن — الجصاص — القاهرة

أحكام القرآن — ابن العربى — القاهرة

الأختلاف فى اللفظ — ابن قتيبة — القاهرة

الأخبار الطوال — أبو حنيفة الدينورى مكتبة المثنى — بغداد .

إرشاد السارى على صحيح البخارى — القسطلانى — طبعة بولاق — القاهرة .

إرشاد الفحول — الشوكانى — طبعة الحلبى — القاهرة .

الأستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار — ابن عبد البر — المجلس الأعلى للشئون الأسلامية

الأستيعاب فى معرفة الأصحاب — ابن عبد البر — القاهرة .

أسد الغابة — ابن الأثير — دار الشعب — القاهرة

أساس البلاغة — جار الله الزمخشرى القاهرة .

أصل الشيعة وأصولها — محمد الحسين آل كاشف الغطاء — بيروت

الأصابة فى تمييز الصحابة — ابن حجر — القاهرة .

أضواء على السنة المحمدية — محمود أبو رية — دار المعارف — القاهرة

الأعتصام — الأمام الشاطبى — طبعة عمر بن الخطاب — الأسكندرية

الأعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار — أبو بكر الحازمى — تحقيق محمد عبد العزيز — القاهرة .

إعجاز القرآن — الباقلانى — القاهرة .

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعى — المكتبة التجارية — القاهرة

أعلام الموقعين عن رب العالمين — ابن القيم — القاهرة .

أعيان الشيعة ، ونقض الوشيعة — السيد محسن الأمين ط ١٩٦٠ — بيروت.

الأم — الأمام الشافعى — القاهرة

الأنتصار لنقل القرآن — تحقيق د. محمد زغلول سلام — منشأة المعارف الأسكندرية

الأنتقاء — ابن عبد البر — القاهرة

الأنوار الكاشفة لما فى كتاب — أضواء على السنة — من الزلل والتضليل والمجازفة . — عبد الرحمن المعلمى اليمانى — طبعة السلفية — القاهرة

الإيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون — اسماعيل باشا — دار العلوم الحديثة — بيروت .

البرهان فى علوم القرآن . الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — القاهرة

الباعث الحثيث لابن كثير — تحقيق المرحوم أحمد شاكر — القاهرة .

البيان والتبيين أبو عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون — القاهرة

تأنيب الخطيب على ما ساق فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب
تأليف محمد زاهد الكوثرى طبعة الخانجى — القاهرة

تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة تحقيق الأستاذ السيد صقر — القاهرة

تأويل مختلف الحديث ابن قتيبة القاهرة

تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى — السيوطى تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — دار الفكر ١٩٦٦ م .

تذكرة الحفاظ الذهبى طبعة حيدآباد — الهند

تذكرة الموضوعات الفتنى القاهرة

ترتيب المدارك القاضى عياض القاهرة

تلبيس إبليس (نقد العلم والعلماء) ابن الجوزى . بيروت .

تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة
تأليف على الكنانى — تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف القاهرة

تنقيح الفصول الأمام القرافى القاهرة

تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلانى القاهرة

تاريخ أبو الفدا أبو الفدا القاهرة

تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى	القاهرة .
تاريخ التشريع الأسلامى	محمد الخضرى	القاهرة .
تاريخ الأمم الأسلامية	محمد الخضرى	المكتبة التجارية—القاهرة
ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق د. محمد زغلول سلام — دار المعارف الأسكندرية
الجرح والتعديل	أبو حاتم الرازى	طبعة حيدرآباد — الهند
جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشى	المكتبة التجارية—القاهرة
جامع بيان العلم وفضله	ابن عبد البر	دار الكتب العلمية — بيروت
جامع البيان عن تأويل آى القرآن (تفسير الطبرى — تأليف ابن جرير الطبرى — تحقيق العلامة محمود شاكر — دار المعارف القاهرة
جامع العلوم والحكم	ابن رجب — تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور —القاهرة
الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع	الخطيب البغدادى —	الأسكندرية
حجة الله البالغة	الدهلوى	القاهرة
الحديث عند الشيعة	محمد حسين الجلالى القاهرة .
حسن التقاضى فى سيرة أبى يوسف القاضى — محمد زاهد الكوثرى — طبعة الخانجى — القاهرة .
الحضارة الأسلامية	آدم متز	ترجمة د. محمد عبد الهادى أبوريدة
الحيوان	أبو عثمان الجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون القاهرة .

الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان - ابن حجر الهيتمى - القاهرة
الدر المنثور فى التفسير بالمأثور السيوطى القاهرة
ديوان البوصيرى تحقيق محمد سيد كيلانى - طبعة الحلبى -
القاهرة
ديوان حسان بن ثابت تحقيق د. سيد حنفى حسنين - القاهرة .
الذريعة إلى تصانيف الشيعة يوسف البحرانى بيروت .
رسائل الجاحظ أبو عثمان الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون
القاهرة .
الرفع والتكميل فى الجرح والتعديل - اللكنوى طبعة الهند -
زاد المعاد من هدى خير العباد ابن القيم طبعة الحلبى - القاهرة .
سنن أبى داود أبو داود سليمان بن الأشعث - القاهرة
السنن الكبرى أحمد بن الحسين البيهقى حيدرآباد - الهند
السنة قبل التدوين د. محمد عجاج الخطيب دار الفكر - بيروت
السنة ومكانتها فى التشريع الأسلامى د. مصطفى السباعى - القاهرة
سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبى دار المعارف - القاهرة
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - عبد الحى بن العماد الحنبلى - دار
المسيرة - بيروت
شرح صحيح مسلم يحى بن شرف الدين النووى - القاهرة
شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد دار إحياء التراث العربى
شعر الأحوص بن محمد الأنصارى - تحقيق عادل سليمان - القاهرة
شيخ المضيرة (أبو هريرة) - محمود أبو رية دار المعارف - القاهرة .
الشيعة فى الميزان محمد جواد مغنية دار التعاون - بيروت .

صحيح البخارى　محمد بن اسماعيل　طبعة دار الشعب ـ القاهرة
صحيح مسلم　..　مسلم بن الحجاج — تحقيق المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى — القاهرة .
الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة — ابن القيم .　القاهرة .
ضحى الأسلام　أحمد أمين　القاهرة .
طبقات الحفاظ　جلال الدين السيوطى — تحقيق على محمد عمر مكتبة وهبة — القاهرة .
طبقات الشافعية　السبكى　بيروت
الطبقات الكبرى　محمد بن سعد　القاهرة
طبقات المدلسين　شهاب الدين بن حجر — القاهرة
طرح التثريب فى شرح التقريب الحافظ العراقى　القاهرة .
ظلمات أبى رية أمام أضواء السنة المحمدية — محمد عبد الرازق حمزة — السلفية القاهرة .
عقود الجواهر المنيفة فى أدلة أبى حنيفة — المرتضى الزبيدى — الأسكندرية
العقيدة والشريعة فى الأسلام　جولد تسيهر — ترجمة المرحوم د. محمد يوسف موسى
ود. على حسن عبد القادر . وعبد العزيز عبد الحق　القاهرة
العواصم من القواصم　أبو بكر بن العربى — تحقيق محب الدين الخطيب القاهرة
عوارف المعارف　أبو حفص عمر السهروردى —　القاهرة
غريب الحديث　أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى — دار الكتاب العربى — بيروت .

غياث الأمم التياث الظلم أمام الحرمين الجوينى – تحقيق د. مصطفى حلمى ود. فؤاد عبد المنعم دار الدعوة الأسكندرية

فتح البارى ابن حجر العسقلانى – طبعة الحلبى – القاهرة.

الفتح الربانى بترتيب وشرح مسند أحمد بن حنبل الشيبانى – عبد الرحمن البنا طبعة الأخوان

فجر الأسلام أحمد أمين القاهرة

الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادى – دار المعارف – القاهرة .

الفصل فى الملل والأهواء والنحل – ابن حزم القاهرة .

الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادى – دار الكتب العلمية – بيروت

الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة – محمد بن على الشوكانى – القاهرة

الفائق فى غريب الحديث جار الله الزمخشرى القاهرة .

قبول الأخبار ومعرفة الرجال أبو القاسم البلخى – دار الكتب المصرية

قصة الحديث النبوى محمود أبو رية القاهرة

قفا الأثر ابن الحنبلى الحنفى القاهرة

القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد – ابن حجر – الهند

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث – جمال الدين القاسمى – طبعة دمشق

قاعدة فى الجرح والتعديل السبكى القاهرة

القياس فى الشرع الأسلامى ابن تيمية . طبعة السلفية – القاهرة

كتاب التعريفات على بن محمد الجرجانى – بيروت

كشف الخفاء ، ومزيل الألباس ، عما إشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس
تأليف المفسر المحدث اسماعيل بن محمد العجلونى — دار التراث الإسلامى
حلب — القاهرة .

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . مصطفى بن عبد الله — حاجى خليفة
دار العلوم الحديثة — بيروت

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل
تأليف : الأمام جار الله الزمخشرى — القاهرة

الكفاية فى علم الرواية الخطيب البغدادى بيروت

الكشكول فيما جرى لآل الرسول — العاملى طبعة الحلبى — القاهرة .

الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى — الكرمانى — القاهرة

اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة — السيوطى — القاهرة

لسان العرب ابن منظور دار المعارف — القاهرة .

لسان الميزان ابن حجر الهند

مباحث فى علوم الحديث د. صبحى الصالح بيروت

مسند أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر القاهرة

معجم البلدان ياقوت الحموى القاهرة

معجم المؤلفين رضا كحالة دمشق

معرفة علوم الحديث للحاكم — تحقيق معظم حسين الهند

المعارف ابن قتيبة دار المعارف — القاهرة .

مفتاح الجنة فى الأحتجاج بالسنة السيوطى القاهرة .

مقدمة ابن الصلاح . تحقيق د. عائشة عبد الرحمن القاهرة .

مقالات الأسلاميين	أبو الحسن الأشعرى — تحقيق محى الدين عبد الحميد — القاهرة	
الملل والنحل	محمد بن عبد الكريم الشهرستانى — القاهرة	
المنتقى من منهاج الأعتدال	ابن الجوزى	القاهرة
الموافقات فى أصول الشريعة	الأمام الشاطبى	القاهرة
ميزان الأعتدال	الأمام الذهبى	القاهرة
نسب قريش	أبو عبد الله المصعب — تحقيق ليفى بروفنسال — القاهرة	
نظرة عامة فى تاريخ الفقه الأسلامى — د. على حسن عبد القادر — القاهرة		
النظريات الأسلامية السياسية	د. محمد ضياء الدين الريس — القاهرة	
نقض المنطق	أحمد بن عبد الحليم بن تيمية — طبعة أنصار السنة — القاهرة .	

فهرس الكتاب

ص

الباب الثانى

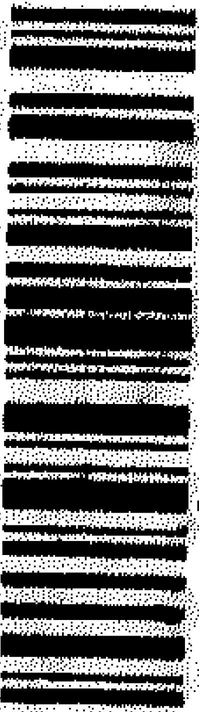
أسباب الوضع فى الحديث

ص

الباب الثالث

شرح بعض الأحاديث

طبـــع بمطابع جــريدة السفير
٤ شارع الصحافة ــ اسكندرية



٣٥٠

١/١٢٠٠٤٢

دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)